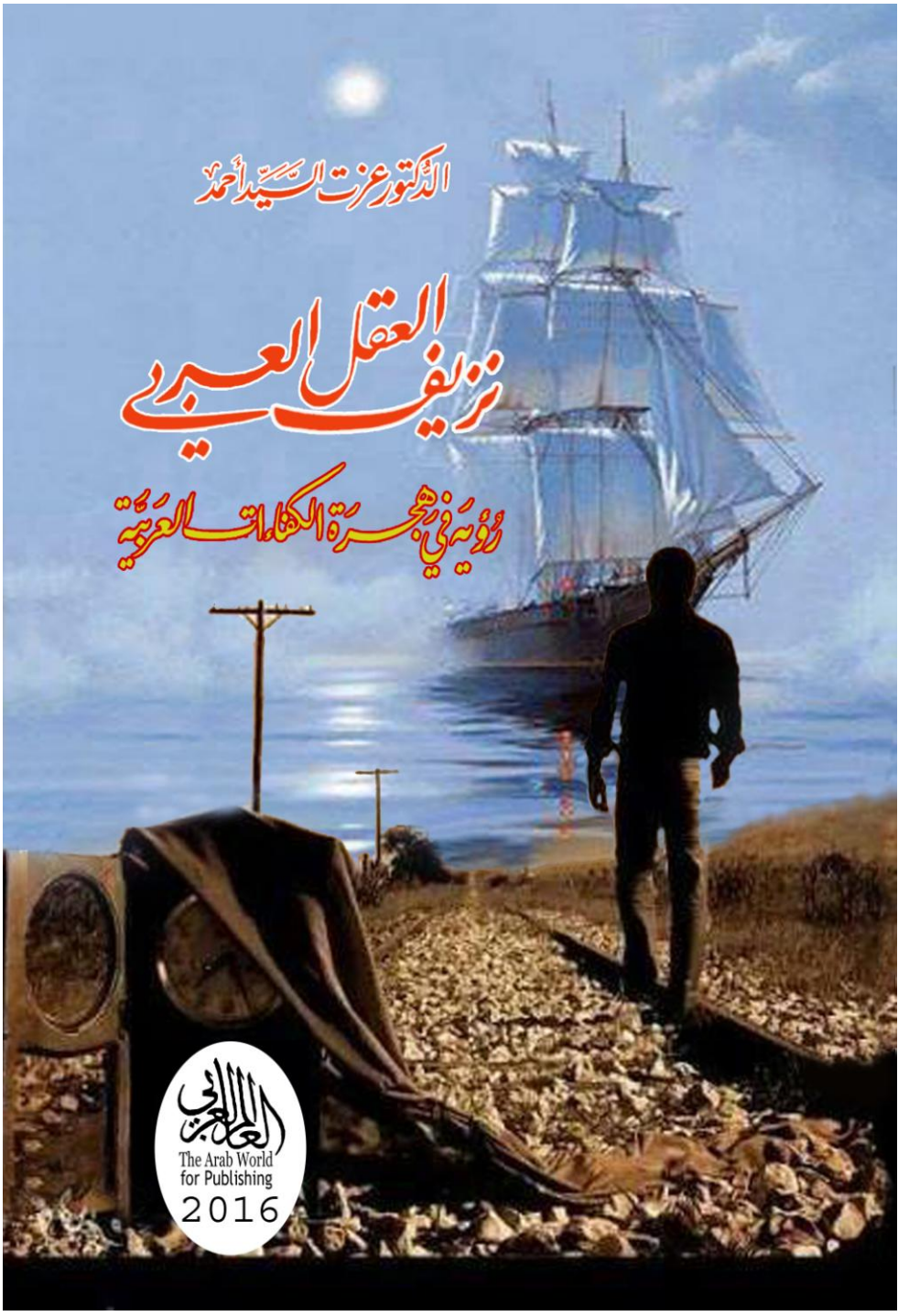
الدكتور عزت السيد أحمد
تزييف العقل العربي
رؤية في هجرة الكفاءات العربية
العالم العربي
The Arab World
for Publishing
2016

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

نزيف العقل العربي

رؤية في هجرة الكفاءات العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

نزيف العقل العربي

رؤية في هجرة الكفاءات العربية

العالم العربي
The Arab World
for Publishing

☆ الكتاب : **نزيف العقل العربي**

قراءة في هجرة الكفاءات العربية.

☆ الموضوع: **دراسة.**

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد.**

☆ عدد الصفحات: ٢١٠ صفحة.

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.

☆ النَّاشر: **العالم العربي للنشر.**

☆ **عمان.**

☆ الطبعة الأولى: **٢٠١٦م.**

☆ **تاريخ: ٢٠٠٧/٠٦/٩ م.**

☆ تصميم الغلاف بريشة بيلسان.

☆ **الحقوق جميعها محفوظة.**

تمنع طباعة هٰذا الكتاب أو نشره، أو فصل منه، من دون موافقة خطيَّة من النَّاشر أو المؤلف. ويجب مراعاة أصول الاقتباس والتوثيق لدى اقتباس أي نصوص أو شواهد من الكتاب.

☆ بريد إلكتروني : **sameah3@gmail.com**

الإهداء

أمتي

هل لك بين الأمم

منبر للسيف أو للقلم

عزت

مُقدِّمة الكتاب

لنبدأ من الدَّم العربيِّ المسفوح شلالاتٍ في هٰذه الأيام... كنا نقول: الدَّم ينزف. النَّزف الآن لا يجدي في وصف شلالات الدَّم المسفوحة في العالم العربيِّ وخاصَّةً في سوريا والعراق واليمن. عندما سَمَّيْتُ الكتاب: نزيف العقل العربي، كنت أريد القول إنَّ العقل ينزف وليس الدَّم فقط. العقل العربيُّ ينزف أيضاً إلىٰ جانب الدَّم العربيِّ النَّازف...

يشاء القدر أن يُدفع بهٰذا الكتاب للنَّشر في ظلِّ سفح الدَّم العربيِّ بلا حسابٍ ولا عقابٍ، وبصمتٍ مريعٍ... وقد توقف نزيف العقل العربيِّ أيضاً ليتحوَّل إلىٰ سفح العقل العربيِّ... وكأنَّهَا متلازمةٌ؛ مع نزيف الدَّم العربيِّ ينزف العقل العربيُّ. ولعَلَّنا من هٰذه المتلازمة نخلص إلىٰ نتيجةٍ تقول: لن يتوقَّف نزيف العقل العربيِّ ما لن يتوقَّف نزيف الدَّم العربي، ولن يتوقَّف سفح العقل العربيِّ ما لم يتوقَّف سفح الدَّم العربيِّ... الأمَّةُ التي تدفع عقول أبنائها إلىٰ الهجرة هي الأمَّة التي تسهم في سفك دم أبنائها بالمطلق.

وقفنا عند ما حصلنا عليه من إحضاءات في متن الكتاب، ومع ذٰلكَ نلقي في هٰذه المقدمة أضواء خافتة تمهيدية لأعداد الكفاءات المهاجرة، «أثار

الدكتور **المهدي المنجرة** في أواخر السِّتينات من القرن العشرين، وبالتَّحديد سنة ١٩٦٨، عندما كان نائباً للمدير العام لليونسكو في العلوم الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة، قضيَّة هجرة العقول ومعظمها من حملة الشَّهادات العليا المتخصصين في علوم المعلومات، وذٰلكَ في إطار مشاركته في أعمال معهد الأمم المتحدة للتكوين والبحث "Unitar"، ونبَّه في الآثار السَّلبيَّة التي تتركها تلك الهجرة علىٰ البلدان الدَّافعة وأعطى مثالاً يومها علىٰ أنَّ سبعمئة باحثٍ عربيٍّ من المغرب فقط حاصلين علىٰ درجة الدكتوراه فما فوق يعملون في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، وكشف أيضاً عن ٦٠% من خريجي المعهد الوطني للبريد والمواصلات "Inpt" قد غادروا من المغرب إلىٰ الخارج. أمَّا القطر العربيُّ السُّوري، كما تشي بذٰلكَ إحصاءات عالميَّة، علىٰ درجة من الثِّقة، فقد هاجر منه منذ ١٩٦٤م وحَتَّىٰ ١٩٦٩م، ما يقرب من نصف كفاءاته العالية من علماء ومثقفين»[١].

ووفق تقديرات برنامج التَّنمية التَّابع للأمم المتَّحدة لعام ٢٠٠٤م ذكر «أنَّ نصف الطلبة الأفارقة والعرب الذين يتابعون دراساتهم بالخارج لا يعودون إلىٰ بلدانهم»[٢]. وحسب الدكتور **عبد الله الجعيدي** «يقدَّر نزيف الكفاءات العربيَّة المسحوب إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكيَّة وحدها، في أواخر القرن العشرين، بـ٧% من مجموع علمائها وباحثيها اللامعين»[٣].

---

(١) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(٢) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . إدريس ولد القابلة (تقديم وترجمة) . الحوار المتمدن – العدد ١٣٥٦ . ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٥م.

(٣) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

في إحصاءٍ قريبٍ نسبيًّا قال الأمين العام لجامعة الدُّول العربيَّة **عمرو موسى** في اجتماع وزراء الدُّول العربيَّة المعنيين بشؤون الهجرة والمغتربين بمقر الجامعة العربية في القاهرة عام ٢٠٠٢م: «إنَّ عدد المهاجرين العرب في الخارج يبلغ نحو ٣٥ مليون مهاجر، أي ١٢% من عدد سكان الوطن العربيِّ مع قابليَّة هٰذه الأعداد للزِّيادة المطردة»(٤). وكان اضطراد الزيادة أكثر مما يتخيلون.

وفي إحصاء تصنيفي نوعاً ما ذكرت دراسة لمركز الخليج للدِّارسات الاستراتيجية في عام ٢٠٠٣م «أنَّ ٤٥ بالمئة من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلىٰ بلدانهم وأنَّ ٣٤ بالمئة من الأطباء الأكفاء في بريطانيا هم من العرب، مضيفةً أنَّ هناك نحو ٧٥ بالمئة من الكفاءات العلميَّة العربيَّة مهاجرة بالفعل إلىٰ ثلاث دولٍ تحديداً هي أمريكا وبريطانيا وكندا كما نقل موقع ميدل إيست أونلاين»(٥).

وللدلالة علىٰ عمق المصيبة فإنَّ هٰذا النزيف ليس وليد الأزمات التي تمر بها بعض الدول العربية، وإنما هو تاريخ طويل علىٰ مدار ما سبق من القرن العشرين، وعلىٰ مدار ما سبق الإسلام إبان المجد الإغريقي والروماني، وفي مثال عابر بسيط «هاجر خلال المدَّة من ١٩٦٧/٦/٣٠م حَتَّىٰ ١٩٦٨/٦/٣٠م نحو من ١٥٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطباء العرب. وخلال المدَّة نفسها من العام التَّالي هاجر ٣١٩٨١. أمَّا العام الثالث فكان نصيبه ١٦٤٩٢ مهاجراً، هٰذا إلىٰ

---

(٤) . محمود جمعة: **وسط دعوات لتنظيم الهجرة وجعلها عربية عربية؛ مجلس وزاري عربي يبحث أوضاع المهاجرين والمغتربين**. الجزيرة نت. كانون الثاني ٢٠٠٢م.

(٥) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟**. موقع أخبار الوطن. ٢٠٠٦/٦/١٦م.

أمريكا وحدها»[٦]. أي إنَّ نصيب أمريكا وحدها من الكفاءات العربيَّة المهاجرة قد بلغ خلال آخر ثلاثة أعوام من الستينات نحو ٦٤٤٤٦ كفاءة. هٰذا تقديرٌ صغيرٌ بسيطٌ أقلُّ من الحقيقة مثل أغلب الإحصاءات لعجزها عن التَّقدير الحقيقيِّ أو القريب من الحقيقة.

لا نطيل، كان مشروع الكتاب صغيراً لبحث من قسمين في موضوعين، نما البحث بسرعةٍ كبيرةٍ لخطورة الموضوع وغنى الأفكار التي فرضت ذاتها، فصار كتاباً، والكتاب انقسم إلىٰ أقسام منها هٰذا الكتاب وآخران في الكفاءات العربية المهاجرة يصدران قريباً إن شاء الله تعالى. وقد مهَّدت في بعض فصول هٰذا الكتاب لمراحل العمل به ومحاولات نشره فلا أكرِّرها في هٰذه المقدِّمة.

هٰذا ما انجلى عنه جهدنا فنأمل أن نكون قد وفقنا في عملنا. ونعترف تأسيساً أنَّهُ ما زال في الموضوع الكثير من القول، ومجال الرأي مفتوح. ولا بُدَّ أنَّ ثَمَّة جوانب لم نتطرق إليها تستحق أن يقف عندها الباحثون. وقفنا عند ما رأيناه ضرورةً، وتركنا وراء السُّطور ما بُدَّ من تركه وراءها.

(٦) . د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة . الرياض . ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م . ص٥٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** . دار القلم/ الدار الشاميَّة . دمشق/ بيروت . ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م . ص٧٩.

الفصل الأول

الإحصاءات والتقديرات

بداية ثَمَّة مسألة لا بُدَّ من الإشارة إليها وتوضيحها. هٰذا التقديم لهٰذا الفصل مقترن بفترة نشر هٰذا الكتاب، وهٰذا الفصل وهٰذا الكتاب تم الفراغ منه في نسخته الأولية في أواخر عام ٢٠٠٠م، وقد نشر في مجلة المعرفة عام ٢٠٠١م مقترناً بالهدر والنزيف الاقتصادي تحت عنوان: العرب هؤلاء المذهلون.

ثمَّ تم تقسيم البحث إلىٰ قسمين النَّزيف الاقتصادي تمَّ توسيعه ليكون في كتاب النظام الاقتصادي العربي الذي صدر عن دار إنانا بدمشق عام ٢٠٠٥م، وهٰذا الكتاب الذي تأخر نشره لظروف كثيرة خارج الإرادة. ومن ثمَّ فإنَّ هٰذه الإحصاءات كلها تقريباً كانت في فترة إنجاز الكتاب، وقد تمَّ تحديثها ببعض التَّقديرات في فترة إعداد الكتاب للنَّشر عام ٢٠٠٧م. ولٰكنَّ الكتاب أيضاً لم يصدر في تلك الفترة، ولم تسمح الظُّروف بتحديث المعطيات والتَّقديرات والإحصاءات في هٰذه الفترة لأسباب كثيرة، وقد تغيَّرت التَّقديرات بسبب الربيع العربي تغيراً كبيراً جدًّا.

ليست هجرة الكفاءات العلمية هي المشكلة الوحيدة التي يعاني منها العالم العربي، ولٰكنَّها واحدةٌ من أكثر المشكلات حساسيةً وأهميَّةً، لما تنطوي عليه من أبعادٍ؛ حضاريَّةٍ وتاريخيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وسياسيَّةٍ، وأخلاقيَّةٍ أيضاً. ولعَلَّ في هٰذه القصَّة الطَّريفة ما يسوِّغ لنا البداية:

في برنامجٍ علىٰ الهواء، بمناسبة وصول بثِّ الفضائيَّة السُّوريَّة إلىٰ أمريكا وأوربا[٧]، هَتَفَ أحد المغتربين السُّوريين في ألمانيا إلىٰ البرنامج، الذي كان يديرهُ الأستاذ **خلدون المالح**، للتَّهنئة والتَّعبير عن فرحة المغتربين بوصول البثِّ إليهم. وعندما سأله الأستاذ **خلدون** عن عمله وعن المغتربين أجابه قائلاً:

ـ عدد المغتربين السوريين في ألمانيا نحو خمسين ألفاً كلُّهم ذوو شهادات عليا، ونصفهم تقريباً من حملة شهادة الدُّكتوراه في الطِّبِّ والهندسة، لدرجة أنَّه إذا التقىٰ اثنان منَّا فإنَّ أوَّل سؤالٍ يسأله الواحد للآخر هو: ما اختصاصك وفي أيِّ مشفىٰ تعمل، أو أي مشفىٰ تملك، أو أين عيادتك ؟ فإن كان الجواب بالنَّفي أي إذا لم يكن طبيباً كان السُّؤال: في أي شركة تعمل أو أي شركة تملك؟

فأجابه **خلدون المالح** قائلاً:

ـ لقد ذكَّرتني بعبارةٍ مشهورة تقول: إنَّ أهمَّ صادراتنا إلىٰ الخارج هي البشر.

نعم، إنَّ أهمَّ صادراتنا إلىٰ الخارج هي البشر. ويا نِعْمَ التَّصدير، فإن كانت الأمم تتفاخر بما تمتلكه من الثَّروات وبأهميَّة ما تصدِّرهُ فليس لأمَّة في التَّاريخ أن تعلو علىٰ أمَّةِ العرب فخراً، لأنَّنا نصدِّر للعالم أهمَّ شريانين من شرايين الحياة؛

(٧) ـ بثَّ هذا البرنامج يوم الأحد ٧ / ٢ / ١٩٩٩م. (هو دكتور في هندسة المدن، من مدينة منبج).

الكفاءات البشريَّة والنفط، فالكفاءات البشريَّة هي الشريان الذي يضخُّ الحياة في الارتقاء والتقدم، في ديمومة قوَّة الحضارة. والنِّفط هو الشريان الذي يضخُّ الحياة في مختلف مستويات التقنيَّة وأنواعها. أي إنَّ العرب يصدِّرون للعالم أهم شريانين علىٰ الإطلاق، وهما الأكثر أهميَّةً لا لأنَّهما يكفلان محض الحياة بل لأنَّهما يخلقان أكمل حياة.

والحقَّ أن خوض غمار أهميَّة هٰذين الشِّريانين أو محاولة تأكيدها لن تخلو من الوقوع في ضربٍ من الدَّور المنطقيِّ، فما الذي يمكن أن نضيفه إلىٰ أهميَّة النفط وأهميَّة الكفاءات العلميَّة؟! وهما كلاهما كالشَّمس، وما قول الأنام في الشَّمس سوى أنَّها الشَّمس لا قول فيها؟! ولٰكنَّنا لا نستطيع إلا القول: إنَّ الأمَّة التي لا تدرك أهميَّة هٰذين الشِّريانين أمَّةٌ معتوهةٌ إنْ أحسنا الظنَّ فيها. وإن نحن لم نرد الحديث في أهميَّة النِّفط والكفاءات لطول الحديث فيها إلىٰ الدرجة التي قد يتعذَّر الوقوف فيها عند حدٍّ فإنَّنا لا نستطيع أن نغفل بعض العبارات التي تشبه المقولات أو حوامل الوجود، منها قول **جورج كليمنصو** إبان الحرب العالميَّة الأولى: «إنَّ النِّفط ضروريٌّ كالدَّم»[٨]، وقول **كولدرج** رئيس الولايات المتحدة، في عام ١٩٢٤م، عند افتتاح اللجنة الفيدراليَّة للنِّفط: «إنَّ تفوُّق الأمم يمكن أن يُقرَّر بوساطة امتلاك النِّفط ومنتجاته»[٩]، وكذٰلكَ قول أحد زعماء الدُّول الغربيَّة في الحرب العالميَّة الثَّانية: «إنَّ قطرة واحدةً من النَّفط تساوي قطرةً

(٨) ـ جريدة؛ **القبس** ـ الكويت ـ عدد ٢٥ / ٤/ ١٩٩٠م.

(٩) ـ عيسى درويش: **البترول وأهميته في معركة الصمود والتَّصدي** ـ ضمن مجلة؛ **المناضل** ـ العدد ١١٧ ـ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩م ـ ص٨٧.

من الدَّم»[١٠]، وغير ذَلكَ الكثيرُ الكثير من الأقوال والتَّحليلات والسِّياسات الَّتي تُبرز خطورة النِّفط وأهميَّة مكانته[١١].

وبالمثل تماماً كان أمرُ الحديث في أهميَّة الكفاءات، وأبسط ما يمكن أن يقال في هٰذا الأمر ـ كما قال **كيد** ـ Kidd ـ «إنَّه لمن الصَّعب إنتاج أشخاص مدرَّبين تدريباً عالياً. واستيراد الكفاءات أقلُّ من كلفة توسيع الجامعات ــ ولذلك ــ تجعل الهجرة بلوغ الأهداف الوطنيَّة أسهل»[١٢]، ومن أبرز مخاطر ذَلكَ ما ذهب إليه **سان سيمون** بقوله: «إذا أضاعت فرنسا الخمسين الأوائل من علمائها، ومثل ذَلكَ من أهل فنِّها وصناعتها وزراعتها [فإنَّها تكون قد] قطعت رأس الأمَّة، وأصبحت جسداً بلا روح. ولٰكنَّها إذا فقدت جميع موظفيها الرَّسميين فإنَّ تلك الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب نفوسهم، ولٰكنَّهُ لا ينجم في البلد بسبب ذَلكَ من الضَّرر إلا اليسير»[١٣].

---

(١٠) ـ توفيق المديني: **النِّفط العربي واغترابه عن قضايا التحرر والوحدة العربية** ـ ضمن مجلة؛ **الوحدة** ـ المجلس القومي للثقافة العربية ـ المغرب ـ العدد ٤٢ ـ عام ١٩٨٨م ـ ص٥٢.

(١١) ـ لهٰذا الربط مع الجانب الاقتصادي هنا كما أبنا في المقدمة جزء من بحث مطول تناول الجانبين معاً: هجرة الكفاءات والهدر الاقتصادي، نشر بداية تحت عنوان: **العرب هؤلاء المذهلون؛ قراءة في الكفاءات العلمية والماديَّة المستنزفة** ـ مجلة المعرفة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ العدد ٤٤٨ ـ كانون الثاني ٢٠٠١م.

(١٢) ـ أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي** ـ ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ العدد ١٥٩ ـ ٥/ ١٩٩٢م ـ ص١٧.

(١٣) ـ غوستاف لوبون: **سر تطور الأمم** ـ ترجمة أحمد فتحي زغلول ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ـ ص٤١. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٧.

هٰذا من دون أن ننسى أنَّ المبدعين لا ينتجون إنتاجاً، ولا يصنعون صنعاً. ولذلك كانت وسائل استجلاب هؤلاء المبدعين مفتوحة الآفاق تماماً، في بدايتها الإغراءات غير المحدودة، وفي نهايتها النِّهاية الوخيمة الَّتي لا يوجد ما يحول فيها دون القتل الذي يحقِّق أيضاً أغراضاً متعدِّدةً منها حرمان الآخر من الاستفادة من هٰذه الموهبة الخلاقة، وكم امتدت يد الغدر لتغتال أفذاذاً من أمتنا رفضوا الانتماء إلىٰ غير أمَّتهم، أو أصرُّوا علىٰ أن لا يرفدوا إلا أمتهم بثمار عبقرياتهم أمثال **حسن كامل الصباح، ويحيى المشد، وعلي حسن أسعد**... ومؤخراً الطَّائرة المصريَّة التي ضمَّت علىٰ الأقل ثلاثة من نوابغ علم الذرة، والرقم المؤسف من كبار الضباط المصريين وخيرتهم!!! ويبدو، بل من المؤكَّد أنَّ الموساد (المخابرات الصهيونيَّة) تحتفظ بقائمةٍ تتضمَّنُ أسماء العلماء البارزين؛ العرب ومن أصلٍ عربيٍّ، في جميع دول العالم، وهٰذا ما بدا «في عمليَّة اختطاف **عبد القادر حلمي** أحد أهم علماء الصواريخ في العالم»[١٤].

ولٰكن، إذا كان من المسلم به أنَّ العرب يملكون نحو ثلثي الاحتياطي العالمي من النِّفط، وينتجون أكثر من نصف الإنتاج العالمي من النِّفط، فما موقع الكفاءات العربيَّة المهاجرة/ المصدرة من الكفاءات العلميَّة العالميَّة مكانةً وعدداً؟

الحقيقة أنَّنا أمام أكثر من مشكلة في هٰذا الصَّدد، ففي الدَّرجة الأولى تواجهنا مشكلة التكتُّم وعدم التَّجاوب من الدُّول المحتضنة للكفاءات؛ العربيَّة وغير العربيَّة، وهي مشكلةٌ حقيقيَّةٌ؛ حقيقيَّةٌ بوصفها مشكلةً تقود إلىٰ نتائج مربكةٍ وعدم دقَّةٍ في المعطيات... وحقيقيَّةٌ بوصفها مشكلةً واقعيَّةً غير مختلقةٍ،

(١٤) . انظر مجلة: **المجلة**. العدد ٥٣٧ . تاريخ ٢٩ / ٥/ ١٩٩٠م.

ومن ذَلكَ علىٰ سبيل المثال أنَّ اليونسكو قرَّرت إجراءَ مسحٍ للكفاءات المغتربة فأرسلت استمارة استبيان إلىٰ مئة وأربع وعشرين دولةً ولٰكنَّ الذين أجابوا علىٰ أسئلته ثمانٌ وأربعون دولةً فقط، «ومن بَيْنَ هٰذه الدُّول الثَّمان والأربعين وردت إجابات سلبيَّة من خمس عشرة دولة، ـ أي إنَّ خمس العيِّنة فقط هي التي أجابت علىٰ الاستمارة، بزعمِ أنَّ ـ الوحدات الإحصائيَّة بها ليست في وضعٍ يتيحُ لها إمكانيَّة توفير كلِّ البيانات المطلوبة، ولا حَتَّىٰ جلها أيضاً. ويصدق قصور الردود كذَلكَ علىٰ المنظَّمات ذات الصِّلة التي وجِّه إليها الاستبيان»[١٥]. وفي الدَّرجة الثَّانية، وهي مرتبطة بالأولى، ومنبثقة عنها إلىٰ حدٍّ ما، نصدم بتضارب الأرقام وتناقضها في بعض الأحيان، ففي حين يقدِّرُ بعضهم «أنَّه بحلول عام ٢٠٠٠م سيتجاوز عدد الخريجين الجامعيين العرب (٧) ملايين. (٤٠) بالمئة من هؤلاء سيكونون مهندسين، وعلماء، وأطباء، وطاقات بشريَّة أُخْرَىٰ. وبالفعل سيكون لدى الوطن العربي (٧٠) بالمئة مما لدى الولايات المتحدة الأمريكيَّة من المهندسين، إلا أنَّ امتلاك المورد لا يعني أنَّه سيستخدم بكيفيَّة إنتاجيَّة»[١٦]. نجد أنَّه في الوقت ذاته تقريباً تعلن صحيفة القدس العربي أنَّ بعض التَّقديرات «أكَّدت وجود ما يزيد علىٰ عشرة ملايين [مختصٍّ] علميٍّ عربيٍّ هاجروا في العقدين الأخيرين إلىٰ أوروبا وأمريكا. وإذا أضفنا المهاجرين قبل السَّبعينات، كما تشير إحصائيَّة لجامعة الدول العربيَّة، فإنَّ العدد قد يصل

---

(١٥) ـ عثمان أبا يزيد: **دراسة حالة لبعض مشاريع اليونسكو المتعلقة بهجرة الكفاءات العربية** ـ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥م ـ ص١٧٣.

(١٦) ـ أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي** ـ ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ العدد ١٥٩ ـ ٥/ ١٩٩٢م ـ ص١٩.

إلىٰ عشرين مليون عالم عربي، منهم مليونان في الولايات المتحدة، بعضهم علماء في الطَّاقة النَّوويَّة. وبالنِّسبة لمصر فيكفي أن نعرف أنَّ من بَيْنَ (٨٢٤٠٠٠) مصري يعملون في الخارج، فإنَّ هناك (٣١٨٠٠٠) منهم يعملون في الولايات المتحدة الأمريكيَّة. من هٰذا العدد (٨٤٤) عالماً في الطَّاقة النَّوويَّة»[١٧].

جدول رقم (١)

عدد الكفاءات العربيَّة في العالم حسب آخر التقديرات

توزع الهجرة سنوات الهجرة	في جميع أنحاء العالم	في الولايات المتحدة
١٩٧٨م حتى ١٩٩٨م.	١٠ ملايين كفاءة	؟
قبل عام ١٩٧٨م	نحو ١٠ ملايين كفاءة	؟
المجموع	نحو ٢٠ مليون كفاءة	مليونان

وعلىٰ الرَّغم مما يبدو في هٰذه الأرقام من مبالغةٍ فإنَّها في حقيقة الأمر لا تخلو من جانبٍ كبيرٍ من الحقيقة، ففي التَّقرير الَّذي نشرته الجامعيَّة العربيَّة في النِّصف الأوَّل من عام ٢٠٠١م، «قدرت فيه خسائر الدُّول العربيَّة من جراء هجرة علمائها إلىٰ الخارج بما يزيد عن مئتي مليار دولار، مشيرً إلى أنَّ الدُّول الغربيَّة هي المستفيد الأكبر من احتضان أكثر من ٤٥٠ ألف عربي من حملة الشَّهادات العليا والمؤهلات الفائقة القيمة»[١٨]. والَّذي يبدو من هٰذا النَّص أنَّ

(١٧) . صحيفة: **العربي** المصريَّة . العدد ٢٦٩ . تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٨م.

(١٨) ـ ياسين رفاعية: **خسائر العرب العقلية ٢٠٠ مليار دولار** . ضمن جريدة المحرر العربي . لندن . العدد ٢٩٧ . ١حزيران ٢٠٠١م . ص٢٤.

هٰذا المبلغ من الخسائر هو مقدار نفقات إيفاد هٰذه الكفاءات التي لم تعد، والتي بلغ عددها ٤٥٠ ألف كفاءة، وبحسبةٍ يسيرةٍ يمكنُ القول إنَّ هٰذا العدد قد لا يزيد عن عشر الكفاءات العلميَّة المهاجرة بحالٍ من الأحوال، لأنَّ الذين أوفدوا ولم يعودوا أقل بكثير جدًّا من الكفاءات التي هاجرت من تلقاء ذاته، أو التي درست علىٰ حسابها، أو التي تكونت في الغرب، أو التي تنتسب إلىٰ أصلٍ عربيٍّ مباشرٍ أو لجيلٍ ثانٍ أو ثالثٍ.

ولٰكنَّ المشكلة التي تعترضنا هنا مشكلةٌ مزدوجةٌ، فِمِنَ النَّاحية الأولى نحن غير قادرين علىٰ التَّحقُّق من صحَّة هٰذه الإحصاءات علىٰ ضوء ما لدينا من المعطيات، ومن النَّاحية الثَّانية أنَّ الأرقام المتوافرة لدينا معظمها من إحصاءات قديمةٍ غير دقيقةٍ وتفتقر إلىٰ كثيرٍ من المصداقيَّة، وغالبيَّة الإحصاءات التي عثرنا عليها تعتمدُ بشكل أو بآخر علىٰ مصدر واحدٍ تقريباً هو دراسات **أنطوان زحلان**، وكلُّها قديمةٌ، خلاف القلَّةِ التي سنوردها الآن.

نبدأ من حديثٍ قريب العهد «لوزير التَّعليم العالي والبحث العلمي المصري عن دورٍ كبيرٍ مقبلٍ لأكثر من ثلاثين ألف عالم مصري في الخارج»[١٩]. وفي حوار مع الدكتور **فاروق الباز** نشر بعد هٰذا الكلام بسنتين ذكر الدكتور **الباز** أنَّ هناك (١١٠٠) عالم في الولايات المتحدة الأمريكيَّة وكندا[٢٠]. وعلىٰ الرَّغْمِ

(١٩) ـ محمد عارف: **العلماء العرب يطرقون أبواب الناتوتكنولوجي** ـ ضمن جريدة؛ **الحياة** ـ الأربعاء ١٦ رمضان ١٤١٨هـ/ ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨م ـ العدد ١٢٧٣٦.

(٢٠) ـ فريد وجدي: **حوار مع الدكتور فاروق الباز** ـ ضمن جريدة؛ **الاتحاد؛ الملحق الاقتصادي** ـ أبو ظبي ـ الأربعاء ١١ ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م ـ العدد٨٩٩١.

من أنَّ عدد الأطباء السُّوريين وحدهم في ألمانيا وحدها، يربو علىٰ (٢٥) ألف طبيباً سوريًّا حسب تقديرات رابطة المغتربين السوريين في ألمانيا، فإنَّنا نفاجئ بأنَّ عدد الأطباء العرب في الولايات المتحدة الأمريكيَّة نحو عشرة آلاف طبيب فقط[٢١]، وعلىٰ الرَّغْمِ من أنَّ هٰذا العدد من الأطباء العرب في الولايات المتحدة هم فقط من المولودين في الوطن العربي، فإنَّه لا يستقيم منطقيًّا مع عدد الأطباء السُّوريين في ألمانيا. وأيًّا كان الأمر فليس هٰذا إلاَّ أنموذجاً من التَّناقضات الَّتي نجدنا أمامها في هٰذا الموضوع. وهي في الوقت ذاته دليل استهتار وانعدام مبالاة بمن يمتشقون الأقلام ويكتبون ارتجالاً غير مسؤولٍ ولا أخلاقي... يهرفون بما لا يعرفون وينقلون من هنا وهناك من دون محاكمة ولا متابعة وتأكُّدٍ مما ينقلون. ولذلك تأتي الأرقامُ والنَّتائجُ متناقضةً ومبتورةً. وإلىٰ جانبها تقف مواقف الدول التي تحدثنا فيها من تقديم المعطيات.

علىٰ أيِّ حالٍ فإنَّ من أواخر الإحصاءات التي وصلنا إليها بعد إنجاز هٰذا الكتاب هي تقديرات الجامعة العربيَّة في أواخر عام ٢٠٠٧م التي قالت إنَّ ثمانين ألف شهادة علميَّة تهاجر من الوطن العربي سنويًّا منذ بدايات الألفيَّة الجديدة. ويجب أن ننتبه جيِّداً إلىٰ الرقم والاقتران فالرقم ثمانين ألفاً من الكفاءات العلميَّة تهاجر كلَّ عامٍ منذ بدايات الألفية الجديدة. يعني أنَّ هٰذا الرَّقم لا قيمة له واضحة ما لم يربط بغيره من المعطيات الإحصائيَّة في الأعوام السَّابقة.

أمَّا الإحصاءات القديمة نسبيًّا فقد ذكر الدكتور **محمد عبد العليم مرسي** أنَّهُ «هاجر خلال المدَّة من ١٩٦٧/٦/٣٠م حَتَّىٰ

(٢١) . محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل**. ضمن مجلة؛ **المجلة**. لندن. العدد ١٠١٤. ١٨/ ٧/ ١٩٩٩م.

١٩٦٨/٦/٣٠م نحو من ١٥٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطباء العرب. وخلال المدَّة نفسها من العام التَّالي هاجر ٣١٩٨١. أمَّا العام الثالث فكان نصيبه ١٦٤٩٢ مهاجراً، هٰذا إلىٰ أمريكا وحدها»[٢٢].

أي إنَّ نصيب أمريكا وحدها من الكفاءات العربيَّة المهاجرة قد بلغ خلال ثلاثة أعوام ٦٤٤٤٦ كفاءة. كما هو موضح في الجدول التالي، ولا نعرف في هٰذه الفترة كم بلغ مدى هجرة الكفاءات العلمية إلىٰ أوروبا وكندا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، وهي بالتأكيد أرقام أكبر من ذٰلكَ بكثير جدًّا.

جدول رقم (٢)

خلاصة هجرة العلماء والمهندسين العرب

إلى الولايات المتحدة

في فترة ١٩٦٧م. ١٩٦٩م.

المدى الزمني للهجرة	عدد الكفاءات المهاجرة
١٩٦٧/٦/٣٠م حتى ١٩٦٨/٦/٣٠م	١٥٩٧٣ كفاءة
١٩٦٨/٦/٣٠م حتى ١٩٦٩/٦/٣٠م	٣١٩٨١ كفاءة
١٩٦٩/٦/٣٠م حتى ١٩٧٠/٦/٣٠م	١٦٤٩٢ كفاءة
المجموع	٦٤٤٤٦ كفاءة

(٢٢) ـ د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** ـ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة ـ الرياض ـ ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ـ ص٥٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٩.

وفي عام ١٩٧٤م قدَّر الباحث **إبراهيم أبو لغد** ، من خلال مسحٍ أجراه، «أنَّ عدد المهاجرين العرب ذوي الكفاءات العالية إلىٰ الولايات المتحدة والمقيمين فيها، قد بلغ نحو مئة ألف كفاءة»(٢٣).

لن نتحدث هنا عن التقديرات المدهشة لعدد المهاجرين السوريين إلىٰ العالم ومنه إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها مدى ما يقتضبه هٰذا الإحصاء أو التقدير من مراجعات لإحصاءات الكفاءات العربية المهاجرة والمغتربين العرب المهاجرين إلىٰ أرجاء العالم، وهٰذا ما سنورده في الفصل القام الذي سنخصصه لهٰذا المقال علىٰ نحو خاصٍّ. سنكتفي بالمقارنا والمقاربات الشهيرة القليلة التي صدرت في الأعوام الماضية قريبها وغير بعيدها.

هٰذا الرَّقم من الكفاءات العلميَّة العربيَّة الموجودة في الولايات المتحدة، أي المئة ألف، يتناقض مع أكثر من إحصائيَّة للفترة ذاتها تقريباً، علىٰ الأقل، أو في فترة مقارنة، وأوَّل هٰذه التَّناقضات مع الأرقام السَّابقة، ومنها مع ما ذهب إليه **آلان فيشر** من أنَّ مجموع الهجرة العربيَّة كلها إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكيَّة منذ عام ١٩٦٦م وحتَّى عام ١٩٧٧م لا يزيد عن المئة ألف إلا بتسعة آلاف، منهم فقط (١١٥٩٦) كفاءة علميَّة، أي عُشْرُ المهاجرين، ونحو عشر العدد الذي قدَّره **أبو لغد**، وفي الجدول التالي توضيح للهجرة العربيَّة إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكيَّة حسب تقديرات **فيشر**:

---

(٢٣) ـ سميح فرعون: **المهنيون الأمريكيون من أصل عربي وهجرة الكفاءات** ـ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م . ص٢٤٦.

جدول رقم (٣)

خلاصة هجرة العلماء والمهندسين العرب

إلى الولايات المتحدة

في فترة ١٩٦٦م - ١٩٧٧م[٢٤].

مجموع الهجرة العربية	١٠٩٢٥٣
العلماء والمهندسون	٥٧٩٨
ومنهم: المهندسون	٣٩٣٩
علماء الطَّبيعيات	١٥١٣
علماء الاجتماع	٣٤٦
هجرة العلماء والمهندسين من كل الأقطار	١١٥٩٦

ولٰكنَّ هٰذين الرَّقمين يتناقضان أيضاً مع ما جاء به الدكتور **مصطفى أبو لسان** الذي يتناقض هو أيضاً مع ذاته في الدِّراسة ذاتها، بل وفي الصَّفحة ذاتها، ففي تحقيقٍ نشره قبل سنوات قليلةٍ في مجلَّة الوسط ذَكَرَ أنَّ دراسةً أمريكيَّةً صدرت عام ١٩٨٠م، قد «قدرت أنَّ عدد الكفاءات العربيَّة المهاجرة إلىٰ الولايات المتحدة عام ١٩٧٨م بلغ مئة ألف شخصٍ، (٥٠) بالمئة منهم من حملة الدكتوراه»[٢٥]. ولٰكنَّ الدَّلالة غير واضحةٍ هنا،

(٢٤) . ألان فيشر: **الكفاءات العلمية العربية في الولايات المتحدة** . ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م . ص٢١٥.

(٢٥) . د. مصطفى أبو لسان: **الأدمغة العربية؛ هجرة وتهجير** . ضمن مجلة؛ **الوسط** . لندن . العدد ١٨٨ . في ١٤/ ٩/ ١٩٩٥م . ص٣٢.

ولا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت المئة ألف هٰذه قد دخلت الولايات المتحدة عام ١٩٧٨م وحدها، أم أنَّهَا ما بلغه عدد الكفاءات العربيَّة في الولايات المتحدة حَتَّىٰ عام ١٩٧٨م، وإن كان الاحتمال الثَّاني هو الأقرب إلىٰ سياق النَّص وحسب. وإن كنَّا نستطيع الجزم باطمئنان، استناداً إلىٰ المعطيات التي ذكرناها، أنَّ هٰذه المئة ألف كفاءة قد دخلت الولايات المتحدة في عام ١٩٧٨م وحده. ولا سيَّما أنَّ منظمة اليونسكو قد بيَّنت في تقريرها الصَّادر في مطالع الثَّمانينات من القرن العشرين أنَّ «الدُّول المتقدِّمة، الولايات المتحدة وبعض الدول الأوربيَّة، تستقطب يوميًّا (١١٠٠) عالماً من دول العالم الثالث، وبشكلٍ خاصٍّ الدُّول الإسلاميَّة»[٢٦]. أي نحو (٤٠١٥٠٠) عالماً سنويًّا، لا يستبعد أن يكون ربعها علىٰ الأقل من العلماء العرب سنويًّا، أي نحو مئة ألف، وإن كانت التَّقديرات تشير إلىٰ أنَّ نحو النصف كم الكفاءات المهاجرة هو من الدول العربية حَتَّىٰ فترة العمل في هٰذا البحث.

أمَّا تناقض **أبو لسان** مع ذاته فمن خلال الجدول الذي ذكره في الصَّفحة ذاتها من التَّحقيق، الذي يبيِّنُ من خلاله اختصاصات الكفاءات العربيَّة المهاجرة إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكيَّة، والبلدان التي هاجرت منها بدءاً من عام ١٩٦٢م حَتَّىٰ عام ١٩٧٦م، إذ بلغ

(٢٦) . هذا ما ذكره البرفسور زغلول النجار؛ زميل الأكاديميَّة الإسلاميَّة الدوليَّة للعلوم، وهو من أبرز الكفاءات العلميَّة العربيَّة المهاجرة، في لقاء أجري معه على شاشة محطة الجزيرة في برنامج: **بلا حدود**، يوم الأربعاء ٢٠٠٠/١٢/٢٦م.

المجموع الكليُّ لهذه الكفاءات فقط (٢٣٠٩٥) كفاءةً في مختلف الاختصاصات ومن مختلف البلدان العربيَّة، وذلكَ حسب الجدول التَّالي:

جدول رقم (٤)

الكفاءات العربية المهاجرة إلى

الولايات المتحدة في الفترة ١٩٦٢م. ١٩٧٦م[٢٧].

الاختصاصات / البلدان المصدرة	اختصاصيون وفنيون	مهندسون	علماء طبيعة	أطباء	المجموع
مصر	٥٢٠٠	٧٥٠	٣٤٠	٩٧٠	٧٢٦٠
لبنان	٣٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٨٤٠	٥٦٤٠
الأردن وفلسطين	٢١٠٠	٢٦٠	٩٠	٢٦٠	٢٧١٠
سورية	١٤٠٠	٢٠٠	١٠	٥٣٠	٢١٤٠
العراق	١٤٥٠	٢٠٠	٨٠	١٧٠	١٩٠٠
المغرب	٤٠٠	٣٠	١٠	٣٠	٤٧٠
ليبيا	٢٠٠	٣٠	١٠	٨٠	٣٢٠
بلدان أخرى[٢٨]	٢٠٠٠	٢٤٠	٤٥	٣٧٠	٢٦٥٥
المجموع	١٦٤٥٠	٢٣١٠	١٠٨٥	٣٢٥٠	٢٣٠٩٥

(٢٧) . م. س. ذاته.

(٢٨) . معظمها من البلدان العربية النفطية، و٨٠% تقريباً من المهاجرين منها هم أصلاً من بلدان عربية أخرى.

وعلىٰ الرُّغم من أنَّ هٰذا الجدول مأخوذٌ عن دراسة **لأنطوان زحلان** وآخرين[٢٩]، فإنَّ **أنطوان زحلان** ذاته يقدِّم للفترة ذاتها رقماً آخر يربو علىٰ مثلي هٰذا الرَّقم، ولٰكن للكفاءات الموجودة في أوروبا والولايات المتحدة، فوفقاً لحساباتٍ أجراها منذ نحو عشرين سنة «بلغت النسبة المئويَّة لهجرة الأطباء والمهندسين والعلماء العرب إلىٰ أوروبا الغربيَّة والولايات المتَّحدة حَتَّىٰ سنة ١٩٧٦م: ٥٠ و٢٣ و١٥ في المئة علىٰ التَّوالي، من مجموع الكفاءات العربيَّة، وقد كانت الأعداد: (٢٤٠٠٠) طبيباً، و(١٧٠٠٠) مهندساً، و(٧٥٠٠) من المشتغلين [في] العلوم الطَّبيعيَّة»[٣٠]، أي إن مجموع هٰذه الكفاءات، كما سنبين في الجدول التالي، يبلغ (٤٨٥٠٠) كفاءةً. وفي مقابل هٰذا نطالع خبراً، عن لجنة متابعة الشُّؤون الإسرائيليَّة في الجامعة العربيَّة، يقول «إنَّ إسرائيل قامت باستقدام (٩٢) ألف عالم من دول الاتحاد السُّوفيتي السَّابق خلال السَّنوات الثلاث السَّابقة، منهم عشرة آلاف متخصِّص في الأسلحة النوويَّة والأقمار الصِّناعيَّة»[٣١]، أي مثل عدد العقول العربيَّة النَّازفة في بعض التَّقديرات، ومثل ضعفيها في تقديرات أُخْرَىٰ.

---

(٢٩) . د. أنطوان زحلان وآخرون: **السكان والتَّنمية في الشرق الأوسط** . قسم التنمية الاجتماعية والسكان . اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا / بغداد . الأمم المتحدة . ١٩٨٤م . ص٣٣٦.

(٣٠) . أنطوان زحلان: **مشكلة هجرة الكفاءات العربيَّة** . ص٢٣.

(٣١) . جريدة؛ **الاتحاد** . أبو ظبي . الاثنين ١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م . العدد ٨٩٦٨.

جدول رقم (٥)

الكفاءات العربية المهاجرة إلى

الولايات المتحدة وأوربا حتَّى عام ١٩٧٦م

	الأطباء	المهندسون	علماء الطبيعة	المجموع
النسبة من المجموع المحلي	٥٠ %	٢٣ %	١٥ %	.
عدد الكفاءات المهاجرة	٢٤٠٠٠	١٧٠٠٠	٧٥٠٠	٤٨٥٠٠

إنَّ هٰذه الأرقام كما أشرنا بدايةً تفتقر إلىٰ كثيرٍ من الدِّقة والموضوعيَّة، علىٰ الرُّغم من أنَّها تتشح بلبوس البحوث الميدانيَّة والأكاديميَّة، مع شكر أصحابها علىٰ اهتمامهم وتسليطهم الضَّوء علىٰ هٰذا الموضوع الخطير، ولٰكن إذا أخذنا بعين النَّظر أعداد المغتربين العرب في العالم الذين يقدرون بعشرات الملايين لاضطررنا أن نتوقف مليًّا قبل أيِّ حكمٍ.

نحن لا ندَّعي أنَّ عشرات الملايين هٰذه كلها من الكفاءات العلميَّة، ولٰكنَّ يجب ألا نكون مجحفين فنظنُّ أن كفاءاتنا النَّازفة أو المغتربة هي فقط مئة ألف أو حَتَّىٰ مئتي ألف ... فإذا ما نظرنا إلىٰ بعض الإحصاءات عن المغتربين العرب في أوروبا والولايات المتحدة تتراوح ما بَيْنَ عامي ١٩٨٠م و١٩٩٠م، لتبين لنا مدى قصور الأرقام السَّابقة عن الحقيقة، ففي التَّقديرات التي حصل عليها **برهان غليون**، وهي كلها من إحصاءات لم

تتجاوز عام ١٩٩٠م[٣٢]، بلغ عدد الجاليات العربيَّة في أوروبا نحو أربعة ملايين نسمة، منهم ما لا يقلُّ عن الثلث، حسب تقديرات هٰذه الإحصاءات ذاتها، من الكفاءات العلميَّة، وهي موزَّعة على النَّحو التَّالي: في **فرنسا** (٢) مليون، الغالبيَّة فيها من العمَّال العاديين، ونحو الربع من الكفاءات العلميَّة. وفي **إنجلترة**، حسب إحصاء ١٩٨٠م، يوجد (٢٥٠) ألف مغترب، و(٥٠٠) ألف مغترب حسب إحصاء ١٩٨٨م، غالبيتهم العظمى من الكفاءات العلميَّة، وأقل من الخمس من العمال العاديين. ويوجد في **ألمانيا** نحو (٢٥٠) ألف مغترب. وفي **بلجيكا** نحو (٢٠٠) ألف مغترب. وفي **هولندا** نحو (١٥٠) ألف مغترب. ومثل هٰذا العدد تقريباً في كلٍّ من **إيطاليا وإسبانيا واليونان** وبلدان **أوروبا الشماليَّة**. أمَّا الولايات المتحدة الأمريكيَّة فيبلغ «تعداد الجالية العربيَّة فيها . حسب إحصاء ١٩٩٠م. زهاء ثلاثة ملايين نسمة»[٣٣].

علىٰ أنَّ ما تجدر ملاحظته علىٰ هٰذه الأرقام، التي سنظهرها في الجدول التَّالي، هو أنَّها أوَّلاً خاليةٌ من الدَّقَّة أيضاً فعدد المغتربين اللبنانيين وحدهم حسبما «تقول المصادر الرسميَّة يزيد عن (١٤) مليون مغترب

(٣٢) ـ برهان غليون: **مستقبل الجاليات العربية في أوربا** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ٢٠٩ . ٧/ ١٩٩٦م . ص٥٨ . ٦٠.

(٣٣) . إياد القزاز: **اللوبي العربي في الولايات المتحدة؛ الهوية السياسية والمشاركة في العمل السياسي** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** ـ مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ٢٠٩ . ٧/ ١٩٩٦م . ص٨٠.

موزعين في أنحاء العالم»[٣٤]، وفي تقدير آخر فإنَّ «عدد اللبنانيين المهاجرين ما بَيْنَ عامي ١٩٧٥م و١٩٩٨م، قد قارب المليونين»[٣٥]. وعدد الجزائريين وحدهم في فرنسا وحدها، كما أشارت بعض الإحصاءات، يتجاوز المليونين[٣٦]، فكيف يكون عدد العرب كلُّهم في أوروبا مليونين فقط؟؟ وبغضِّ النَّظر عن ذَلكَ الآن، فإنَّ عدد الكفاءات العربيَّة وَفْقَ معطيات هٰذه التَّقديرات يقارب المليونين في بلدان التَّقديرات فقط.

جدول رقم (٦)

أعداد المغتربين العرب في بعض دول العالم

حسب إحصائيات تتروح ما بين ١٩٨٠م ١٩٩٠م

مكان الاغتراب	عدد المغتربين	
إسبانيا	١٠٠ ألف	مغترب
ألمانيا	٢٥٠ ألف	مغترب
إنجلترة	٥٠٠ ألف	مغترب

(٣٤) ـ يبدو هذا الرقم غريباً ومبالغاً فيه إلى حد كبير، ولا سيما أنَّ عدد سكان لبنان لا يزيد عن الأربعة ملايين، ولكنه لا يعني ابتعاده عن الحقيقة، وقد أدركت صاحبة التحقيق ذلك فجعلت العنوان الرديف لتحقيقها: (عدد المقيمين يقل عن الأربعة ملايين نسمة فيما يزيد عدد المغتربين على ١٤ مليون). انظر: سناء الصباح: **الطفر يحول لبنان إلى حقيبة سفر** . ضمن جريدة؛ **الأنوار** . بيروت . العدد ١٣٩١٩ . يوم الأحد ٦ شباط ٢٠٠٠م.

(٣٥) . انظر مجلة: **حياتنا والشباب** . العدد ٥٣ . شباط ٢٠٠٠م.

(٣٦) ـ وقد أعلن هذا الرقم أيضاً الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في زيارته الأخيرة إلى فرنسا، في شباط ٢٠٠٠م.

إيطاليا	١٠٠ ألف	مغترب
بلجيكا	٢٠٠ ألف	مغترب
فرنسا	٢ مليون	مغترب
هولندا	١٠٠ ألف	مغترب
الولايات المتحدة الأمريكية	٣ مليون	مغترب
البرازيل	١٦ مليون	مغترب
اليونان	١٠٠ ألف	مغترب
دول أوربا الشمالية	١٠٠ ألف	مغترب
المجموع	٢٢٤٥٠٠٠٠	مغترب

أن يكون عدد المهاجرين أو المغتربين العرب نحو ثلاثة وعشرين مليوناً لا يعني إمكان قياس ذَلكَ إلىٰ عدد سكان دولة ما وما قد يكون فيها من كفاءات علميَّة إذا كان عدد سكانها عشرين مليوناً. المقايسة غير جائزة أساساً، لأنَّ الأصل في الدُّول الاستقرار والتَّنوُّع والتَّعدُّد، أما الأصل في الهجرة فهو في الأغلب الأعم هجرة الكفاءات والخبرات. في الهجرات والاغتراب فإنَّ أكثر المهاجرين والمغتربين هم الكفاءات العلمية في مختلف الاختصاصات لأنهم هم الأكثر معاناة وهم الأكثر بحثاً عم فرص الإبداع، وهم الأكثر تعرضاً للتهجير، وهم الأكثر تعرضاً للتهميش في أوطانهم والأكثر بطالة. ولذلك فإنَّ أعداد الكفاءات العلمية المهاجرة من بَيْنَ هٰذا العدد الكبير المذهل ستكون مذهلةً أيضاً ومن المتوقع منطقيًّا أن يكون نحو ثلثهم علىٰ الأقل من الكفاءات العلميَّة.

وعلىٰ أي حالٍ فإنَّ الذي يجب ألا يغيب عن الأذهان هنا هو أنَّ نزيف العقول أو هجرة الأدمغة أو الكفاءات... إنَّما هو النتيجة المنطقية للواقع العربي الرَّاهن بمختلف ظروفه ومعطياته. وبغضِّ النَّظر عن الأسباب المباشرة لهذه الهجرة أو النَّزيف فإنَّنا في حقيقة الأمر أمام ظاهرةٍ تاريخيَّةٍ لا عرضيَّة، هي ما سميناه بالاستشراق من تحت، والاستغراب من تحت[٣٧]، بوصفهما السلوكين المقابلين للاستشراق والاستغراب.

(٣٧) . انظر تفصيل هذين الاصطلاحين وأبعادهما في بحثنا: **العولمة والغزو الثقافي** . ضمن مجلة؛ **الفكر العربي** . معهد الإنماء العربي للعلوم الإنسانية . بيروت . العدد ٩٦. ربيع ١٩٩٩م . ص١٦٨ .١٧٣.

الفصل الثاني

المغتربون السوريون ٧٣ مليونا
ثلاثة أخماسهم شهادات عليا

استكمالاً للفصل السَّابق واستدراكاً ننشر هٰذا المقال الخطير الَّذي ينسف كلَّ الإحصاءات السَّابقة ويقلب الموازين رأساً علىٰ عقب. هٰذا المقال نشرته الكثير جدًّا من مواقع التَّواصل الاجتماعي منذ عام ٢٠١٢م، ولٰكنَّهُ نشر لأول مرَّةٍ قبل الثَّورة السُّوريَّة بنصف سنة تقريباً في موقع «بلدنا» بقلم وعد زينية، وعنه نقله ونشره موقع «الجمل بما حمل»، بتاريخ ١١/ ١٠ /٢٠١٠م وانتشر بعد ذٰلكَ في مختلف مواقع التَّواصل الاجتماعي.

قبل أن نترككم مع المقال ومعطياته المدهشة لا بُدَّ من وضعكم في صورة المقال والملاحظات المسجَّلة عليه. الملاحظات المسجَّلة عليه ليست نقداً ولا دحضاً ولا نقضاً وإنَّما توضيحاً لمساحة المقال والنِّقاش وميدانها لتكون الأمور في نصابها.

أولاً: المقال يتحدث عن السُّوريين وحدهم. والسُّوريون هنا هم أبناء سوريا الصُّغرىٰ لا الكبرىٰ كما يبدو من سياق المناقشة والعرض والإحصاءات. فكيف لو أضفنا إليها الإحصاءات اللبنانيَّة والفلسطينيَّة والمصريَّة والمغاربيَّة وكلٌّ منها بالملايين؟

ثانياً: إحصاءات المقال فيما يبدو لا تشمل أماكن وجود السُّوريين كلها والكبرىٰ منها مثل الدُّول الإقريقيَّة كلها، ولا الدُّول الأوروبيَّة كلها ما عدا استثناءات قليلة.

ثالثاً: المقال يحشر المهاجرين السُّوريين إلَىٰ ثلاث دول عربيَّة في البحث وهٰذا يتخالف مع وجهة نظري الشَّخصيَّة في الحديث عن الكفاءات العربيَّة المهاجرة لأني أعدُّ هجرة الكفاءات العربيَّة ضمن الدُّول العربيَّة وحَتَّىٰ الإسلاميَّة هجرة داخلية. وعلىٰ أيِّ حالٍ فإنَّ عددهم بالمجمل وفق المقال يقترب من مليون ونصف أو ثلاثة ملايين في الحدِّ الأقصى، وهو عدد مهمل إحصائيًّا بالقياس إلَىٰ ٧٣ مليون في مختلف دول العالم.

مقال موقع بلدنا

تكرّر **أمُّ عليٍّ**، علىٰ مسامع ابنها الأصغر والمدلل، مقولة لطالما آمنت بها، مستنكرة فيها فكرة السَّفر، حتىٰ ولو كان بقصد السياحة، قبل أن تكون هجرة أو غربة. هي دائماً تقول: إنَّ ترك البلد دليل فشل... قانعة إياه بأنَّ الَّذي يفشل في بلده يفشل في أيّ بلاد أُخْرَىٰ.

التَّاريخ يعيد نفسه في كلِّ هجرةٍ كان للأزمات الاقتصاديَّة، الَّتي تعرّضت لها بلاد الشَّام زمن الحكم العثمانيِّ، دورٌ مهمٌّ لبداية الهجرة السُّوريَّة رسميًّا، لاسيَّما إلَىٰ دول أمريكا الجنوبيَّة والدُّول العربيَّة في العام ١٨٢٠م، تلتها هجرات العام ١٩٠٠م إلَىٰ أمريكا الجنوبيَّة وأوروبا، مع استمرار الأزمة الاقتصاديَّة وبداية شرارة الحروب، لحقها، بعد الحرب العالميَّة الأولى، هجرات إلَىٰ ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكيَّة وهجرة إلَىٰ فرنسا من أجل الدراسة في أثناء الانتداب الفرنسي؛ حيث استقرَّ قسم منهم هناك، ثمَّ تكرَّرت الهجرات إلَىٰ أمريكا الجنوبيَّة وأوروبا بعد الحرب العالميَّة الثَّانية، بالإضافة إلَىٰ هجرة أخرىٰ إلَىٰ دول الخليج بعد ظهور

النفط ونمو المعيشة فيها. واتَّجه بعض السُّوريين، بعد العام ١٩٧٠م، إلَىٰ أستراليا والصين وإندونيسيا. ومع الوقت الحالي، لم يتغيَّر الوضع كثيراً؛ حيث إنَّ الاستثمار المحلي مازال يخطو خطواته الأولى؛ ما جعل عدد السُّوريين (والَّذين لهم أصول سورية) المقيمين في الدُّول العربيَّة (عدا لبنان) يصل إلَىٰ ما يقارب ٢ مليون و ٧٥٠ ألف سوري.

أمَّا عدد السُّوريين (ومن لهم أصول سورية) المقيمين في الدُّول الأوروبيَّة فهو ٥ ملايين سوري. أمَّا في كندا والولايات المتحدة الأمريكيَّة، فينقسم السُّوريون إلَىٰ من تجنّسوا بالجنسيَّات الأمريكيَّة وانصهروا في المجتمع الأمريكي وفقدوا الهويَّة السُّوريَّة. ويقدَّر عددهم بـ٨ ملايين. وهناك قسم تمسَّك بجنسيته وأصوله، ويقدَّر عدده بـ٤ ملايين سوري. وفي أمريكا الجنوبية، الحديث يطول ويطول؛ حيث يُقدَّر عدد السُّوريين الفاقدين لهويتهم وجنسيتهم والَّذين ذابوا في المجتمع الأمريكي وتجنّسوا بجنسيته وما زالوا محتفظين بولائهم لسورية نحو ١٩ مليون سوري، بَيْنَما يبلغ عدد الَّذين ما زالوا محتفظين بأصولهم السُّوريَّة وجنسيتهم ١١ مليون سوري. والسَّبب، في هٰذا الاختلاف، يرجع إلَىٰ الهجرات القديمة منذ العام ١٨٢٠م.

عندما يصبح الإحصاء مخيفاً والجواب مستحيلاً لم يكن الأمر بهٰذه السهولة. فوزارة المغتربين، ومنذ شهر تقريباً، أرسلت بعض الأسئلة للاستفسار حول بعض الأمور، والتَّعرف إلَىٰ آليَّة عمل الوزارة مع المغتربين وماذا تقدَّم لهم. وطلب إليها، مراراً وتكراراً، الإجابة عن استفسارات وأسئلة حول النشاطات والفعاليات الَّتي تقوم بها الوزارة لجذب المغتربين وإعادتهم إلَىٰ بلدهم الأم، أو للتواصل معهم علىٰ أقلِّ

تقدير في بلاد الاغتراب، بالإضافة إلَىٰ سؤال ثانٍ بخصوص دورها في جذب الاستثمارات إلَىٰ سوريا ومشاريع التَّنمية، وكيفيَّة استثمار سوريا للمغتربين بما يدعم قضايا سوريَّة في الخارج. لٰكن، ومن أسف، حَتَّىٰ تاريخ كتابة هٰذا التَّحقيق لم تدلِ وزارة المغتربين بأيِّ معلومةٍ تذكر؛ ما أعطانا الحق بسؤال آخر: هل عدم الجواب هو الجواب؟!

وبخصوص عدد سكَّان سوريا (المقيمين علىٰ أرض سوريا في لحظة كتابة هٰذا التَّحقيق) أشار الدكتور **شفيق عربش** (مدير المكتب المركزي للإحصاء) إلَىٰ أنَّهُ وصل إلَىٰ ٢٠ مليوناً و٧٥٧ ألفاً و٩٣٤ نسمة. وهو الرقم الَّذي يتبدَّل علىٰ نحوٍ ساعي، مؤكِّداً أنَّهُ في ازديادٍ واضحٍ، كما يرتفع هٰذا الرَّقم إلَىٰ أكثر من ٢٣ مليون نسمة وفقاً للمسجلين في السجِّل المدني السُّوري .

ثمانمون مليار دولار الأموال السُّورية في الخارج

يرىٰ **زياد عربش** (دكتور في الاقتصاد) أنَّ «الخسارة ليست بهجرة رؤوس الأموال بقدر ما هي خسارةٌ إنسانيَّةٌ، تتمثل في هجرة العقول والكفاءات.

فالهجرة، وإن كانت لعاملٍ صغيرٍ، تعني نزيف ملايين الليرات السُّورية؛ ذٰلكَ لأنَّ المهندس أو الطبيب، حَتَّىٰ يصل إلَىٰ مقاعد الجامعة وينهي دراسته الأوليَّة ويحصل علىٰ دبلومٍ جامعيٍّ عالٍ في سوريا، تكون الدَّولة والأسرة قد أنفقت عليه طوال هٰذه السنوات، ليذهب إلَىٰ أمريكا الشَّماليَّة وأوروبا الغربيَّة والخليج وأستراليا. ولا يستفيد البلد الأم من هٰذه الخبرات، وهو في أمسِّ الحاجة إليها.

ففي ألمانيا والنمسا وحدها ٨ آلاف طبيب سوري. وفكرة معظم الناس أنَّ تحويلات المغتربين هي دعم أساسي للاقتصاد الوطني، هي، علىٰ حدٍّ وصف الدكتور **عربش**، خاطئة. فبمجرد نظرة شموليَّة طويلة المدى، تكتشف أفضليَّة أن يعجَّ البلد بالكفاءات علىٰ أن يكون طالباً لها؛ لأنَّ هٰذه الهجرة تعني الدخول في حلقةٍ مفرغةٍ، يتحوَّل البلد فيها إلَىٰ بلد طارد للكفاءات وأصحاب المبادرات، ويتحوَّل البلد الآخر إلَىٰ بلد ليس مؤهلاً لاستيعاب طاقته وكفاءاته داخل أراضيه فحسب، وإنما مستقطباً للكفاءات المهاجرة إليه ولرؤوس الأموال أيضاً.

وبَيْنَما يتمُّ تجاهل النَّظر إلَىٰ النَّواحي العلميَّة والاجتماعيَّة، يقتصر الاهتمام، بحسب **عربش**، علىٰ الناحية الماليَّة للمغتربين؛ وذٰلكَ لعدَّة أسباب تتعلَّق بتدوال الصحافة أرقاماً عن أموال السُّوريين في الخارج تصل إلَىٰ ٨٠ مليار دولار أو أكثر.

ومع ذٰلكَ، فبعض المغتربين من أصلٍ سوريٍّ (ممن التصقوا في البلد الثَّاني) قد لا يعودون باستثماراتهم إلَىٰ البلد الأم. وبعضهم الآخر، قد تكون استثماراته في سوريا في مرحلة زمنيَّة ليست بعيدة المدى.

وتبقىٰ النُّقطة الأساسيَّة، علىٰ حدِّ تعبير **عربش**، غير متعلِّقةٍ برأس المال؛ كونه العامل الأساسي في التَّنمية. ولو كان هٰذا صحيحاً، لكانت السعوديَّة وليبيا (لغناها النفطي علىٰ سبيل المثال) تتقدَّم علىٰ السُّويد والدنمارك وغيرها من الدُّول المتقدِّمة... إلا أنَّ الواقع يشير إلَىٰ أنَّ السعوديَّة وليبيا لم تحقِّقا التَّنمية المستدامة، بل ترتفع معدلات البطالة فيها أيضاً.

وفي الوطن العربي، أشار **عربش** إلَىٰ أنَّهُ، وبالمقارنة مع باقي الدُّول العربيَّة، تشهد تونس والأردن انخفاضاً في نسبة المغتربين وهجرة

الكفاءات قياساً إلىٰ سوريا. وهنا تبرز ضرورة العمل علىٰ إعادة إحياء العمل الفكري والفيزيائي وإعطاء القيمة للعمل علىٰ حساب الريع والمصادر الريعيَّة.

في البرازيل سورية أخرى

أكبر جاليةٍ سوريَّة في العالم تقيم في البرازيل، وعدد أفرادها ١٣ مليوناً، منهم ٧ ملايين من السُّوريين الَّذين تعود أصولهم إلَىٰ مدينة حمص واللاذقيَّة، تليها الجالية في الولايات المتحدة ثمَّ الأرجنتين. أمَّا السَّبب المباشر لوجود ما يقارب ٥ ملايين سوري في إسبانيا، فهو أنَّ معظم الإسبان توالدوا من العرب الَّذين كانوا يحكمون الأندلس. ويقدَّر عددهم بنصف عدد سكان إسبانيا. ويشكل السُّوريون خمس المنصهرين العرب، بسبب انحدارهم من أصول أمويَّة هجينة. وفي حال جمع هٰذا الرقم مع السُّوريين في بقيَّة دول العالم، نصل إلَىٰ ٧٣ مليون شخص، منهم ٣٥ مليوناً فقدوا هويتهم السُّورية، و٣٨ مليوناً يحملون الجنسيَّة السُّورية، ٢٠ مليوناً منهم يعيشون علىٰ أرض سورية، ويتوزع الباقي علىٰ بلدان العالم.

مناصب وتجار.. سمعة نظيفة

تمكَّن الكثير من المنصهرين في دول أمريكا الجنوبيَّة من السُّوريين من الوصول إلَىٰ أرفع المناصب وأعلاها، حَتَّىٰ إنَّ الرئيس الأرجنتيني السَّابق **كارلوس منعم** ترجع أصوله إلَىٰ سوريا (جده وأبوه وأمه سوريون)، ووزير الدَّاخليَّة الفنزويلي الحالي طارق العيسمي تعود أصوله إلَىٰ محافظة السويداء، بالإضافة إلَىٰ محافظ مدينة «بويرتو لكروس» الفنزويليَّة وليم صعب ذي الأصول السُّوريَّة أيضاً. أمَّا

السُّوريون المقيمون في أمريكا الجنوبية، فهم من فئة التجار وأصحاب المهن الرفيعة. وجميع تقارير المنظمات الدوليَّة والحكومات العالميَّة تشير إلَىٰ حسن سيرة وسلوك المواطن السُّوري بشكل عام. وتتمتّع الجاليات السُّوريَّة في البلاد العربيَّة والأوروبيَّة والأمريكيَّة بالسمعة الحسنة والسلوكات القويمة المحترمة... فما الَّذي يحصل في بلادهم إذن؟!.. لا أحد يدري.. رُبَّما العدوىٰ من السكان المقيمين، الَّذين تقدر زيادتهم السنوية، بحسب آخر إحصاءات للهيئة السُّوريَّة لشؤون الأسرة، بنصف مليون نسمة.

هل يعودون إلَى سورية؟

يقول **زياد جمال الدين** (مغترب سابق): «لو درت كلُّ البلاد وقُدِّم لي كلُّ شيء أتمنَّاه، لما ساوىٰ جزءاً صغيراً من شعوري عندما أشم هواء سوريا، وبمجرَّد أن تطأ قدمي أرضها. فسوريا (بلدي) أتذكرها تماماً بكلِّ زواياها وبتفاصيل حياة ساكنيها حَتَّىٰ الصغيرة منها... هي لا تقتصر علىٰ إدمان قهوة الصَّباح علىٰ الشُّرفة أو أرض الديار، ولا علىٰ تلك الرَّغبة الَّتي تعتريك لتناول كأس شاي مع الجبنة البيضاء البلديَّة، ولا علىٰ النميمة ولعب الطاولة في قهوة رجاليَّة والقهقهة في صبحية.. هي أحلام طفلٍ يكره المدرسة ويريد أن يصبح طبيباً... هي همومٌ صغيرةٌ تكبر وأحلامٌ كبيرةٌ تتضاءل... هي، باختصار، الحبيب الَّذي هجرناه ولم نستطع أن نعشق سواه، فعدنا إليه؛ لأنِّي ومعظم المغتربين في بلادٍ غريبة نفتقد الحياة الاجتماعيَّة المتماسكة الَّتي رضعناها مع حليب أمهاتنا في بلادنا».

إحصائيَّة تضمُّ جميع الأفراد ذوي الأصول السُّوريَّة (آباء أو أجداد منصهرون)، وكذلكَ من يحملون الجنسيَّة السُّورية[٣٨]:

الدَّولة	عدد السكان	عدد السُّوريين	النِّسبة للسكان
إيطاليا	0.14 %	100.000	70.000.000
بريطانيا	0.71 %	650.000	70.000.000
الولايات المتحدة	2.28 %	8.000.000	350.000.000
كندا	10.52 %	4.000.000	38.000.000
المكسيك	0.5 %	600.000	120.000.000
كولومبيا	3.33 %	1.500.000	45.000.000
فنزويلا	5 %	1.500.000	30.000.000
البرازيل	6.5 %	13.000.000	200.000.000
الأرجنتين	13.3 %	6.000.000	45.000.000
استراليا	0.4 %	100.000	25.000.000
الكويت	16.67 %	500.000	3.000.000
السعودية	2.59 %	700.000	27.000.000
الإمارات	3.75 %	150.000	4.000.000
لبنان	13.3 %	800.000	6.000.000

(٣٨) . من الملاحظ علىٰ هٰذا الإحصاء أنَّهُ لا ينظر إلىٰ السُّوريين المهاجرين إلىٰ القارة الإفريقية وأعدادهم ليست قليلة أبداً بحال من الأحوال، وكذلكَ لا يتحدث عن السُّوريين الموجودين دول القارة الأوروبية باستثناء بريطانيا وإيطاليا.

ثلاثة أخماسهم من حملة الشهادات العليا وألادمغة

يعمل الطَّبيب **سمير عيسى** في السعودية، ويدير مستشفيات زراعة الكبد هناك علىٰ حين تنتظر سوريا أن تملك مستشفاها الوحيد المتخصِّص بزراعة الكبد قريباً.

ليس «**عيسى**» الطَّبيب الوحيد العامل في الخارج علىٰ رغم أنَّهُ عضو هيئة تدريسيَّة في جامعة حلب ولٰكنَّهُ واحدٌ من مئاتٍ بل آلاف المتعلِّمين والباحثين السُّوريين في الخارج منهم من قد يعود كما حال «**عيسى**» والعاملين في الخليج العربي ولٰكن هناك من استقرَّ في بلده الجديد وخاصَّة في أوروبا وكندا وأمريكا ويعملون هناك مع عائلاتهم.

فقد قدَّرت دراسة الخبير والباحث الاجتماعي السُّوري **محمد جمال باروت** نسبة المهاجرين السُّوريين ممن هم في المستوىٰ التَّعليمي الثالث (الجامعي وما فوق) إلَىٰ دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD في عام ٢٠٠٠م بأنَّهَا تشكِّل (٣٥,١%) من إجمالي عدد المهاجرين السُّوريين حَتَّىٰ ذٰلكَ العام، وبيَّنت دراساتٌ منظَّمة الهجرة والتَّنمية في الأمم المتحدة أنَّ نسبة السُّوريين أولئك تشكل ٠,٩% من مجمل المهاجرين الأجانب في بلدان منظمة التعاون والمقدرة نسبتهم بـ(١١,٨%).

٣٤ ألف طبيب سوري في أميركا وألمانيا

لٰكنَّهَا تشير إلَىٰ أن نسبة ٣,٧% من هؤلاء المهاجرين، توازي أقرانهم في سوريا، مقتربين في ذٰلكَ من نسبة مهاجري المستوىٰ التَّعليمي الثالث في مصر إلَىٰ أقرانهم والمقدرة بـ(٣,٦%)، علىٰ حين قدرت نسبة من يحملون الشهادة

الثَّانويَّة وما فوق التَّعليم الثَّانوي بـ(٣١,١٢%) من ذلك الإجمالي، ونسبة من هم دون التَّعليم الثَّانوي بـ(٣٣,٨%) من المهاجرين ويعني ذَلكَ علىٰ مستوىٰ الاتجاه العام أن نسبة هجرة الكفاءات، ومن هم في طور الكفاءات وفق مؤشر مستوىٰ التَّعليم تشكل أكثر من ثلاثة أخماس المهاجرين السُّوريين إلَىٰ دول OECD، بما يتَّسق مع اتجاه جذب دول تلك المنظمة والدُّول الغربيَّة عموماً للكفاءات في العالم.

بَيْنَما قدرت دراسة للبنك الدولي أنَّ عدد المهاجرين السُّوريين الَّذين تلقوا تعليماً ثلاثياً (جامعيًّا)، أي كل مراحل تعليمهم في سوريا يمثلون سنويًّا (٥,٢%) من إجمالي عدد المهاجرين السُّوريين حَتَّىٰ عام ٢٠٠٥م المقدر وفق تلك الدراسة بـ(٤٨٠,٧٠٨) مهاجرين أو (٢,٥%) من إجمالي عدد السكان، وأن نسبة الأطباء السُّوريين المهاجرين الَّذين أتموا تعليمهم الطبي في سوريا تقدر سنوياً بـ(٩,٥%)من عدد الأطباء الخريجين.

الواقع يشير إلَىٰ أن نسبة الأطباء المهاجرين الَّذين تلقوا تكوينهم في سوريا قد تفوق هٰذا التَّقدير الَّذي لا يشمل في الواقع سوىٰ الأطباء السُّوريين المهاجرين إلَىٰ بعض بلدان منظمة التعاون والتنمية، ولا يشمل الأطباء السُّوريين المهاجرين إلَىٰ دول مجلس التعاون ولاسيما إلَىٰ المملكة العربيَّة السعوديَّة.

إذا كان ارتفاع نزيف مخزون سوريا من الأطباء هو الوجه الآخر لزيادة معدل تخريج كليات الطب لهم بعد تخريج كليَّة الطِّبِّ في جامعة حلب عام ١٩٧٤م وكليَّة الطِّبِّ في جامعة تشرين للدفعة الأولى، ما يدفع إلَىٰ القول بشكلٍ معقولٍ حسب تعبير **باروت** «نسبة الأطباء المكونين في النِّظام التَّعليمي السُّوري الَّذين يهاجرون من سوريا هي أضعاف النِّسبة المحدَّدة في التقرير المتوسطي

للهجرة»، وكمثال مقطعي تبين مصادر الجمعيَّة الطبيَّة العربيَّة الأميركيَّة أن عدد الأطباء السُّوريين في الولايات المتحدة الأميركيَّة يفوق ٦ آلاف طبيب من أصل نحو ١٥ ألف طبيبٍ عربيٍّ ويحتلُّ الأطباء السُّوريون والمصريون المرتبة الأولىٰ في عدد الأطباء العرب علىٰ حين يقدر عدد الأطباء السُّوريين المقيمين في ألمانيا ١٨ ألف طبيب من أصل عدد الجالية السُّوريَّة والمقدر بـ٩٥ ألفاً .

هجرة الأدمغة سلبية على سورية

مثل هٰذه الهجرات تكون إيجابيَّة حين يتمكَّن بلد الإرسال من إعادة استقطاب عقوله وكفاءاته المهاجرة مباشرة أو بشكل غير مباشر، والمؤهلة لعمليَّة نقل المعرفة في مرحلة دخول الاقتصاد العالمي عصر اقتصاد المعرفة، وتشابك الأسواق وانفتاحها وتنافسيتها.

بَيْنَما تكون الهجرة سلبيَّة عندما تكون سياسيات الاستقطاب تلك غير ناجحة مع اتباع الدُّول لسياسات تحرير اقتصاديَّة عامة وتحرير التجارة بشكل خاص، والَّتي تفترض مواجهة تحديات السوق المتشابكة الَّتي باتت أكثر تعولماً من أيِّ وقتٍ مضى، وفي ضوء ما سبق يمكن أن «نقيم أن الأثر الصافي لهجرة الأدمغة والكفاءات السُّوريَّة سلباً» بحسب تعبير **باروت**، الَّذي تابع «يمكن القول بصفة عامة إن الأثر السَّلبي لهجرة الأدمغة والكفاءات علىٰ مخزون أي بلد من رأس المال المعرفي والبشري يكون واضحاً وكبيراً حين تكون نسبة خريجي التَّعليم التِّقني والعالي ولاسيَّما في اختصاصات العلوم الدَّقيقة متدنيَّةً أو متوسطةً».

بَيْنَما يكون أقل سلبيَّة حين تكون نسبته مرتفعة كما في الهند والصين مثلاً وهٰذا ما ينطبق إلَىٰ حد كبير علىٰ حالة سوريا، ففي المنظور المقارن لهجرة

الأدمغة والكفاءات السُّوريَّة مع نظيرها في دول المنطقة تبدو هٰذه النِّسبة متدنية حين تحتل سوريا المرتبة السابعة (٣,٧%) في هجرة الكفاءات الَّتي أتمت التَّعليم الثالث (الجامعي) بَيْنَ ثماني دول عربيَّة وهي قريبة من مصر الَّتي تحتل المرتبة الثامنة (٣,٦%) بالقياس إلَىٰ المغرب (١٩,٥%) والجزائر (١٥%) وتونس (14%) والعراق (٧,٦%)، والسودان (٤,٤%) ولٰكنَّهَا تبدو مرتفعة في إطار المنظور النِّسبي مع الأخذ بالحسبان أن هٰذه النِّسبة تشمل الكفاءات المهاجرة إلَىٰ بعض منظَّمات التَّعاون والتَّنمية فقط في عام ٢٠٠٠ ولا تضم المهاجرين إلَىٰ دول مجلس التَّعاون الخليجي الَّتي تتسم بتركُّز قدرٌ كبير من الكفاءات السُّوريَّة في أسواقها، إلا أنَّها تبدو مرتفعة في التقييم النِّسبي في ضوء ندرة الأدمغة (رأس مال معرفي) والكفاءات (رأس مال بشري) السُّورية، ودخول سوريا من نحو عقد تقريباً في ما يمكن تسميته مرحلة التَّصحُّر العلمي من جهة وارتفاع وتيرة تراجع عدد الخريجين السُّوريين في تخصُّصات العلوم الدَّقيقة والتَّخصُّصات التقنيَّة العليا والوسيطة أو المساعدة الَّتي تعتبر –الوسيطة– علىٰ رغم كثرة معاهدها في سوريا ومن أكثرها فاقداً في سوريا بمعدلات تتراوح بَيْنَ ٨٢% في معاهد وزارة التَّعليم العالي وبَيْنَ ٦٩% للوزارات الأُخْرَىٰ علىٰ حِيْنِ يشكِّل طلاب المعاهد المتوسِّطة ما لا يقلُّ عن ٢٢,٨% من طلبة التَّعليم ما بعد الثَّانوي...

الفصل الثالث

بين الكم والكيف

قبل الكلام في مشكلة الكفاءات العربيَّة المهاجرة أو النازفة بَيْنَ الكيف والكم لا بُدَّ تكرار من التوضيح الَّذي افتتحنا به الفصل الأول وهو أنَّ هٰذا الفصل وهٰذا الكتاب تمَّ الفراغ منه في نسخته الأوليَّة في أواخر عام ٢٠٠٠م، وقد تمَّ تحديثه ببعض التَّقديرات في فترة إعداد الكتاب للنَّشر عام ٢٠٠٧م. ولٰكنَّ الكتاب أيضاً لم يصدر في تلك الفترة، وفي هٰذه الفترة الَّتي تلت الربيع العربي فترة إخراج الكتاب للنشر تمت إضافة بعض المعلومات والتفاصيل.

بعدما وقفنا علىٰ الإحصاءات التَّقديريَّة للكفاءات العربيَّة المهاجرة صار من الواجب الآن أن نقف عند مشكلة أُخْرَى في هٰذه الكفاءات المهاجرة وهي دلالة هٰذه الإحصاءات وأبعادها...

حَتَّىٰ نفهم حقيقة وضع الكفاءات العربيَّة المهاجرة والمستنزفة من العالم العربي لصالح الغرب تحديداً من ناحيتي الكيف والكم ومن ناحيتهما معاً يجب أن نلقي الضَّوء علىٰ بعض النقاط والأمور التوضيحيَّة لهٰذه المشكلة، يجب أن نأخذ في حسباننا هٰذه المجموعة من النقاط أو الاعتبارات لأنه من دونها لا يمكن أن نفهم الموضوع فهماً كافياً ولا لائقاً.

أولاً: نسبية مفهوم الكفاءة

بعيداً عن الخصوصيَّة والعموميَّة فإنَّ مفهوم الكفاءة أو اصطلاح الكفاءة ينطوي علىٰ شيء من النسبيَّة في التحديد والضبط. والكفاءة العلميَّة المحصورة بمضافها أيضاً لا تبتعد عن أرجوحة النسبيَّة بَيْنَ المد والحصر. يعني ذٰلكَ أننا لسنا بحاجة إلىٰ كثير من الجهد لإدراك مشكلة تحديد مفهوم الكفاءات العلميَّة المهاجرة وحصر الكفاءات.

أول نتائج نسبيَّة مفهوم الكفاءة هي التضارب بَيْنَ الأرقام والإحصائيات الَّتي تتناول الكفاءات العربيَّة المهاجرة.

الحقيقة الَّتي نبني عليها من باب حسن الظن أنَّ الأرقام والتقديرات السابقة انطوت علىٰ تفاوتٍ وتباينٍ في معنى الكفاءة العلميَّة حَتَّىٰ وقعت هٰذه التناقضات والتضاربات في الأرقام، فبعضهم يقصر الكفاءة العلميَّة علىٰ العلماء كما فعل العالم **فاروق الباز**، وبعضهم يقتصر علىٰ حملة الشهادات العليا والأساتذة الجامعيين، وبعضهم يعمم أكثر ليشمل مفهوم الكفاءة كلَّ مختصٍّ أو كلَّ حامل إجازة جامعيَّة كما بدا في تقدير صحيفة القدس العربي.

هٰذا في حقيقة الأمر ما يضعنا أمام بعض التساؤلات المهمَّة، فالأطباء العرب المغتربون علىٰ سبيل المثال رُبَّما يصل عددهم إلىٰ نصف المليون، فهل نعد الجميع كفاءات؟ أم المتميزون منهم؟ أم المبدعون منهم أم ماذا؟

صحيحٌ أنَّنا لا نستطيع أن نضعهم جميعاً علىٰ درجة واحدة، وهٰذا ما لا يجوز منطقيًّا، ولٰكنَّ ذٰلكَ لا يعني أن نحذفهم من حساباتنا.

هناك فرق بَيْنَ المبدع والخبير. يعني بلفظ آخر أنَّ المبدعين والعباقرة مستوى مستقل كل الاستقلال عن الكفاءة أو الخبرة العلمية. العباقرة والمبدعون بطبيعة الحال متفردون وقلة قليلة في المجتمعات كلها.

الكفاءة العلميَّة في أدنى الاحتمالات وأبسطها هي كل حامل لشهادة علميَّة بدءاً من المعهد المتوسط الَّذي يخرج الخبراء التقنيين المساعدين الَّذ ين يقع علىٰ عاتقهم كبير الجهد العملي والتطبيقي في العلميَّة الإنتاجيَّة التقنيَّة والتَّطبيقيَّة، مروراً بالإجازات العلميَّة بمختلف الاختصاصات وصولاً إلىٰ العلماء المبدعين والعباقرة.

علىٰ هٰذا الأساس لا عجب في أن نجد أرقاماً تبدو خياليَّة للكفاءات العلميَّة المهاجرة تصل إلىٰ الملايين الكثيرة لا القليلة. ويتعزز هٰذا التصور إذا ما أعدنا التذكير بأن المهاجرين أكثرهم من الكفاءات العلمية، وإذا أضفنا إلىٰ ذٰلكَ أنَّ المهاجرين من غير الكفاءات العلميَّة وحَتَّىٰ أبناءهم لا مجال لاستمرار بقائهم في المجتمعات الَّتي هاجروا إليها من دون أن يكونوا علىٰ درجةٍ من الكفاءة العلميَّة الَّتي تفرض وجودهم بقوة في مجتمعات الاغتراب، وفي هٰذا ما يفسر لنا أسباب نجاح المغتربين في بلاد المهجر؛ لا خيار أمامهم سوى النجاح، لأنهم محصورون ما بَيْنَ النَّجاح والضَّياع.

وعلىٰ هٰذا الأساس يمكن تصنيف الكفاءات العلميَّة علىٰ النحو التالي:

أولاً: العلماء المبدعون من طراز **فاروق الباز**، و**أحمد زويل**، **وعبد القادر حلمي**، و**رمال**، **ومنير نايفة**، **وصالح الوكيل** وغيرهم كثير من كبار العلماء المبدعين في كثير من المجالات العلميَّة الَّتي تركوا فيها بصماتهم الخاصَّة في مسار التطور العلمي والتقاني في العالم وفي البلدان الَّتي يعيشون فيها.

ثانياً: العلماء العاملون الَّذين هم أقل درجة من العلماء المبدعين من جهة ترك بصماتهم الإبداعيَّة الخاصة، ولٰكنَّهَا علىٰ درجة من القوة العلميَّة الَّتي تجعلهم أسساً وقواعد في اختصاصاتهم في البلدان الَّتي يعيشون فيها، وهم في مختلف المجالات والاختصاصات الطبيَّة والفيزيائيَّة والكيميائيَّة والرياضيَّة والمعلوماتيَّة والتقانيَّة والاقتصاديَّة والإداريَّة وغير كثير.

ثالثاً: الخبراء الاستثنائيون: الخبراء والخبراء الاستثنائيون يتشابهون مع العلماء العاملين من جهة القيمة والقدرة ويختلفون عنهم من جهة التَّكوين والبنية. فالعلماء علماء بالبينة والمرتبة ورُبَّما الشهادة العالية. أما الخبراء فخبراء عمليون، اكتسبوا خبرتهم بالممارسة والتجريب والعمل ولا يشترط فيهم أن يكونوا من حملة الشهادات المكافئة لمستوى خبرتهم، ويمكن أن يكونوا من أي مستوى من مستويات الشهادات العلميَّة من أدناها إلىٰ أعلاها.

رابعاً: حملة الدكتوراه والأساتذة الجامعيون: ليس من الضروري أن يكون كل حامل دكتوراه عالماً، ولا أن يكون كل أستاذ جامعي عالماً، ولا حَتَّىٰ خبيراً أو خبيراً استثنائيًّا في أيٍّ من الحالين. ولٰكنَّ الأستاذ الجامعي وحامل الدكتوراه بالضَّرورة كفاءة علميَّة، إلا من شذَّ منهم وكان بحكم الاستثناء ممن حمل إحدى هاتين الصِّفتين وليس أهلا لها.

خامساً: خريجو الدراسات العليا: يختلف خريجو الدراسات العليا من مختلف المستويات والأنواع عن حملة الإجازة باكتساب خبرة نوعيَّة مختلفة بطبيعتها عن الخبرة العلميَّة النَّظريَّة الَّتي تتوقف عند مستوى الإجازة. هٰذه الخبرة المكتسبة ذات طابعين طابع المنهجيَّة وطابع الخبرة التطبيقيَّة أو العمليَّة.

سادساً: حملة الإجازات الجامعية: قد يكون ثَمَّة اختلاف في القول بأنَّ حملة الإجازات الجامعيَّة من الكفاءات العلميَّة، وهٰذا الاختلاف باطل لا موجب له مطلقاً، فالإجازة الجامعيَّة كفاءة علمية بالضَّرورة فيها المهندس في عشرات المجالات الهندسيَّة، وفيها الطَّبيب، والجيولوجي والفيزيائي والكيميائي وغير ذٰلكَ كثير. ولذٰلك من الخطأ محض التَّفكير في إخراج مستوى الإجازة الجامعيَّة من ميدان الكفاءات العلمية. إن وجود أناس حملة إجازات جامعيَّة علىٰ مستوى متدني من الثَّقافة والمعرفة والقدرة ليس مسوِّغاً أبداً لزعم أنَّ درجة الإجازة ليست كفاءة علمية.

سابعاً: الخبراء التقنيون هم غالباً من حملة شهادات المعاهد المتوسطة. وهم في الحقيقة عماد من أعمد التطبيق والتجريب والاختبار والتنفيذ، ولذٰلك لا يمكن تجاهلهم أبداً، ولا يمكن إلا وضعهم في صف الكفاءات العلمية. ولم نسمهم بحملة شهادات المعاهد المتوسطة لأنه ليس من الضروري أن يكونوا فقط من حملة هٰذا الشهادة فقد يكونون من حملة الإجازات أيضاً، وقد يحملمون شهادات أقل من ذٰلكَ ولٰكنَّهُم اكتسبوا الخبرة الَّتي تؤهلهم لشغل مهامهم التقنيَّة في هٰذا المكان أو ذاك.

ثانياً: أجيال الكفاءات

لاحظنا قبل قليلٍ أنَّ مفهوم الكفاءة مستقلاً عن أيِّ مضافٍ يحمل أكثر من معنى، ومفهوم الكفاءة العلميَّة يحمل أكثر من معنى وأكثر من مستوى. والآن سنجد أيضاً أنَّ مفهوم الكفاءات العربيَّة المهاجرة يحمل أكثر من معنى بل أكثر من نوع.

تنقسم الكفاءات العربيَّة المهاجرة إلىٰ أربعة أنواع مختلفة في البنية والأساس ورُبَّما بل الأكيد أنَّهُ ستتساوى أو تتكافئ في النَّتيجة من ناحية القدرة والقيمة

والأهميَّة. ولٰكن هنا نحن أمام ضرورة تصنيفيَّة للتَّمييز بَيْنَ مراحل تكون الكفاءات وأماكن تكوُّنها لثلاث أسباب علىٰ الأقل أوَّلها مدى ما تمثله من خسائر أو هدر للمجتمعات الأصليَّة الَّتي هاجرت منها، ثانيها مدى ما تمثله من مكاسب وتوفير للمجتمعات الَّتي هاجرت إليها. ثالثها من أجل توصيف الكفاءات ومراحل هجرتها وتكونها لأغراض تصنيفيَّة مختلفة. أمَّا هٰذه الأنواع فهي:

أولاً: لدينا بالدرجة الأولى الكفاءات الَّتي هاجرت من البلدان العربيَّة وهي كفاءات جاهزة ناجزة. هجرة هٰذا النوع من الكفاءات فيما يبدو نظريًّا وعمليًّا هي الأخطر علىٰ الإطلاق. وهي في حقيقة الأمر أعداد كبيرةٌ جدًّا علىٰ مدار ثلاثة أرباع القرن مضت، بدأت مع سياسة **جمال عبد الناصر** في تهميش الكفاءات ومحاربتها ووضعها في غير مواضعها، وسرعان ما انتقلت هٰذه السياسة إلىٰ أرجاء العالم العربي والإسلامي. وراحت تتزايد كما سنبين لاحقاً مع تقدُّم السِّنين كلَّ عامٍ أضعاف العام الَّذي سبقه.

تتمثل خطورة هجرة النوع من الكفاءات في مدى ما تسببه من خسائر فادحة للدولة الَّتي يهاجر منها، في مثل ذٰلكَ قال **سان سيمون**: «إذا اضاعت فرنسا الخمسين الأوائل من علمائها، ومثل ذٰلكَ من أهل فنِّها وصناعتها وزراعتها [فإنَّها تكون قد] قطعت رأس الأمَّة، وأصبحت جسداً بلا روح. ولٰكنَّهَا إذا فقدت جميع موظفيها الرَّسميين فإنَّ تلك الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب نفوسهم، ولٰكنَّهُ لا ينجم في البلد لذٰلك من الضَّرر إلا اليسير»[٣٩].

(٣٩) . غوستاف لوبون: **سر تطور الأمم** . ترجمة أحمد فتحي زغلول . دار النفائس . بيروت . ط١ . ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م . ص٤١. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** . دار القلم/ الدار الشاميَّة . دمشق/ بيروت . ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م . ص٧٧.

وفي مثل ذَلكَ أيضاً كان كلام البرفسور **جورج سيلتز** أمام لجنة الكونجرس الأمريكي الَّتي شكلت لدراسة ظاهرة هجرة الكفاءات إلى أمريكا إذا قال: «إنَّ الدُّول النَّامية تعيش حالة خطيرة من استنزاف قواها البشريَّة، تلك القوى المطلوبة لتحسين الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في بلادها. إنَّ هذه الخسارة لا تتضمن فقط الخبرة الفنيَّة والتِّقنيَّة [وحسب، بل] تشمل خسارة القيادات الفكريَّة الَّتي لا يمكن الاستغناء عنها في مجالات الابتكار وعمليَّات التَّحديث الاقتصادي. إنَّ الصُّورة تسير من سيئ إلى أسوأ، وبشكل مستمر، [إذ] إنَّ انتقال القوى العاملة ذات المستوى الرَّفيع من الدُّول الأقلِّ نموًّا إلى الدُّول المتقدِّمة يزداد كثافةً، ويعظم حجماً»(٤٠).

في دراسة أجريت في أواخر تسعينيات القرن الماضي كشفت عن أنَّ كلفة إنتاج كفاءة علميَّة من طراز عالم أو حامل دكتوراه تقترب من مليار دولار أو أكثر. وهٰذا يعني ببساطة أنَّ أي كفاءة علميَّة تغادر بلدها تكبد بلدها خسارة أكثر من مليار دولار(٤١).

وعلىٰ ذَلكَ لنا أن نتخيل كم تتكبد كل دولة من خسائر جرَّاء هجرة الكفاءات الجاهزة إلىٰ بلدان المهجر. هٰذا من الناحية الماليَّة فقط،

---

(٤٠) . د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** . مطبوعات جامعة الإمام محمد بين سعود الإسلاميَّة . الرياض . ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م . ص٩٨ . ٩٩. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** . دار القلم/ الدار الشاميَّة . دمشق/ بيروت . ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م . ص٧٨.

(٤١) . هٰذا الرقم غير مبالغ فيه علىٰ الإطلاق وهو في حقيقة الأمر أقل من التكلفة الحقيقية بكثير، ذَلكَ لا يجوز أن نحسب تكلفة الفرد علىٰ نحو خطي ساذج، فتكلفة إنتاج العالم هي كل ما أنفق علىٰ جيله كاملاً لأنَّ الدُّول تنفق علىٰ جيل كامل ليخرج منه كله عالم واحد أو اثنين أو ثلاث... فتجتمع تكلفة الجيل كلها في هذذا العالم أو الاثنين أو الثلاث.

أمـا الناحيـة العمليَّـة والعلميَّـة فـالأمر أبعـد غـوراً وأخطـر علـىٰ مختلـف المستويات.

ثانيـاً: لـدينا ثانيـاً الكفـاءات الَّـتي أوفـدتها دولهـا لتتكـون أو لـتخصَّ في الخارج، أي في الـدُّول المتقدِّمـة، ولٰكـنَّهُم لم يعـودوا، وهـؤلاء في الأغلـب الأعـم خامـات كفـاءاتٍ لأنَّ المفـترض في الموفـدين أن يكونـوا مـن المتفـوقين أو المؤهلين ليكونوا كفاءات. ما سيقال هنا هو تماماً ما قيل في الكفاءات الَّتي تهاجر جاهزة نـاجزة رُبَّمـا مـن دون زيـادة ولا نقصـان. الفـرق الوحيـد بينهمـا أنَّ هٰـذا النَّـوع مـن الكفاءات ترسله الدَّولة ليتابع دراسته وتخصُّصه علىٰ حسابها في الدَّولة المتقدمة ويبقى فيهـا ولا يعـود ليهـاجر بعـد عودتـه بسـنة أو سـنتين أو أكثـر مثلمـا يفعـل العلماء المهاجرون أو الكفاءات الَّتي تهاجر بعد تكونها واكتمال تكونها كفاءات علمية.

ثالثاً: لـدينا ثالثـاً الكفـاءات العلميَّة العربيَّة الَّتي هـاجرت هجرة عاديَّة أي كـانوا أشخاصـاً عـاديين قبـل الهجـرة وفي أثنائهـا وفي الخـارج اكتسـبوا مـن الخـبرة والعلم وصاروا كفاءات علمية.

هٰـذا النَّـوع مـن الكفـاءات لـيس قليـل العـدد في حقيقـة الأمـر، ولا قليـل الأهميـة، ورُبَّمـا لا يختلـف كثـيراً عـن المستويين السـابقين. إلا أنَّ الحقيقـة تقتضـي الإشارة إلىٰ أنَّ أكثر أفراد هٰـذا النوع من الكفـاءات ينتسبون في الأغلـب الأعـم إلىٰ فئة الخبراء والتقنيين، وبالتأكيد لا يخلو الأمر مطلقاً من وجود كفاءات عليا من مستوى العلماء المبدعين مروراً بمختلف المستويات.

من الضرورة بمكان الإشارة هنا إلىٰ أنَّ خسارة هٰذه الكفـاءات لا تقل من جهـة المبـدأ عـن الكفـاءات الأُخْـرَىٰ بمختلـف مستوياتها علـىٰ الـرَّغْمِ مـن أمـرين

مضحكين أولهما أن الدَّولة لا تخسر عليهم مثلما تخسر علىٰ النوعين السابقين من تكاليف ماديَّة ومعنويَّة بحكم هجرتهم أشخاصاً عاديين لا كفاءات جاهزة ولا مشاريع كفاءات شبه جاهزة. ثانيهما أنَّ هٰذه الكفاءات غالباً ما كان لها لتصير كفاءات لو أنَّها بقيت في الوطن لأنها أصلاً هاجرت هرباً من شظف العيش لعدم وجود فرصة عمل لها. لا تختلف في ذٰلكَ تحديداً عن الكفاءات العلميَّة الَّتي هاجرت وهي كفاءات جاهزة ناجزة لأنها لو بقيت لقتلت مواهبها وقبرت في أرضها كما حدث ويحدث مع الكثيرين.

رابعاً: أخيراً لدينا الكفاءات العلميَّة الَّتي تكونت في الخارج وهي من أصول عربيَّة سيَّان أكانت مولودةً هناك في الخارج، أو هاجرت وهي صغيرة السن.

هنا نحن في حقيقة الأمر أمام مشكلة كبيرة إحصائيَّةٍ وتقديريَّةٍ وانتمائيَّةٍ.

من ناحية القدرة والكفاءة لا يختلف أمرها وشأنها مطلقاً عن مستويات الكفاءة وأنواعها الَّتي سبق الحديث فيها ولذٰلك لن نقف عندها من هٰذه الزاوية أو الناحية.

أمَّا الناحية الإحصائيَّة والتقديريَّة فنحن أمام طبقتين من الإحصاء والتصنيف؛ الطبقة الأولى هي الَّتي أبنا عنها في الفصل الأول ووصل تقدير المغتربين العرب إلىٰ ما يربو علىٰ عشرين مليوناً من مختلف الدُّول العربيَّة وهو تقدير أو إحصاء ضعيف في حقيقة الأمر أقل من الحقيقة بالمقايسة والمنطق والخبرة. والطَّبقة الثَّانية هي الَّتي كانت موضوع الفصل الثاني الَّتي تحدثت عن ٧٣ مليون مغترب سوري في أرجاء العالم، سوري وليس لبناني ولا فلسطيني ولا أردني كون هٰذه الدُّول جزء من سوريا الحقيقيَّة، ومن ثمَّ ليس من كل العالم العربي

بالضَّرورة. وهٰذا ما يضعنا أمام ضرورة إعادة النظر في الإحصاءات والتقديرات كلها من جديدٍ.

أمَّا من الناحية الانتمائيَّة فنحن أمام مشكلة من نوعٍ آخر مختلف تمام الاختلاف. ذٰلكَ أنَّ هٰؤلاء المغتربين ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول هم من فقدوا أو تخلوا عن الجنسيَّة العربيَّة وتجنسوا بجنسيات الدُّول الَّتي يعيشون فيها، ومنهم من يعرف أصله ومنهم من لا يعرفه، ومنهم من يعرف اللغة العربيَّة ومنهم من لا يعرفها.

القسم الثاني هم من حافظوا علىٰ الجنسيَّة العربيَّة مع حصولهم أو تمتعهم بجنسيات الدُّول الَّتي يعيشون فيها. ويبدو من هٰذه الازدواجيَّة إصرارهم علىٰ التمسك بأصولهم رُبَّما إيماناً منهم بالعودة يوماً ما، ورُبَّما إحساساً بالانتماء، ورُبَّما غير ذٰلكَ.

القسم الثالث هم الَّذين لم يحصلوا علىٰ جنسيَّات الدُّول الَّتي يعيشون فيها وحافوا علىٰ جنسياتهم العربية. الأسباب الَّتي تقف وراء ذٰلكَ كثيرةٌ، منها الرَّغبة والإرادة، ومنها الظُّروف الَّتي تسمح لهم، ومنها القوانين الَّتي لم تمنحهم هٰذا الحق، وغير ذٰلكَ احتمالات غير قليلة بحالٍ من الأحوال.

ثالثاً: تزايد النزيف

الكلام في موجات الهجرة العربيَّة إلىٰ الغرب كلام طويل. والكلام هجرة الكفاءات العربيَّة علىٰ نحو خاص علىٰ نحو موجات أو تواتر أيضاً أمر يطول بنا، وموضوع ذا أبعادٍ دلاليَّةٍ خاصَّةٍ؛ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وتاريخيَّةٍ يستحقُّ لأجلها وقفةً خاصَّةً مستقلَّةً.

علىٰ أيِّ حال، مما تجدر الإشارة إليه في هٰذا الإطار أنَّ هجرة الكفاءات والأدمغة العربيَّة قد ازدادت علىٰ نحوٍ ملحوظ في العقود الثلاثة الأخير السَّابقة، ولٰكنَّهَا بلغت أوجها، حَتَّىٰ الآن، في العقد السَّابق[٤٢] الَّذي لا نملك عنه أيَّ إحصاءات كافية ولا حَتَّىٰ شبه مرضية. وفي حقيقة الأمر فإنَّ ظاهرة طفرة الزِّيادة في هجرة الكفاءات ليست عربيَّة وحسب، وإنَّما هي ظاهرة شهدها العالم الثالث كلُّه تقريباً بما فيه العالم الغربي ذاته الأوروبي منه تحديداً، ففي حين كان وسطي الكفاءات المهاجرة (٢٤٥) ألف كفاءة سنويًّا من العالم الثالث إلىٰ العالم المتقدِّم، «فقد زاد في العقود الثلاثة الأخيرة إلىٰ مليون ومئتي ألف سنوياً»[٤٣]. ومن ذٰلكَ أيضاً علىٰ سبيل المثال، فيما يخصُّ واقعنا العربيَّ، أنَّه «يقدَّر عدد العراقيين الَّذين هاجروا إلىٰ خارج العراق ـ حسب تقدير الدكتور **سلمان سلمان** ـ بما يزيد عن المليون منذ بداية الحرب العراقيَّة الإيرانيَّة إلىٰ الآن، وتشكل الكفاءات العلميَّة نسبةً مهمَّة من هٰذا الرَّقم»[٤٤]، ونحو ضعفي هٰذا الرَّقم، أي نحو المليونين، كما ذكرنا قبل قليل، هو عدد المهاجرين اللبنانيين إلىٰ الخارج في ما بَيْنَ عامي ١٩٧٥م و١٩٩٨م، ولٰكن ليس كلُّ هٰذا العدد من الكفاءات.

---

(٤٢) ـ تحديد العقد السابق هنا مرتبط بعام ٢٠٠٧م عام إخراج هٰذا الكتاب للطباعة وتعذر نشره في تلك السنة لأسباب كثيرة، ومن ثمَّ فإنَّ المقصود بالعقد الأخير الأعوام الممتدة ما بَيْنَ عامي ١٩٩٥م أو قبل ذٰلكَ بقليل إلىٰ عام ٢٠٠٧م عام تحرير الكتاب للنشر للمرة الثانية.

(٤٣) ـ **الأدمغة المهاجرة... تعود إلى مواطنها عبر الإنترنت** ـ ضمن جريدة؛ **الاتحاد** ـ أبو ظبي ـ عدد الجمعة ١٠ رجب ١٤١٩هـ/ ٣٠تشرين الأول ١٩٩٨م.

(٤٤) ـ د. سلمان رشيد سلمان: **العولمة وهجرة الكفاءات العلمية العربية** ـ ضمن جريدة؛ **الاتحاد** ـ أبو ظبي ـ الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م ـ ص٢٥.

مع الربيع العربي اقلبت الموازين كلها انقلاباً جذريًّا خطيراً علىٰ المستويات كلها السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة والتَّعليميَّة... وازدادت هجرة الكفاءات بل هربوها من العالم العربي عامَّة ومن دول الربيع العربي خاصَّةً علىٰ نحو غير مسبوق مطلقاً إلىٰ الحد الَّذي يمكن القول معه إن نحو سبعين إلىٰ ثمانين بالمئة من الكفاءات العلميَّة والتقنيَّة والتقانيين في بلدان الربيع العربي قد هربت من استهداف الأنظمة لها لأنَّ الأنظمة العربيَّة عامة وفي دول الربيع العربي خاصَّة استهدفت هٰذه الكفاءات أكثر من استهدافها الثوار أنفسهم، وجعلت ثأرها من الكفاءات لأنها تدرك جيِّداً أنَّ المواطن العادي من دون رأس لا قيمة له.

لذلك يصعب علينا فعلاً تحديد عدد الكفاءات الَّتي هربت من الأنظمة العربيَّة في هٰذه الفترة الَّتي تمتد سبع سنوات تقريباً، حسبنا لفهم هول المأساة وخطورتها وفظاعتها أن نعلم أن نحو ثمانين بالمئة علىٰ أقل تقدير قد نزفت من دول الربيع العربي بالمجمل ونحو عشرين بالمئة من الكفاءات قد هربت في هٰذه الفترة ذاتها إلىٰ دول العالم الغربي مستغلة فوضى الربيع العربي ومتخوفة من مراحل قادمة علىٰ مجتمعاتها.

رابعاً: محدودية الإحصاءات

تحدثنا في مشكلة الإحصاءات في الفصل الأول من هٰذا الكتاب علىٰ نحو شبه مفصَّل. ولا نتوسع في ذٰلكَ كثيراً هنا. حسبنا الإشارة إشارة سريعة إلىٰ أنَّ جزءاً غير يسيرٍ من الدُّول الَّتي توجد فيها كفاءات علميَّة عربيَّة أو يمكن أن توجد فيها هٰذه الكفاءات بأعداد كبيرة أيضاً غير مشمولةٍ في إحصاءات الكفاءات العلميَّة علىٰ أقل تقدير مثل: أمريكا الجنوبيَّة بمجملها، وأوربا الشَّرقية، واستراليا، ونيوزلندا، وكندا، وغيرها. والسبب في استبعاد هٰذه الدُّول من

الإحصاءات، وحَتَّىٰ التَّقديرات، يرجع في الدرجة الأولى إلىٰ بعد معظمها عن الدرجات العليا في سلَّم التَّطور والتَّقدم العلمي والتقاني، إلا أنَّ هٰذا البعد عن مصاف الدُّول المتقدِّمة لا ينفي أبداً أهميَّة الكفاءات العربيَّة ومكاناتها في مختلف الميادين؛ العلميَّة والمعرفيَّة والإداريَّة، علىٰ أصعدة هٰذه الدُّول أولاً، وعلىٰ الصَّعيد العالمي ثانياً.

هٰذه نقطة لم نشر إليها في الفصل الأول، ولٰكنَّ النُّقطة الَّتي أشرنا إليها وتسحق إعادة التذكير بها أنَّ أكثر الدُّول الَّتي فيها كفاءات علميَّة مهاجرة عربيَّة أو غير عربيَّة غير متعاونةٍ مطلقاً في موضوع الإحصاءات أو تقديم أيِّ نوعٍ من هٰذه البيانات إلىٰ الباحثين لأنَّ ذٰلكَ في حقيقة الأمر، وليس ذريعةً، يدخل في باب الأمن القومي.

يبقى علىٰ هٰذا الأساس جهود الباحثين الشَّخصيَّة. جهود الباحثين الشَّخصية مهما بلغت من القدرة والقوَّة والحصافة فإنَّهَا أعجز عن أن تستطيع القيام بمثل هٰذه الإحصاءات الوافية. إنها تحتاج إلىٰ جهودٍ جبَّارةٍ تعجز عنها الدُّول في حقيقة الأمر. الأمر ليس أمر تمويلٍ فقط بل أمر برامج ومخطَّطات وشبكات اتصالٍ وتواصلٍ وتوقعاتٍ وفرق عمل وباحثين... علىٰ امتداد العالم وليس في بقعةٍ واحدةٍ أو اثنتين أو ثلاث...

وفوق ذٰلكَ فإنَّ الجهود البحثيَّة في هٰذا المجال كلها تقريباً كانت جهوداً فرديَّةً محدودةً وأكثر هٰذه الجهود الفرديَّة انبنت علىٰ تواصلات شخصيَّة وقواعد بياناتٍ قديمةٍ أو محدودة. ولذٰلك لا يمكن مطلقاً الوثوق في أيٍّ منها.

ومع ذٰلكَ كلِّه لا نستطيع إلا أن نتكئ عليها بوصفها المعطيات الوحيدة المتوافرة عن الموضوع، وهٰذه المعطيات علىٰ محدوديتها وعلىٰ

عـدم كفايتهـا، وعلـىٰ كونهـا تقـف عنـد العتبـات الـدُّنيا مـن الإحصـاءات والتَّقـديرات فإنَّهَـا تقـدِّم إحصـاءاتٍ وتقـديراتٍ مربكـةً وخطـيرةً مـن ناحيـة الأعـداد الهائلـة للكفـاءات العربيَّـة المهـاجرة إلىٰ العـالم الغـربيِّ تحديـداً وإلىٰ خارج العالم العربيِّ والإسلاميِّ عامَّة.

خامساً: في هذه الكفاءات

ولعَلَّه الأكثر أهميَّةً، أنَّ عدد الكفاءات العربية المهاجرة، علىٰ أهميَّته، ليس المؤشِّر الوحيد علىٰ أهميَّة الموقف وخطورته، وجسامة الخسارة العربيَّة، بل المكانة الَّتي تلعبها هٰذه الكفاءات في بلاد المهجر، وحساسية هٰذه المكانات، والأدوار الَّتي يؤدُّونها، والإنجازات الَّتي يحقِّقونها... والأمثلة علىٰ ذٰلكَ كثيرة من الأعلام المشهورين مثل عالم الفضاء **فاروق الباز** الَّذي كان له فضل التَّخطيط والتَّفكير في إرسال أول مركبةٍ مأهولةٍ إلىٰ القمر بعد وضعه الخريطة الجيولوجية للقمر، وعالم الكيمياء **أحمد زويل** الحائز علىٰ جائزة نوبل، وأكبر وأعرق وسام أمريكي وهو جائزة **بنيامين فرانكلين**، باكتشافة الَّذي أذهل العالم وأحدث انقلاباً مدوياً في كلِّ الأوساط العلميَّة[٤٥]، **وعبد القادر حلمي** أحد أهم علماء الصواريخ في العالم[٤٦]، وعالم الفيزياء **رمال رمال** الَّذي كاد أن يصل إلىٰ جائزة نوبل في الفيزياء[٤٧]، وعالم الإلكترونيات **يوسف أبو الخدود** الَّذي صمَّم القوَّة

(٤٥) . محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي** . ضمن مجلة؛ **العربي** . وزارة الإعلام . الكويت . العدد ٤٩٤ . كانون الثاني . ٢٠٠٠م . ١١٦.

(٤٦) . مطر حلمي: **قصة القبض على أحد أهم خمسة علماء صواريخ في العالم** . ضمن مجلة؛ **المجلة** . العدد ٥٣٧ . ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م . ص١٨.

(٤٧) . سعيد الصباح: **لبنان والعرب يخسرون علماءهم** . ضمن مجلة؛ **الشراع** . العدد ٩١٣ . كانون الثاني . ١٩٩٩م . ص٣٩ . ٤١.

الكهربائية في المركَّبة الفضائية (مارينز٧) ومهَّدت لإطلاق أول مركبةٍ حملت الإنسان إلىٰ القمر عام ١٩٦٩م[٤٨]، و«الدكتور **محمد صوان** الَّذي يقود فريقاً كنديًّا لابتكار عينٍ صناعيَّة تعيد البصر للمكفوفين»[٤٩]، و«السير **بيتر مدور**، اللبناني الأصل، الَّذي نال جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦١م»[٥٠]، و«الدكتور **ريكاردو ميلادي (ملحم)** الحائز علىٰ جائزة نوبل في الطِّبِّ مرَّتين بالمشاركة»[٥١]. و«العالم **إلياس جيمس خوري** أحد القلائل الَّذين يفوزون بجائزة نوبل في الكيمياء منفرداً»[٥٢]، و«السير **مايكل عطية** الَّذي نال أعلىٰ الجوائز العالمية في الرياضيات وتسنَّم المناصب العلمية في بريطانيا، **ومصطفى شاهين** رئيس العلماء في مختبر الدَّفع النفاث التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، والدكتور **فخري البزاز** أستاذ الأحياء في جامعة هارفارد وعضو أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية، والدكتور **منير نايفة** أستاذ الفيزياء النَّظرية في جامعة إيلينوي أربانا شامبين الَّذي ارتبط اسمه برصد الَّذرات المنفردة وتحريكها... **وصالح الوكيل** الَّذي قال عنه بيان انتخابه عضواً في الأكاديمية القومية للعلوم في

---

(٤٨) . سعيد الصباح: **عالمان لبنانيان آخران في عالم النسيان** . ضمن مجلة؛ **الشراع** . العدد ٩١١ . كانون الثاني . ١٩٩٩م . ص٤٣ . ٤٧.

(٤٩) . جريدة؛ **الاتِّحاد** . أبو ظبي . الثلاثاء ١٩ شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م . العدد ٨٩٦٩.

(٥٠) . محمد عارف: **نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين** . ضمن جريدة؛ **الحياة** . لندن . العدد١٣٤٤٩ . الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ/٥ كانون الثاني/يناير٢٠٠٠م.

(٥١) . محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل** . م. س . ص٦٠.

(٥٢) . غسان غصن: **نوبل والمتحدرون من أصل عربي** . ضمن جريدة؛ السفير . العدد ٨٧٣٩ . الثلاثاء ٢٤ تشرين الأول ٢٠٠٠م.

الولايات المتحدة إنَّه أحدث ثورة في علوم الطِّب، **ومصطفى السيد** (صاحب) الأبحاث الرَّائدة في الطَّاقة الشمسية، و**رمزي قطران** مؤلف كتاب: (أسس علم الأمراض)، الكتاب المقرر للتدريس في معظم كليات الطِّب، وترجم إلىٰ أكثر من أربعين لغةٍ بَيْنَها الصِّينية واليوغسلافية والفارسية، و**زهاء الحديدي** الَّتي تعدُّ أشهر بل وأكثر مهندسة أهميَّة في العالم منذ الربع الأخير من القرن العشرين إلىٰ حين موتها في ٣١ آذار/ مارس عام ٢٠١٦م، والدكتور **مصطفى كمال** الَّذي قاد برنامج الأمم المتحدة للبيئة فترة (١٨) عاماً...»[٥٣]، «**وجاك نصر** مدير عام شركة فورد العالمية للسيارات»[٥٤]، وغيرهم كثيرٌ ممن تضيق مثل هٰذه المساحة عن سردهم؛ ممن غاب عن البال ذكرهم، أو ممن لم يصل إلينا ذكرهم كالمهندسين الكبار والكثر الَّذين يمثلون نصف مهندسي شركة مايكرو سوفت كما جاء على لسان **حسام السكري** أحد المدراء الفرعيين في الشركة[٥٥].

وفي إطار الكفاءات الإدارية والسِّياسية «أدَّت مواطنة بلجيكيَّة من أصلٍ مغربيٍّ اليمين الدستورية اليوم الاثنين أمام عاهل بلجيكا **ألبير الثاني** بصفتها وزيرة دولةٍ، لتصبح بذلك أول عضو في الحكومة البلجيكيَّة ينحدر من بلد مسلمٍ. هي الوزيرة **أنيسة تمسماني** (٣٦ عاماً) مولودة بمدينة طنجة المغربيَّة، وهي عضو في الحزب الاشتراكي الفلمنكي ومكلفة تنظيم العمل والرَّفاهية في

---

(٥٣) . محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي**. ص١١٤. ١١٥.

(٥٤) . محمد علي صالح: **من أميون في لبنان إلى رئاسة إمبراطورية فورد** ت ضمن مجلة؛ **المجلة** . العدد ١٠٠٩. تاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٩٩م. ص٥٤.

(٥٥) . أن يكون نصف مهندسي شركة مايكرو سوفت من السوريين أو العرب بشكل عام أمرٌ بدا لبعضهم مبالغاً فيه، وبدا لبعضٍ آخر نسبة خيالية، ولكن هذا ما ذكره حسام السكري؛ أحد المدراء الفرعيين في الشركة، في واحد من لقاءاته المتعددة مع إذاعة لندن، برنامج مقهى الكومبيوتر.

عملها الجديد بالحكومة»[٥٦]. وبعدها تتال تنسم العرب الكثير من المناصب الوزارية في الدُّول الأوروبية. أمَّا في أمريكا اللاتينية فحدث ولا حرج عن الكفاءات السياسية والإدارية الكثيرة من الوزراء ورؤساء البرلمانات وقادة الجيوش ورؤساء الدُّول أشهرهم **كارلوس منعم**، ومنهم **رالف نادر** المرشح الدائم لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكيَّة طيلة نحو عشرين عاماً آخر مع **جورج بوش الابن**. ولا ننسى **سليمى حاتم** رئيسة البرلمان الكولومبي في مطالع القرن الحادي والعشرين...

وفي مجال الأدب والفن لا ننسى **جورج شحادة** أحد أهم ثلاثة أعمدة في تاريخ المسرح الفرنسي. **وجورج نادر** أحد أبرز مشاهر السينما الأمريكية طيلة الخمسينيات والسِّتينيات الَّذي اعتزل التَّمثيل عام ١٩٧٣م وتوفي عام ٢٠٠٢م. والفنان **عمر حمدي** أحد أكثر رسَّامي العالم أهميَّةً منذ بداية اغترابه في عام ١٩٩٢م الَّذي عرض لوحاته في معارض فرديَّة وجماعيَّة في كثيرٍ من العواصم الدَّوليَّة منها نيويورك، فيينا، موسكو، مدريد، باريس، وغيرها...

هٰذه بعض النَّماذج للكفاءات العربيَّة المهاجرة في محطَّاتٍ سريعةٍ ومتنوِّعةٍ وسنعود في فصل قادم لعرض مسرد لبعض مشاهير الكفاءات العربيَّة المهاجرة في أنحاء العالم الغربي.

سادساً: ما بين المصدر والمصب

النقطة أو المسألة السادسة والأخيرة في تصورنا رُبَّما تكون هي الأكثر خطورة وأهميَّة بَيْنَ كل ما سبق.

---

(٥٦) . وكالة الأنباء الفرنسية: **تعيين وزيرة من أصل مغربي في بلجيكا** . الجزيرة نت . الاثنين ١٥/٥/١٤٢٤هـ الموافق ١٤/٧/٢٠٠٣م.

إنَّ عدد الكفاءات العربية المهاجرة، علىٰ أهميَّته، ليس المؤشِّر الوحيد علىٰ أهميَّة الموقف وخطورته، وجسامة الخسارة العربيَّة، بل حَتَّىٰ المكانة الَّتي تحتلها هٰذه الكفاءات في بلاد المهجر، وحساسية هٰذه المكانات، والأدوار يمكن أن تكون أقل أهمية وخطورة من مشكلة أو مسألة الدَّلالة والرَّمزيَّة للخسارة الوطنيَّة والمهمات الَّتي تقوم بها هٰذه الكفاءات في العام الغربي.

أي إنَّنا أمام ثنائية تقابلية للخسارة وما تمثله والمكانة وما تمثله. منطقيًّا نتناول هٰذه المسألة لا عاطفيًّا. هجرة الكفاءات من مختلف المستويات والأنواع والتَّوصيفات تمثِّل خسارةً كبيرةً للوطن علىٰ مختلف المستويات العلميَّة والماديَّة والمعنويَّة. هٰذه حقيقة لا يمكن نكرانها بحال من الأحوال لأيِّ سببٍ من الأسباب. وهٰذه الخسائر الَّتي يفقدها الوطن بسبب هجرة هٰذه الكفاءات ليست قليلة بحالٍ من الأحوال، إنَّهَا أكبر بكثيرٍ ممَّا يمكن تصوُّره أو تخيُّله، حسبك ما ذكرنا بناء علىٰ دراسات مختصَّة بأنَّ تكلفة صنع كفاءةٍ علميَّة تقترب من مليار دولار. هٰذه التَّكلفة النَّقديَّة فقط، أمَّا التَّكلفة الماديَّة فهي كبيرةٌ بمختلف الاتِّجاهات.

الخسائر المعنويَّة أكبر من ذٰلكَ كله بكثير، إنَّهَا سكين بحدَّين فهي من الطَّرف الأول الخسائر الماليَّة والماديَّة وخسارة الجهود العلميَّة لهٰذه الكفاءات وغير ذٰلكَ كثيرٌ مما يدور في هٰذا الإطار... ولٰكنَّ الأشدَّ إيلاماً هو أنَّ كل هٰذه الخسائر تكون من أجل وضعها ووضع عقول هٰذه الكفاءات في خدمة الغرب الَّذي يناصبنا العداء ويترصد لنا كل مرصد.

لم يكف أن نخسر كل هٰذه الخسائر من كل الأنواع والأشكال والألوان في هجرة الكفاءات بل يأتي فوق ذٰلكَ أن هٰذه الكفاءات تقوم بتطوير الغرب علىٰ

مختلف المجالات العلميَّة ومنها العسكريَّة الَّتي تُخصَّص أكثرها لمحاربتنا، أي إنَّ هٰذه الكفاءات عامَّة تقوم بتعزيز قوَّة الغرب الماديَّة والماليَّة والعلميَّة والعسكريَّة ليقوم الغرب باستثمار أكثرها في محاربتنا ومحاصرتنا ومنعنا من التَّطور والتَّقدم. وهٰذه هي المأساة الحقيقيَّة.

خاتمة

السُّؤال الَّذي يجب طرحه هنا: ماذا كان أن تفعل هٰذه الكفاءات لو بقيت في بلدانها؟ هل كانت ستنتج هٰذه الكفاءات ما أنتجته أو تفعل ما فعلته وتفعله لو بقيت في العالم العربي؟

هنا المشكلة الحقيقيَّة والمأساةُ الكبرى.

الأمثلة والشَّواهد أكثر من أن تحصى في حقيقة الأمر، وكلها تدمي القلوب والعقول، وتجعل اليأس والإحباط يتراقص طرباً.

السُّوري الأصل **ستيف جوبز** الَّذي غيَّر مسار البشريَّة وعدَّته وسائل الإعلام العالميَّة الانعطافة الثَّانية الكبرى في تاريخ البشريَّة بعد **نيوتن**، توفي في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠١١م، عندها عرف العرب شيئاً عنه، وتساءل الكثيرون حينها: لو بقي **ستيف** في سوريا هل كان سيخترع جهازه الَّذي غير به وجه التاريخ (آي باد)؟

أجاب الكثيرون قائلين: كان سيظلُّ يصرخ (آي رجلي). إمَّا من الفقر أو من تعذيب المخابرات.

مثالٌ آخر أنهي به هو **فاروق الباز** وقد أشرنا إليه وسنعود إليه. عاد إلى مصر مع بدايات عصر **عبد الناصر** بشهادة دكتوراه في الجيولوجيا هي الأولى

من نوعها في الشَّرق، وفي رأسه طموحات ومشاريع لا حدود له، وإذ بسياسة **عبد الناصر** تجعله أستاذ كمياء في المرحلة الثانويَّة... فهرب ونجا ومن من أمثاله بقي هلك.

لذلك نكرر: إنَّ نزيف العقول أو هجرة الأدمغة أو الكفاءات... إنَّما هو النَّتيجة المنطقيَّة للواقع العربيِّ الرَّاهن بمختلف ظروفه ومعطياته.

إنَّ الأنظمة العربيَّة الحاكمة تحكم فيما يبدو من منطلق العداء لا البناء، من منطلق العداء للأمة الَّتي يحكمونها لا منطلق المسؤوليَّة عنها، ولهذه ظاهرةٌ جدُّ غريبةٍ وعجيبةٍ ومفارقةٍ للمنطق والأخلاق والسياسة... أمرٌ لا يمكن تصديقه، ولكنَّهُ واقعٌ واضحٌ صريحٌ لا يحتاج إلىٰ جهد لفهمه وإدراكه.

الفصل الرابع

آراء في أسباب هجرة الكفاءات

الحديث في أسباب هجرة الكفاءات حديث ذو شؤون وشجون، ذَلكَ أنَّنا أمام العديد من وجهات النَّظر في أسباب هجرة الكفاءات، وفي الوقت ذاته فإنَّ هٰذه الأسباب مهما تنوَّعت واختلف وتباينت فإنَّها تنطوي علىٰ مؤشِّرٍ أَو بؤرةٍ دلاليَّةٍ واحدةٍ هي بؤس الأمَّة التي تهاجر كفاءاتها.

نحن أمام أكثر من وجهة نظر في عرض أسباب هجرة الكفاءات، فمنهم من يركِّز علىٰ جانبٍ دون آخر، ومنهم من ينظر إليها نظرةً إجماليَّةً، ومنهم من يتحدَّث عن فئات من الأسباب، وفي الحالين كليهما نحن أمام اختلافات وتباينات في أسلوب التَّصنيف ومبدئه، وفي تحديد الأسباب أَو الأقل تسميات الأسباب التي يمكن أن تكون ذاتها.

قبل أن نحدِّد أسباب هجرة الكفاءات أَو نزيف العقول العربيَّة من وجهة نظرنا سنعرض لبعض الدِّراسات الَّتي حدَّدت هٰذه الأسباب مع مناقشة بعضها إن وجدنا ما يوجب المناقشة أَو دعتنا الضَّرورة إلىٰ ذَلكَ.

أنطوان زحلان وأسباب الهجرة

أنطوان زحلان أحد أبرز الباحثين الذين اهتموا بهجرة الكفاءات العربيَّة، ويعد بحقٍّ أحد أبرز المراجع للمهتمين والباحثين في هجرة الكفاءات العربيَّة، فهو من أوائل المهتمين بهذا الموضوع من جهةٍ أولى، وله من جهةٍ ثانيةٍ العديد من

الأبحاث والدراسات المتتالية في هجرة الكفاءات التي كانت في مجملها مرجعاً أساسيًّا للباحثين والدارسين الذين تناولوا هذا الموضوع(٥٧).

انطلق **زحلان** في تحديد أسباب نزيف الأدمغة من بداهة في مثل هٰذه الحل وهي أنَّهُ «ليس ثَمَّةَ سببٌ واحدٌ لهجرة الأدمغة، ذٰلكَ أنَّ المهاجرين تدفعهم قوىٰ كبيرةٌ متنوِّعةٌ». وعند البحث في هٰذه القوىٰ وجد أنَّها تنقسم إلىٰ صنفين كبيرين متعاكسين هما القوىٰ الدافعة، أي القوىٰ الداخليَّة التي تدفع العلماء أَو الكفاءات إلىٰ الهجرة، وقوىٰ جاذبة هي القوىٰ الخارجيَّة التي تقدم الحوافز والمشجِّعات التي تجذب الكفاءات إليها. وعلَّق قبل البدء بالتَّوضيح أن القوىٰ المسببة للقوىٰ الدافعة والجاذبة تختلف من بلدٍ إلىٰ آخر ومن حالةٍ إلىٰ حالةٍ أُخْرَىٰ.

أولاً: القوىٰ الدافعة

القوىٰ الدَّافعة فيما يرىٰ **زحلان** أربعة علىٰ الأكثر، وكان حريًّا به أن يكتفي بأنها أربعة من دون إضافة علىٰ الأكثر لأنَّ هناك قوىٰ دافعة أكثر من ذٰلكَ. وهٰذه القوىٰ الدافعة هي التي تدفع الكفاءات، أَو البشر عامَّة من وجهة نظره، إلىٰ خارج مكان إقامتهم. وهٰذه القوىٰ هي: المحيط السِّياسي. ومحيط العمل والتقدُّم في المهنة. وأنظمة التَّعليم العالي. والسِّياسات التقانيَّة.

١ . **المحيط السِّياسي**: يرىٰ **زحلان** أنَّ القمع والظلم الاجتماعي والديكتاتوريَّة والحروب الأهليَّة وانتهاكات حقوق الإنسان

(٥٧) . انظر تفاصيل هذه الأسباب في بحث أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السّياق القومي والدولي** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ١٥٩ . ٥/ ١٩٩٢م . ص٧ ــ ١٣.

هي قوىٰ دافعة لهجرة الكفاءات من العالم الثالث، لأنَّ ذٰلكَ كلَّه متفرِّقاً ومجتمعاً يؤدي إلىٰ الحيلولة دون إسهام الكفاءات العلميَّة بدورها وإمكاناتها فتكون أمام خيارات كلها مرَّة أقلها التزام الصمت والسكوت وأعلاها الاغتيال، وأوسطها الهجرة. والأخطر من ذٰلكَ كلِّه كما يرىٰ **زحلان** أن تضطر الكفاءات إلىٰ الهجرة؛ هجرة لجوء يحرمها من عقلها، لأنَّها تصير حالات لجوء سياسي أَو إنساني لا كفاءات علميَّة.

٢ . **محيط العمل والتقدم في المهنة**: هنا سببٌ خطيرٌ وأكثر من خطيرٍ، ولٰكنَّ **زحلان** لا يتوقَّف عنده بما يستحق من الأهميَّة والخطورة لأنَّهُ رُبَّما يستحقُّ أن يقفَ علىٰ رأس الأسباب، ولٰكنَّهُ يكتفي بالقول: «ما إن يتخصَّص شخصٌ في مهنةٍ حَتَّىٰ تصبح فرصُ عمله متوقِّفةً علىٰ الطَّلب بالنسبة إلىٰ هٰذه الخبرة. هكذا فالجرَّاح الَّذي يتخصَّص في زراعة القلب، مثلاً، لا يكون مناسباً لمنصب مدير مستشفى، والمهندس الإلكتروني المتخصص في أجهزة الاتصالات لا يهتم بالعمل مهندساً لكهربة المباني». ويتابع ببعض الإحصاءات التي لا تقلُّ غموضاً وبعداً عن توضيح السَّبب من التَّوضيح الذي قدَّمه.

٣ . **أنظمة التَّعليم العالي**: يلقي **زحلان** علىٰ أنظمة التَّعليم العالي جزءاً من مسؤوليَّة دفع الكفاءات العلميَّة إلىٰ الهجرة، ذٰلكَ «أنَّ النِّظام السَّائد في التَّعليم العالي العربي جدُّ ضعيفٍ في البحث والدِّراسات العليا...». ويتابع بأنَّ تطوير الدِّراسات العليا في الوطن العربيِّ بطيءٌ جدًّا، والسَّبب «أنَّ الدِّراسات العليا لا يمكن تطويرها قبل أن يوفر الاقتصاد سوقاً للبحث والتَّطوير». وهٰذا، إلىٰ جانب غيره من مشكلات

هٰذا القبيل، «نتيجة غير مباشرة لغياب السِّياسات العلميَّة القوميَّة»، ولو قال نتيجة مباشرة لما ابتعد عن الصَّواب(٥٨).

٤ . السِّياسات التقانية: هنا يبيِّن الدكتور **زحلان** أبعاد الممارسة التقانيَّة المعاصرة من جهة تعقيدها وتشابكها ومُؤَسَّسِيَّتِها ويخلص، وليس هٰذا بحاجةٍ إلىٰ عناء إدراكه، إلىٰ أنَّ «البلدان العربيَّة تفتقر إلىٰ سياسات التقانة اللائمة التي تعزز تطوير المعاهد والمنظمات الوطنيَّة التي ستكون قادرةً علىٰ القيام بالخدمات التقنيَّة المرغوب فيها. وتلك قوَّة دفعٍ قويَّةٍ وراء هجرة الأدمغة العربيَّة، ذٰلكَ أنَّ هٰذه المنظَّمات تنشئ عمالةً للطاقة البشريَّة المتخصصة».

ثانياً: القوىٰ الجاذبة

يبدأ **زحلان** من مقدِّمةٍ بديهيَّةٍ وهي أنَّهُ مهما كانت القوىٰ الدَّافعة للهجرة في الوطن أَو البلاد الأم فإنَّهُ «لا يمكن أن تحدث الهجرة ما لم تكن هناك بلادٌ ما قادرةٌ علىٰ استقبال الشَّخص الذي يُدفع خارج بلاده، وراغبة في ذٰلكَ». هٰذه البلاد هي القوىٰ الجاذبة، وتنقسم هٰذه القوىٰ الجاذبة وفق **زحلان** إلىٰ قسمين هما البلاد الأجنبيَّة والبلاد العربيَّة. أما لبلاد العربيَّة بوصفها قوىٰ جاذبة فلا أعدها بلاد هجرة لأنِّي لا أرىٰ في انتقال الكفاءات العربيَّة ضمن الوطن العربيِّ هجرة ولا نزيف أدمغة مهما كانت الخلافات بَيْنَ الدُّول العربيَّة. والدكتور **زحلان** ذاته كانت له وجهة النَّظر هٰذه ولذٰلك سَمَّىٰ انتقال الكفاءات من الدُّول العربيَّة الدافعة إلىٰ الدُّول العربيَّة الجاذبة بالهجرة الدَّاخليَّة.

---

(٥٨) . يتابع الدكتور زحلان هنا هذا العامل بتبيان مختصر لسبل تصحيح الوضع التَّعليمي العالي لامتصاص الكفاءات وحسن استثمارها، ولكنَّهُ قدم أكثر من بحث وأشرف على أكثر من ندوة للتوسع في سبل امتصاص الكفاءات واستثمارها.

أمَّا هجرة الكفاءات إلىٰ الدُّول الأجنبيَّة فهي النَّزيف لحقيقي للأدمغة من وجهة نظرنا لأنَّ جهود هٰذه الكفاءات ستصب في معين أمم أُخْرَىٰ ولا تستفيد منها أمَّتنا في شيء. وهنا يتحدث الدكتور **زحلان** عما تقوم بعض الدُّول الغربيَّة من أجل اجتذاب الكفاءات العلميَّة من الوطن العربي وغيره، والمحفزات التي تقدمها هٰذه الدول.

نادر فرجاني وأسباب الهجرة

الدكتور **نادر فرجاني** واحدٌ من الباحثين الذين اهتموا أيضاً بهجرة الكفاءات العربيَّة، وكان له أكثر من مشاركة بحثيَّة في إطار هٰذا الموضوع. وكانت أسباب الهجرة مما وقف عنده في بحثه في هٰذه المشكلة(٥٩).

انطلق **فرجاني** من «أنَّ دراسة أسباب هجرة الكفاءات هي الأساس المنطقي لاقتراح المبادئ والسِّياسات التي يمكن أن تتخذ للحدِّ منها أَو لمواجهة الآثار السَّلبيَّة المترتِّبة عليها». وهٰذا كلام ينطوي علىٰ كثير من الصَّواب. ثُمَّ يُبيِّنُ أنَّ تفسيرات ظاهرة هجرة الكفاءات تتراوح بَيْنَ مدرستين: الأولىٰ تعالج الظاهرة من منظور فرديٍّ في الأساس. والثَّانية تتناول هجرة الكفاءات من جهة كونها ظاهرةً دوليَّةً تمتدُّ جذورها في نظام الاقتصاد السِّياسي الذي يسيطر علىٰ العالم.

أولاً: المدرسة الفردية

تعالج هٰذه المدرسة، كما يقول **فرجاني**، ظاهرة هجرة الكفاءات من منظورٍ فرديٍّ، مؤدَّاه أنَّ الكفاءات أفراد متميِّزون يسعون لتحقيق ذاتهم فكريًّا ومهنيًّا، ولضمان ظروف عملٍ ومعيشةٍ مريحةٍ تكفل لهم حريَّة التَّفكير وإمكانيَّة

(٥٩) . انظر تفاصيل هذه الأسباب في بحث الدكتور نادر فرجاني: **هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية تطوير التَّعليم العالي**. مركز المشكاة للبحث. مصر. حزيران/ يونيو ٢٠٠٠م.

الإبداع. ولما كان هٰذا السَّعي يحبط في أغلب الأحيان في البلدان المتخلِّفة، فإنَّ هٰذه الكفاءات تجد لها مكاناً، إن استطاعت، في بلدان الغرب المصنعة. ومن العوامل المهمَّة التي تدعو الكفاءات للهجرة من البلدان المتخلِّفة وَفْقَ هٰذه المدرسة هي:

١ ـ انخفاض مستوىٰ الدخل وتدنِّي مستوىٰ المعيشة.

٢ ـ الإحباط العلمي والمهني العائدان لعدم توافر إمكانات البحث (الكتب والمجلات العلميَّة، والمعدات والأجهزة، والوقت اللازم للبحث، والبنيان المؤسسي للبحث العلمي، والاتصال العلمي الدُّولي).

٣ ـ غياب حريَّة الفكر والرأي والأسلوب العلمي لإدارة المجتمع.

وبعد وقفة انتقاديَّة تقزيميَّة لآراء أهل هٰذه المدرسة يتابع **فرجاني** في سياق التَّقليل من قيمة هٰذه المدرسة فيقول: «وفي أحيانٍ قليلةٍ يصل أنصار هٰذه المدرسة (الفرديَّة) إلىٰ أن هناك عوامل تساعد علىٰ زيادة هجرة الكفاءات من بلدان العالم الثالث مثل:

٤ ـ ضعف انتماء الكفاءات المهاجرة لحضارة بلد الأصل في مواجهة تأثير الحضارة الغربيَّة السَّائدة، أو قرب حضارة بلد الأصل للحضارة الغربيَّة.

٥ ـ ضعف علاقات الانتماء إلىٰ بلد الأصل سواء علىٰ المستوىٰ المجتمعي، كما يظهر في حالة الكفاءات التي تنتمي إلىٰ أقليات مضطهدة مثلاً، أو علىٰ المستوىٰ العائليِّ والشَّخصيِّ، مما يتعلَّق بمدىٰ تماسك العلاقات الاجتماعيَّة».

الدكتور **فرجاني** فيما يبدو واضحاً ينظر إلىٰ هٰذه المدرسة نظرةً ناقدةً رافضةً، ولذلك قلَّل من قيمة الأسباب التي قدَّمتها علىٰ صوابيتها، ولٰكنَّهُ لم ير فيها إلا ما أراد أن يراه من قصور لا تفتقر إليه أيُّ مدرسة أو رأي في أسباب

الهجرة. ولذلك بعد التقديم بنقد هٰذه المدرسة يختم بقوله الداحض لها: «ونحن نرىٰ في هٰذه المقولات بذور شكٍّ في التَّفسيرات الأساسيَّة لهٰذه المدرسة، مما ينقلنا، بصورةٍ طبيعيَّةٍ إلىٰ المدرسة الثانية».

ثانياً: مدرسة الاقتصاد السِّياسي

أما المدرسة الثانية فتتناول هجرة الكفاءات من جهة أنَّهَا ظاهرة دوليَّة تمتدُّ جذورها عميقة في نظام الاقتصاد السِّياسي الذي يسيطر علىٰ العالم. وعليه، فإنَّ تفسير الظَّاهرة يكمن في الخصائص الجوهريَّة للنظام الاقتصادي العالمي خاصة تلك المتعلقة بقيام سوق دوليَّة للكفاءات.

ترىٰ هٰذه المدرسة أن السبب الجوهري لهجرة الكفاءات هو الارتباط العضوي لبلدان العالم الثالث بمركز النظام الرأسمالي العالمي في دول الغرب المصنعة في علاقة تخلف وتبعيَّة ذات أبعاد سياسيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة. ويقوم هٰذا الارتباط العضوي، فيما يتعلق بهجرة الكفاءات، علىٰ ثلاث دعائم أساسيَّة:

١ . سوق دوليَّة للكفاءات هي امتداد طبيعي، يحمل معه مزايا فرديَّة ضخمة، لسوق العمل ببلدان الأصل.

٢ . خلقيَّة المنافسة الفرديَّة في الإطار الرأسمالي المشوهة السائدة ببلدان العالم الثالث، والتي تدفع الفرد للسعي لتحقيق أعلىٰ مستوىٰ من الرفاه الخاص، مقاساً ماديًّا بصرف النَّظر عن الرفاه الجمعي.

٣ . نسق تعليم وتأهيل في بلدان العالم الثالث الذي يمتدُّ إلىٰ خارجها من خلال تقليد أنساق التَّعليم العالي لنظائرها في البلدان الغربيَّة المصنعة وعبر الابتعاث للدِّراسة في الخارج، وينتج كفاءات من النوعيَّة المطلوبة للسُّوق الدُّولي بدلاً من تلك الَّتي تتواءم مع الاحتياجات الأساسيَّة لبلدان الأصل.

ويتابع **فرجاني** مضيفاً فكرة مهمة هنا قائلاً: ولا يفوتنا هنا الإشارة إلىٰ أن هناك عمليَّة إغراء وسرقة متعمدة من قبل المراكز النشطة في الغرب الرأسمالي لاختطاف خيرة كفاءات بلدان العالم الثالث الَّتي يمكن أن تندمج بسهولةٍ في النشاط العلميِّ والمهنيِّ القائم في الدُّول الغربيَّة المصنعة أو خارجها في خدمة عابرات الجنسيات. ولهٰذه العمليَّة، في واقع الأمر نشاطٌ طبيعيٌّ في ظلِّ التَّنظيم الرَّأسمالي للنشاط الاجتماعي- الاقتصادي للعالم في ظلِّ العولمة.

يضيف **فرجاني** هنا مسألة غريبة نوعاً ما تستحق وقفة مناقشة هي ما سمَّاه اغتراب نظام التَّعليم عن احتياجات المجتمع المحليِّ في بلدان الأصل، والتزامه في الوقت نفسه بالحداثة الغربيَّة، بمعنىٰ أنَّهُ ينتج بالأساس مهاراتٍ للسوق الدَّوليَّة، ومحورها البلدان الغربيَّة المصنعة ومؤسساتها البحثيَّة والاقتصاديَّة. أي، بعبارة أخرى، يتيح شروط التحاق كفاءات البلدان المتخلفة بهٰذه السوق.

لن نناقش هٰذه الفكرة هنا ورُبَّما نناقشها في مكان آخر، ولٰكنَّهَا في حقيقة الأمر مسألة غير دقيقة فمن الصعوبة بمكان ومن الخطأ بمكان الذهاب مع مثل هٰذا التفسير.

ويتساءل **الفرجاني** في ختام مناقشة المدرستين قائلاً: والآن وبعد أن عرضنا لكل من المدرستين الأساسيتين في تفسير هجرة الكفاءات، فأيُّهما نفضل؟ نحن ننحاز للثانية، ويعود ذٰلكَ لسببين:

الأول: أنَّهَا تقدِّم تفسيراً أكمل وأعمق، بينما تركز المدرسة الفرديَّة علىٰ بعض جوانب لا تكفي لتفسير الظاهرة وخاصة ظاهرة عدم هجرة أو عودة بعض الكفاءات المؤهلة بجدارة فنيًّا للالتحاق بالسوق الدَّوليَّة للمهارات.

والثاني: أنَّهُ بسبب قصور المدرسة الفرديَّة عن تقديم تفسير كامل لهجرة الكفاءات، فإن الحلول المقترحة في نطاقها تكون هامشيَّة. وعلىٰ العكس من ذَلكَ، تقدم مدرسة الاقتصاد السِّياسي حلولاً وإن كانت صعبة، إلا أنها جذريَّة. وليس معنىٰ هٰذا التفضيل أننا نميل إلىٰ إهمال النواحي الفرديَّة. والتي تبرزها المدرسة الأولى، في معالجة هجرة الكفاءات.

محمد رياض وأسباب الهجرة

في إطار مناقشته العامة لهجرة الكفاءات ناقش **محمد رياض**[٦٠] أسباب الهجرة لاقتراح الحلول في إطار واسع يتجاوز العوامل الشَّخصيَّة، ذَلكَ أنَّ قرار الهجرة، كما يقول، لا يتخذ علىٰ المستوىٰ الشَّخصي كاختيار حر ينسجم مع حق الإنسان في الهجرة، أو العمل حيثما شاء، لٰكنَّ هجرة الكفاءات تمثل إحدىٰ افرازات البنية الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والتكنولوجيَّة. وتتشابك العوامل لتجتمع في سعي ملح للهجرة، وهي بذَلكَ مؤشِّر لإخفاق خطط تنمية الإنسان اقتصاديًّا واجتماعيًّا وعلامة استسلام أمام عوامل تهميش الإنسان صانع التَّنمية وهدفها.

فالتَّجربة التي يعيشها المثقف في الدُّول الإسلاميَّة أو في البلدان النامية تشتمل علىٰ عنصر الغربة والضياع في شتىٰ المجالات، تلك الغربة التي يعيشها في كلتا الحالتين سواء استمر في وطنه إذ يكون حاملاً لمعرفة لا تكتمل بها شخصيَّته نتيجةً لمميزات مجتمعه أو هاجر إليه، وهنا يستوعب من طرف المجتمع المهيمن الذي يحتوي علىٰ ذاتيته مما يؤدِّي إلىٰ الغبن الثقافي.

---

(٦٠) . محمد رياض: **الهجرة العلمية.. واستنزاف الكفاءات** . مجلة النبأ . العدد٥٧ . صفر ١٤٢٢هـ . أيار ٢٠٠١م.

بعد أن يناقش **رياض** الاغتراب بوصفه حالة هيكليَّة متولِّدة من خصائص المجتمع الإسلامي والنامي وما تؤدِّي إليه من ردود أفعالٍ سلبيَّةٍ خطيرةٍ علىٰ المجتمع والوطن علىٰ رأسها فيما يتعلَّق بهجرة الكفاءات حالة العجز وانتفاء القدرة علىٰ العمل والتغيير، يمهد للحديث في أسباب هجرة الكفاءات قائلاً:

لا شكَّ في أن الكشف عن الأبعاد المختلفة لظاهرة هجرة الكفاءات من البلدان الإسلاميَّة والنامية لأمر علىٰ جانب من الأهميَّة لأكثر من سبب. إذ يتخرج بضعة ملايين من مواطني الدُّول الإسلاميَّة والنَّامية من الجامعات ومن ثَمَّ فإن المشكلات التي نواجهها حالياً في استيعاب الكفاءات العالية وتوزيعها واستخدامها، مشكلات محوريَّة بالنسبة لرسم سياسات أكثر فعالية للقوىٰ البشريَّة والتَّعليم. وسوف تستمر البلدان التي تفتقر في الوقت الحالي للكفاءات العالية في استخدام هٰذه الكفاءات من البلدان التي لديها فائض منها.

ويتابع قائلاً: ومن هنا فمن الضَّروري أن تناقش ظاهرة الهجرة إلىٰ الخارج في إطار عامٍّ وشاملٍ. إلا أنَّهُ من الصَّعب إعطاء الهجرة الدَّوليَّة حقَّها من الدِّراسة من دون الإشارة إلىٰ مظاهر الخلل الاجتماعي والثقافي والمهني والتَّعليمي، ولولا أن بعض البلدان قد عمل علىٰ تسهيل وتشجيع هجرة فئات معينة من الكفاءات لظلت هٰذه الهجرة محدودة النطاق ولهٰذه الظاهرة جانبان وهما:

أولاً: العوامل التي تدفع الكفاءات إلىٰ مغادرة بلدانها

تعاني بلداننا من قضايا التَّخلف وانعدام التَّخطيطِ في هٰذا المجال للاستفادة من الكوادر البشريَّة ومن وجهة نظرٍ متخصِّصةٍ فهناك نواقص كامنةٌ تشوب النِّظام الصحيَّ والفنيَّ أو غيرهما في تلك البلدان ومنها: انعدام التخطيط

الواقعيِّ في مجال القوىٰ البشريَّة وفي ميدان التخطيط التربويِّ أو الفشل في إيجاد التكامل والتنسيق بَيْنَ تلك العمليات الأمر الذي يؤدِّي إلىٰ تطورٍ غير متناسقٍ بَيْنَ الأنظمة المختلفة أو في داخل كلِّ نظام...

ومن ثمَّ كما يرىٰ فإنَّ هجرة الكفاءات هي بالضرورة نتيجة ترتبت علىٰ وضع اللامساواة الحاصل في التنمية بَيْنَ الدُّول وبَيْنَ المناطق والفئات الاجتماعيَّة داخل كلِّ دولة وإذا ما انطلقنا من مقولة أن هجرة القوىٰ البشريَّة العاملة في أي ميدان هي معظمها نتيجة للسياسات أو الخطط غير الواقعيَّة المطبقة في المجالات والأنظمة المختلفة، فإنَّ عوامل الدَّفع تشكِّل الوجه الأساسي للمشكلة ويمكننا القول إنَّ هناك عدداً من العوامل الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والإداريَّة والثقافيَّة والعلميَّة تقف وراء ظاهرة هجرة الكفاءات. وبإيجاز يمكننا أن نذكر عوامل الدفع هٰذه وهي:

١ – عدم الاستقرار السِّياسي حيث تعاني من هٰذه الظاهرة معظم البلدان الإسلاميَّة والنامية.

٢ – الحواجز الإقليميَّة بَيْنَ هٰذه البلدان (الإسلاميَّة) وغياب التكامل الهيكلي وتنافر برامج وخطط هٰذه البلدان وكذٰلكَ البلدان النامية.

٣ – عدم توفر التَّسهيلات العلميَّة وعدم وجود المناخ الملائم لإمكانية البحث العلمي.

٤ – انخفاض المستوىٰ المعيشي.

٥ – السِّياسة التَّعليميَّة فإذا عملت هٰذه السِّياسة علىٰ زيادة الخريجين من الجامعات بما لا يتَّفق مع احتياجات التَّنمية كان ذٰلكَ دافعاً لهجرة كفاءات واسعة.

٦ – عدم التوافق والمطابقة ما بَيْنَ التأهيل والإعداد والتَّدريب والحياة العمليَّة ومن ذَلكَ عدم وضع الشَّخص المناسب في المكان المناسب.

ثانياً: الحوافز التي تضعها الدُّول المتقدمة لجذب الكفاءات

بعد تمهيد غير طويل يتساءل **رياض:** ما هي المزايا والمشجعات التي تتوافر في البلدان المتقدِّمة التي تجذب الكفاءات وتجعلها تترك بلدانها؟ ويجيب قائلاً: يمكن أن نجيب علىٰ هٰذا التساؤل بالنقاط التالية وبإيجاز كما يلي:

١ – المحيط العلمي الأكثر تقدماً الذي يحفز علىٰ مواصلة البحث والتجريب وزيادة الخبرة حيث إن ظروف العمل في البلدان المتقدمة وسيلة لتحقيق الطموحات العلميَّة بما توفره من فرص البحث العلمي ووسائله.

٢ – اعتماد الترقية والترفيع بالدرجة الأولىٰ علىٰ البحث المنتج والكفاءة الفرديَّة. إن الصعوبات التي تواجه الكفاءات في بلدانها في دخول مراكز المسؤوليَّة أو علىٰ الأقل المراكز التي تتلاءم مع مستوىٰ إعدادها يخلق لديها شعوراً بالكبت يتجلىٰ سواء في اعتراضها علىٰ الأجور أو بالاشمئزاز وإهمال العمل والمؤسسات التي تعمل فيها، وفي هجرة عدد كبير منها في نهاية المطاف إلىٰ الخارج.

٣ – توافر الحريَّة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة في البلدان المتقدِّمة الغربيَّة أكثر منها في بلدان العالم النامي.

٤ – المستوىٰ المعاشي الجيِّد الذي يحقِّقه الفرد والضَّمانات الاجتماعيَّة وخدماتها ووسائل الاستهلاك والرفاه المادي وتسهيلاته.

إن الاعتبارات العائدة إلىٰ انخفاض الأجور لا تشكل عاملاً حاسماً علىٰ المستوىٰ الاقتصادي بل إنَّهَا تدخل في المعادلة من خلال عمليات اقتصاديَّة واجتماعيَّة أكثر تعقيداً.

ونرىٰ أنَّ عوامل الجذب مختلفة فمنها السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة وغيرها. لٰكنَّ العوامل الاقتصاديَّة تحتل مكانتها المؤثِّرة في الكفاءات الاقتصاديَّة والعلميَّة، والأشخاص الأكثر تأثراً بهٰذا العامل هم الأشخاص الأفضل إعداداً والأكثر كفاءة لتسيير أجهزة الإنتاج والتَّعليم والتدريب في البلاد.

خضير النداوي وأسباب الهجرة

الباحث **خضير عباس النداوي** توقف عند أسباب هجرة الكفاءات في من جانبين جانب عوام الدفع وجانب عوامل الجذب، وهٰذا ما سنبينه فيما يلي(٦١):

أولاً: العوامل الدافعة لهجرة العقول العربية

بهدف معرفة أسباب هٰذه الظاهرة، وتحليل الدوافع الأساسيَّة للعناصر المهاجرة من العلماء العرب، بصورة علميَّة وموضوعيَّة تبرز الحاجة إلىٰ وجود (دراسة ميدانيَّة) تعتمد الأسلوب العلمي المبرمج لدراسة هٰذه الظاهرة الخطيرة، ولصعوبة القيام بمثل هٰذه الدراسة، لأسباب موضوعيَّةٍ وذاتيَّةٍ، متداخلةٍ ومتشعِّبةٍ، منها ما يتعلَّق بالمهاجرين أنفسهم ومنها ما يرتبط بالدُّول التي استقروا فيها. إلا أن هٰذا المبرر، لا يعني كواقع حال، عدم معرفة الأسباب التي تدفع العلماء إلىٰ الهجرة، إذ يمكن تحديد أكثر هٰذه الدوافع أهميَّة بالآتي:

١. ضعف المردود المادي لأصحاب الكفاءات العلميَّة، وانخفاض المستوىٰ المعاشي لهم وعدم توفير الظروف الماديَّة والاجتماعيَّة التي تؤمن المستوىٰ المناسب لهم للعيش في المجتمعات العربيَّة.

(٦١) . خضير عباس النداوي: **هجرة العقول العربية** . صحيفة كتابات . ١٠ حزيران/جون ٢٠٠٥م.

٢. وجود بعض القوانين والتَّشريعات والتَّعهدات والكفالات الماليَّة التي تربك أصحاب الخبرات، فضلا عن البيروقراطيَّة والفساد الإداري وتضييق الحريات علىٰ العقول العلميَّة المبدعة، والتي تبدأ من دخولهم البوابات الحدوديَّة لدولهم وصولاً لأصغر موظف استعلامات في الدوائر الرسميَّة، مما يولِّد لديهم ما يسمىٰ بالشُّعور بالغبن.

٣. عدم الاستقرار السِّياسي أو الاجتماعي والإشكاليات التي تعتري بعض تجارب الديمقراطيَّة العربيَّة، والتي تؤدِّي في بعض الأحيان إلىٰ شعور بعض أصحاب الخبرات بالغربة في أوطانهم، أو تضطرهم إلىٰ الهجرة سعياً وراء ظروف أكثر حريَّة وأكثر استقراراً.

٤. سفر أعداد من الطلاب إلىٰ الخارج، إمَّا لأنَّهُم موهوبون، بشكل غير اعتيادي ويمكنهم الحصول علىٰ منحٍ دراسيَّةٍ أو لأنَّهُم من عائلاتٍ غنيَّةٍ، وبالنتيجة يندفعون إلىٰ التَّواؤم مع أسلوب الحياة الأجنبيَّة وطرقها حَتَّىٰ يستقروا في الدُّول التي درسوا فيها، إذ إن فرصة (السفر) هٰذه وفَّرت لهٰؤلاء الطلاب الاطلاع علىٰ تجارب المجتمعات الأُخْرَىٰ والتأثر بما موجود فيها من وسائل العيش، إضافة إلىٰ توافر الجو العلمي المناسب بالمقارنة بَيْنَ الحالة الموجودة في الدُّول العربيَّة وبَيْنَ ما هو موجودٌ في الدُّول المتقدمة.

٥. إنَّ تكيف كثيرٍ من طالبي العلم مع الحياة في الدُّول الأجنبيَّة، ومن ثَمَّ زواجهم من الأجنبيات، وبالتالي إنجابهم للأولاد، مما يضع المهاجر أمام الأمر الواقع فيما بعد، إذ يصعب عليه ترك زوجته وأولاده لاعتبارات عديدة منها أن زوجته وأولاده قد لا يستطيعون العيش في بلده الأصلي، وهم غير مستعدين لمصاحبته، كما أنَّ كثيراً من التَّشريعات التي تضع إمامه العراقيل في حالة رغبته

العودة إلىٰ البلد الأصلي، وعلىٰ سبيل المثال، عدم تعيين المواطنين المتزوجين بأجنبيات بمناصب عاليةٍ في بعض الدُّول العربيَّة. وقد لا يستطيع توفير امتيازات لعائلته كتلك التي كانت متوافرة لديه سابقاً، ومع تقادم الأيام تنتهي لدىٰ المهاجر فكرة العودة إلىٰ الوطن الأصلي.

٦. ويرىٰ بعض الباحثين، بأنَّ من الأسباب الرئيسة، في بعض الدُّول العربيَّة لهجرة العقول العربيَّة، هو حالة الركود في تطور القوىٰ المنتجة والذي وجد تعبيراً له في بقاء وسائل الإنتاج في الصِّناعة والزِّراعة وصيد الأسماك والرَّعي وغيرها من دون تغيير، وحرمان سكان المجتمع من أبسط الخدمات الإنسانيَّة، كتوفير مياه الشرب والكهرباء والرعاية الصحيَّة، وبرزت هٰذه الحالة في الدُّول العربيَّة الفقيرة (غير النفطيَّة) علىٰ نحوٍ خاصة.

٧. يعاني بعض العلماء من انعدام وجود اختصاص حسب مؤهلاتهم كعلماء الذرة وصناعات الصواريخ والفضاء، ناهيك عن مشكلات عدم تقدير العلم والعلماء في بعض الدُّول وما أصدق قول **روبرت مكنمارا** مديرا لبنك الدولي السَّابق، والذي قال في هٰذا الصدد: «إنَّ العقول تشبه القلوب بصفةٍ عامَّةٍ في أنَّهَا تذهب إلىٰ حيث تلقىٰ التَّقدير»، وكذٰلكَ العقبات الناتجة من عدم ثقة بعض الدُّول العربيَّة، لما يحملون من أفكار جديدة، وتخلف النُّظم التربويَّة والبطالة العلميَّة التي يواجهونها، ومشكلات عدم معادلة الشهادات.

٨. صعوبة أو انعدام القدرة علىٰ استيعاب أصحاب الكفاءات الذين يجدون أنفسهم إمَّا عاطلين عن العمل أو لا يجدون عملاً يناسب اختصاصاتهم العلميَّة في بلدانهم وعدم توفير التَّسهيلات المناسبة وعدم وجود المناخ الملائم

لإمكانيَّة البحث العلمي. ولعَلَّه من الطَّريف بمكان أن نذكر في هٰذا المجال نادرة قديمة خلاصتها أنَّ فيلسوفاً اقترف ذنباً، فعلم به **سليمان الحكيم** فطلبه للمحاكمة، وبعد نقاش، لفظ حكمه قائلاً «سنحكم عليك حكماً أقوىٰ من الموت». فأطرق الفيلسوف يتملكه العجب وسأل ما هو؟؟ فأجاب **الحكيم** «حكمنا عليك أن تقيم بَيْنَ قوم يجهلون قدرك».

حسب **خضير** فإنَّ هٰذه الدوافع تشكل، غالبيَّة الأسباب التي تؤدِّي إلىٰ هجرة العقول العربيَّة، ولا نستبعد وجود دوافع أُخْرَىٰ كحبِّ المغامرة، والعقد الشَّخصيَّة، أو غيرها إلا أنَّهَا لا تأخذ صفة الشموليَّة وهي في الحالات كلها دوافع فرديَّة، ولا تحتل الأهميَّة بحيث تضاف كدوافع إلىٰ مجمل الدَّوافع السَّابقة للهجرة.

ثانياً: العوامل الجاذبة لهجرة العقول العربية

١. علىٰ رغم وقوف الدُّول الغربيَّة ضدَّ هجرة مواطني الدُّول النامية إليها إلاَّ أنَّهَا تتبنىٰ سياساتٍ مخططةً ومدروسةً بدقَّةٍ لاجتذاب أصحاب الكفاءات والمهارات الخاصَّة من هٰذه الدول، وعلىٰ سبيل المثال، أصدر الكونجرس الأميركي قراراً بزيادة تصريحات الحصول علىٰ بطاقة الإقامة للخريجين الأجانب في مجالات التكنولوجيا المتطورة من (٩٠) ألفا في السنة إلىٰ (١٥٠) ألف ثُمَّ إلىٰ (٢١٠) ألف خلال العام الماضي.

٢. تهيئ الدُّول الرأسماليَّة المتقدِّمة المحيط العلمي الأكثر تقدُّماً والذي يحفز علىٰ مواصلة البحث والتطوير وزيادة الخبرات إذ إنَّ ظروف العمل في البلدان المتقدِّمة وسيلة لتحقيق الطموحات العلميَّة بما توفره من فرص للبحث العلمي ووسائله المختلفة.

٣. توفير الثَّروات الماديَّة الضَّخمة التي تمكنها من تمويل فرص عملٍ مهمَّةٍ ومجزيةٍ ماديًّا وتشكِّل إغراءً قويًّا للعقول العربيَّة بما توفره من مستوًىٰ معاشيٍّ ممتازٍ وضماناتٍ اجتماعيَّةٍ وخدماتها العديدة، فضلاً عن توافر كلِّ وسائل الاستهلاك والرفاه المادي وتسهيلاته.

٤. انخفاض نسبة العقول العلميَّة في الدُّول المتقدِّمة صناعيًّا بسبب انخفاض نسب الولادة وعدد المتخصصين في الفروع العلميَّة والتقنيَّة مما يجعلها تبحث عن عقول وكفاءات أجنبيَّة وتقدم لها الإغراءات الماديَّة لملئ هٰذا الفراغ، وبخاصَّةٍ في السَّنوات الأخيرة، حيث وصلت غالبيَّة الدُّول المتقدِّمة إلىٰ مستوىٰ دون النمو السكاني الصفري بينما يسير هٰذا المعدل في دول العالم الثالث، ومنها الدُّول العربيَّة في الاتجاه المعاكس.

الاتحاد البرلماني العربي وأسباب الهجرة

الاتحاد البرلماني العربي خاض موضوع هجرة الكفاءات العربيَّة ونزيف العقل العربي في مذكرة خاصَّةٍ[٦٢]، وتناول فيما تناول في هٰذه المذكرة الأسباب الأساسيَّة لهجرة الأدمغة العربيَّة. وجاء في هٰذه المذكرة في شأن الأسباب:

إنَّ جميع الدراسات التي تناولت موضوع هجرة الأدمغة في الوطن العربي تجمع علىٰ أنَّ هٰذه الهجرة هي نتيجة لتشابك جملة من الأسباب و العوامل السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والشَّخصيَّة. ويصنف الباحثون هٰذه الأسباب في نوعين هما:

(٦٢) . الاتحاد البرلماني العربي: مذكرة الأمانة العامة **حول جوهر هجرة الأدمغة العربية** . المؤتمر العاشر للاتحاد . الخرطوم ٩ – ١١ / ٢ / ٢٠٠٢م . البند ٧ / ١٠.

أولاً: الأسباب الأساسية الدافعة إلىٰ الهجرة

١ . ضعف أو انعدام القدرة علىٰ استيعاب أصحاب الكفاءات الذين يجدون أنفسهم إما عاطلين عن العمل أو لا يجدون عملاً يناسب اختصاصاتهم في بلدانهم.

٢ . ضعف المردود المادي لأصحاب الكفاءات.

٣ . انعدام التَّوازن في النِّظام التَّعليمي، أو فقدان الارتباط بين أنظمة التَّعليم ومشاريع التنمية.

٤ . عدم الاستقرار السِّياسي أو الاجتماعي والإشكالات التي تعتري التَّجارب الديمقراطيَّة العربيَّة والتي تؤدِّي في بعض الأحيان إلىٰ شعور بعض أصحاب الخبرات بالغربة في أوطانهم، أو تضطرهم إلىٰ الهجرة سعياً وراء ظروف أكثر حريَّة وأكثر استقراراً.

٥ . إلىٰ جانب هٰذه الأسباب الأساسيَّة يمكن أن توجد عوامل أُخْرَىٰ موضوعيَّة أو ذاتيَّة تدفع أصحاب الخبرات إلىٰ الهجرة كالبيروقراطيَّة الإداريَّة وأنظمة الخدمة المدنيَّة وبعض التَّشريعات والتَّعهدات والكفالات الماليَّة التي تربك أصحاب الخبرات، إلىٰ جانب أسباب عائليَّة أو شخصيَّة فرديَّة.

ثانياً: الأسباب الجاذبة لهجرة الأدمغة

١ . الرِّيادة العلميَّة والتِّكنولوجيَّة للبلدان الجاذبة ومناخ الاستقرار والتَّقدُّم الذي تتمتع به هٰذه البلدان.

٢ . توافر الثَّروات الماديَّة الضَّخمة التي تمكِّنها من توفير فرص عملٍ مهمَّةٍ ومجزية مادياً تشكل إغراءً قوياً للاختصاصين.

٣ . إتاحة الفرص لأصحاب الخبرات في مجال البحث العلمي والتجارب التي تثبت كفاءاتهم وتطورها من جهة أُخْرَىٰ، وتفتح أمامهم آفاقاً جديدة أوسع وأكثر عطاءً، من جهة أُخْرَىٰ.

هٰذه هي مفردات المذكرة من دون اختصار، ومن الطَّبيعي أن تكون كذٰلكَ فهي مذكرة وليست بحثاً، وهي نقلُ مكثف ومختصر لمعطيات الأبحاث التي تناولت هجرة الكفاءات العربيَّة.

خاتمة

هَدَفْنا من هٰذا الفصل في استعراض وجهات النظر في أسباب هجرة الكفاءات إلىٰ الكشف عن حقيقة واحدة أساسية هي أنَّها مهما تنوعت وجهات النظر فإنَّهَا ستظلُّ في حقيقة الأمر تدور في فلك الأسباب الحقيقية لهجرة الكفاءات المتمثلة ببساطة في عاملين محوريين عامل داخلي وعامل خارجي.

العا لم الدَّاخلي هو عامل الطَّرد المحليِّ المتمثِّل بمجموعةٍ من الأسباب قد يصعب حصرها أو تقييدها، وهي من وجهة نظرنا أسباب عامَّة وخاصَّة في آن معا. عامة من جهة شيوعها وانتشارها وشمولها، وهاصَّةٌ من جهة أن لكلِّ كفاءة مهاجرة سببها الخاص أو أسبابها الخاصَّة. هجرة الكفاءات بسبب عامل الطرد أو الدفع الداخلي ليست واجبة الانطباق علىٰ الكفاءات المهاجرة كلها بالضرورة، قد تنطبق كلها علىٰ كفاءة وهٰذا استثناء، وقد يكون سبب واحد من الأسباب وراء الهجرة.

أمَّا العامل الخارجي فهو عامل الجذب الموجود بطبيعة الحال أو الذي تمارسه الدول المتقدمة بالإرادة والقرار من أجل اجتذاب أو سرقة الكفاءات العلمية في العالم الشرقي خاصَّة والعالم الثالث عامَّة.

وما بَيْنَ هٰذه العاملين قراءات وتفسيرات وراء السُّطور وأمامها وتحتها، وعمق تحليلي، وسطحية تحليلية، وتقصير، وتطويل، وزيادة، ونقص، وغير ذٰلكَ كثير من كلِّ ما يمكن أن يتوقع بسبب تباين وضعيات الباحثين وانتماءاتهم وأيديولوجياتهم وأغراضهم وأهدافهم.

وبعد الحديث عن دراسات الآخرين في تناول أسباب هجرة الكفاءات سنخصِّص الفصل القادم لرؤيتنا في أسباب هجرة الكفاءات، وهو الأمر الذي كان سابقاً علىٰ هٰذا الفصل الذي لم يكن موجوداً ولا مخططاً له في الأصل، لولا أننا رأينا تخصيص فصل لهٰذا الشَّأن ونحن نعد الكتاب للطباعة.

الفصل الخامس

عوامل الطرد الداخلية

عندما بدأت هٰذا البحث في مطالع عام ٢٠٠٠م طلبت من الأمين العام المساعد للحزب في سوريا بوصفة رئيس لجنة/ جمعيَّة المغتربين العرب بعض المساعدة في الحصول علىٰ ما توافر لديهم من إحصاءاتٍ ومعلوماتٍ لاستكمال بحثي وإتمامه فوافقني وأحالني إلىٰ الموظف المختص...

ذهبت إلىٰ هٰذا الموظف فماطلني وماطلني يوماً بعد يومٍ وموعداً بعد موعدٍ، وأخير جلسنا لأنر فيما لديهم من معطيات في هٰذا الموضوع، وكانت الإحصاءات وحسب هي ما يهمني، ولٰكنَّ هٰذا الموظَّف، الَّذي يفترض فيه أن يكون مجازاً، ولٰكن رُبَّما لا يحمل أكثر من الشَّهادة الإعداديَّة، راح يعطيني محاضرات في أصول البحث، وأخلاق الباحثين، والوطنيَّة، والقوميَّة... فاعتذرت علىٰ أن نلتقي ثانيةً لانشغالي، علىٰ أمل أن يركن ويهدأ وندخل في صلب الموضوع.

في الجلسة التَّالية تكرَّرت مأساةُ الجلسة الأولىٰ وراح يعيد ويزيد في المحاضرة والتَّنظير وبيض الوطنيَّات والقوميَّات... فاعتذرت ثانيةً علىٰ أن نلتقي ثانيةً لانشغالي علىٰ أمل أن يرجع إلىٰ عقله بطريقةٍ أو أُخْرَىٰ وندخل في صلب الموضوع... ولم يتغيَّر الأمر في الجلسة الثَّالثة فقاطعته وقلت له:

أريد الإحصاءات. هل ستعطيني الإحصاءات أم لن تعطيني إياها أم لا يوجد إحصاءات؟

عض لسانه من ارتباكه وتحمحم وتلعثم وعاد ليبدأ من جديدٍ محاضراته وتنظيراته.

قطعت الأمل عشت سبباً من أسباب هجرة الكفاءات. لم أكل أجهله بطبيعة الحال، ولٰكنِّي عشته عيشاً حيًّا. إذا كان موظفو العناية بالكفاءات المهاجرة بهٰذه العقليَّة فكيف سيكون الوطن بالمجمل؟ وبالأصل فيما تبين له أنَّهُ ليس لديهم أي إحصاءات، ولا أي مشروع عمل، ولا مخطَّط، ولا برنامج، يوجد فقط الانتهازيَّة وركوب هٰذا الموضوع من أجل السِّياحة والتنزه والسفر... مثل مختلف مشاريع الوطن ولجانه وجمعياته.

كلُّ من تحدث ويتحدَّث في هجرة الكفاءات لا يجدُ بدًّا من الكلام علىٰ أسبابها. ولٰكن إذا نظرنا في العناوين الكثيرة الَّتي طرحها الباحثون والصحافة فيما يتعلق بهجرة الكفاءات العربيَّة بالمطلق من قبيل: هجرة أم تهجير، نزيف الأدمغة وغير ذٰلكَ كثير... وجدنا أنَّنا أمام تضمينٍ يكاد يبدو صريحاً عن أحد أبرز أسباب الهجرة.

في الأصل كان هٰذا الفصل والتَّاليان ولم يكن الفصل السَّابق موجوداً. وكان هٰذا الفصل وتالياه في الأصل لرؤيتنا في أسباب هجرة الكفاءات، ولٰكن بعد اكتمال البحث تقريباً بدا لي أنَّهُ من الأفضل تخصيص فصل لآراء الباحثين في أسباب هجرة الكفاءات العربيَّة كما تناولها كل واحدٍ منهم علىٰ حدةٍ، مع الاختصار والتَّكثيف في عرض بحث من أطال في ذٰلكَ.

كان هدفنا في الأساس من الفصل السَّابق عرض وجهات النَّظر كما هي من أجل إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه في هٰذا الشَّأن والتَّمييز بَيْنَ وجهات النَّظر في البحث في أسباب هجرة الكفاءات، وكذٰلكَ كما أشرنا في خاتمته الكشف عن

حقيقة واحدة أساسيَّة هي أنَّها مهما تنوَّعت وجهات النَّظر فإنَّهَا ستظلُّ في حقيقة الأمر تدور في فلك الأسباب الحقيقيَّة لهجرة الكفاءات المتمثِّلة ببساطة في عاملين محوريين عامل داخلي وعامل خارجي.

العامل الدَّاخلي هو عامل الطَّرد المحلي المتمثِّل بمجموعةٍ من الأسباب قد يصعب حصرها أو تقييدها، وهي من وجهة نظرنا أسباب عامة خاصة في آن معاً. عامة من جهة شيوعها وانتشارها وشمولها، وخاصَّةٌ من جهة أنَّ لكلِّ كفاءةٍ مهاجرةٍ سببها الخاص أو أسبابها الخاصَّة. هجرة الكفاءات بسبب عامل الطَّرد أو الدَّفع الدَّاخلي ليست واجبة الانطباق علىٰ الكفاءات المهاجرة كلها بالضَّرورة، قد تنطبق كلُّها علىٰ كفاءة ولهٰذا استثناء، وقد يكون سببٌ واحدٌ من الأسباب وراء الهجرة. وقد رأت دراسة لمركز الخليج للدِّارسات الاستراتيجيَّة في عام ٢٠٠٣م «أنَّ المجتمعات العربيَّة أصبحت بيئاتٍ طاردةً للكفاءات العلميَّة العربيَّة وليست جاذبة أو حاضنة لهذه الكفاءات الأمر الَّذي أدى إلىٰ استفحال ظاهرة هجرة العقول والأدمغة العلميَّة العربيَّة إلىٰ الخارج خاصَّةً إلىٰ بلدان الغرب»(٦٣).

أمَّا العامل الخارجيُّ، وهو موضوع الفصل القادم، فهو عامل الجذب الموجود بطبيعة الحال أو الَّذي تمارسه الدُّول المتقدِّمة بالإرادة والقرار من أجل اجتذاب أو سرقة الكفاءات العلميَّة في العالم الشَّرقي خاصَّة والعالم الثالث عامَّة.

وما بَيْنَ هٰذه العاملين قراءاتٌ وتفسيراتٌ وراء السُّطور وأمامها وتحتها، وعمق تحليلي، وسطحيَّة تحليليَّة، وتقصير، وتطويل، وزيادة، ونقص، وغير ذٰلكَ

(٦٣) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . موقع أخبار الوطن . ٦/١٦/ ٢٠٠٦م.

كثير من كلِّ ما يمكن أن يتوقَّع بسبب تباين وضعيَّات الباحثين وانتماءاتهم وأيديولوجيَّاتهم وأغراضهم وأهدافهم.

لن نخرج عن هٰذا السِّياق في رؤيتنا لأسباب هجرة الكفاءات العربيَّة علىٰ العموم إلا من ناحية البناء والتَّنظيم، ولٰكنَّنا سنضيف عاملاً ثالثاً لم ينتبه إليه أحد من الباحثين وهو العامل التَّاريخي وهو من أخطر العوامل لأنَّهُ يتسلل إلىٰ العقليَّة المجتمعيَّة ويسبر أغوار بنية التَّفكير الَّتي جعلت وتجعل الكفاءات الشَّرقيَّة وحدها تهاجر وتبيع عبقريتَّها لأعداء الأمَّة أو خصومها فيما الغربيُّ لا يفعل ذٰلكَ مع تعرُّضه لأسباب هجرة الكفاءات كلِّها الَّتي يتعرض لها الشَّرقي، أي النَّبذ والطَّرد والدَّفع من الدَّاخل، والجذب من الخارج. وعلىٰ هٰذا الأساس نجد أنَّ أسباب الهجرة علىٰ ثلاثة ضروب: شد وحفز خارجي وله أسبابه. ودفع ونبذ داخلي وله أسبابه. وسبب تاريخي.

إن كانت تقوم بَيْنَ العوامل الدَّاخليَّة والخارجيَّة جدليَّة ما تجعل من المتعذَّر أو الصَّعب البت فيما إذا كانت الأسباب الدَّاخليَّة هي الأصل أم الأسباب الخارجيَّة هي أصل السبب في هجرة الكفاءات، فإنَّ المنطق يقتضي أنَّ العالم الدَّاخلي هو أصل السَّبب، وخاصَّة عند الشَّرقي الَّذي يتمتع أكثر من الغربي بتعلق بالوطن والمكان والقرابة.

المسألة الأساسيَّة الَّتي يجب أن ننتبه لها هنا هي أننا نتحدث عن مجتمعٍ متخلِّفٍ بكلِّ ما تحمله هٰذه الكلمة من خصائص ودلالات، فلو كان الشَّرق متطوِّراً أو متقدِّماً لما كانت هٰذه الظَّاهرة موجودةً أساساً. وهٰذا يعني أنَّ التَّخلُّف هو أبو الأسباب وأمها ورأسها وأرجلها وأيدها معاً. ومن ثمَّ فإنَّ الأسباب كلها الَّتي سنأتي عليها سيبدو واضحاً أنَّها صور التَّخلُّف وخصائصه بمعنىٰ أو آخر.

أولاً: الأخلاق الاجتماعية

تقف تحت باب الأخلاق الاجتماعيَّة مجموعةٌ من الأسباب لا سببٌ واحدٌ. من أبرزها الغيرة، وحب الظهور، والتَّحاسد، والتَّباغض، والتَّحاقد وما جرىٰ مجراها من أخلاق سلبيَّة أو سيئة تهيمن علىٰ المجتمع المتخلف خاصَّةً وخاصة في عموم الشَّرق. كل هٰذه الأخلاق أسباب في سوء تقدير الكفاءات والمبدعين وعدم تقديرهم ومحاربتهم وفرض غربة عليهم في بلادهم وأوطانهم وبَيْنَ ذويهم، وكل ذٰلكَ عوامل تحرض المتميزين والمبدعين علىٰ التَّمرد بطريقةٍ تعوض لهم بعضاً من تميزهم، وغالباً ما تكون الهجرة نتيجة أو سبيلاً لتحقيق هٰذا التَّعويض.

قلَّما انتبه الباحثون إلىٰ هٰذا السَّبب وهو في الحقيقة سببٌ لا يمكن نكرانه بحالٍ من الأحوال ولا يجوز إسقاطه ولا تجاهله أبداً، قد لا يكون وحده سبباً في الهجرة ولٰكنَّهُ يكون، ولٰكنَّهُ في الغالب بالتَّضافر مع العوامل والأسباب الأُخْرَىٰ يكون عاملاً محرضاً جدًّا علىٰ الهجرة.

من أشار من الباحثين والمتابعين إلىٰ هٰذا السَّبب فقد أشار إليه عرضاً لا جوهراً، ومن زاويةٍ أُخْرَىٰ مختلفة أحياناً اختلافاً كبيراً، منهم مثلاً الأستاذ الجامعي **زهير جبور** الَّذي تساءل فاضحاً هٰذه الحقيقة المرة قائلاً: «مرَّةً أُخْرَىٰ: ألا يشكل البحث عن تحسين الواقع المعاشي في أدنى مستوياته السَّبب الرئيس للتَّنافس المحموم علىٰ بعض المواقع الإداريَّة والسِّياسيَّة في جامعاتنا الأمر الَّذي يضعف الأداء التدريسي للأستاذ الجامعي ويجعله عاجزاً عن الانخراط في الهموم

الحقيقيَّة للجامعة ولتصبح الجامعة تربة خصبة لتفشي الكثير من الأمراض الَّتي تبعدها عن أداء دورها في إعداد الكوادر وتحقيق تنمية المجتمع»(٦٤).

ومثال آخر علىٰ ذٰلكَ نجده عند الدكتور **فواز أسعد** الَّذي قال: «هٰذه الطَّاقات الَّتي تتفجَّر في ذات الفرد تتحول إلىٰ عناصر فاعلةٍ في الإبداع والابتكار ومنها إلىٰ الشُّهرة والارتقاء في سلم الدرجات العلميَّة والمناصبيَّة... وهٰذه الظاهرة غير موجودةٍ في جامعاتنا بسبب علاقة الاستبعاد والإقصاء بَيْنَ المجموعات الَّتي تتخابط وتتضارب حسب مصالحها ما يقمع أي مبادرة فرديَّة أو جماعيَّة مؤسَّساتيَّة ويمنع في النِّهاية خلق بيئة صحيَّة لنشوء وارتقاء البحث العلمي»(٦٥).

ثانياً: سوء الإدارة

تقترن الإدارة بالتَّخطيط غالباً. ولٰكنَّ الإدارة شي والتخطيط شيء آخر وخاصَّةً هنا. يعني سوء الإدارة مما يعني تولي الإدارة أشخاص غير أهل ولا كفء للمناصب الَّتي يوضعون فيها بناء علىٰ فساد السُّلطة ذاتها وسوء إدارتها المقصود غالباً.

في مطلع عام ٢٠٠٢م في اجتماع وزراء الدُّول العربيَّة المعنيون بشؤون الهجرة والمغتربين بمقر الجامعة العربيَّة في القاهرة، «دعا الوزراء إلىٰ إقامة مركز عربي للاستفادة من الكفاءات العربيَّة العاملة بالخارج وتشجيع عمليات توطين العمالة

---

(٦٤) . الدكتور زهير إبراهيم جبور: **الأستاذ الجامعي بين بحثين؛ لقمة العيش والبحث العلمي** . صحيفة تشرين . دمشق . الاثنين ٢٤ كانون الأول ٢٠٠١م.

(٦٥) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. جريدة تشرين . دمشق . عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.

العربيَّة داخل الأقطار المختلفة»[٦٦]... وقد مضت نحو عشرين سنة علىٰ الدَّعوة ولم تجد من يلبيها من الَّذين تبنوها علىٰ الرَّغْمِ من إجماع الوزراء جميعهم ومعهم المدير العام لمنظمة العمل العربيَّة **أحمد لقمان** علىٰ ضرورة استقطاب الكفاءات ودعمها وتبنيها وجعل الهجرة عربيَّة عربيَّة وغير ذٰلكَ كثير.

هٰذا مثال بسيط والحقيقة مرَّة أكثر من ذٰلكَ بكثير، فمثل هٰذه الإدارة الَّتي تتجاوز الاستهتار واللامبالاة والعبثيَّة بطبيعة الحال، وتنسحب بطبيعتها من أعلى المستويات إلىٰ أدناها، تقوم علىٰ أساس حرمان المبدعين والمتميزين من فرصهم، وينتج عن ذٰلكَ بطبيعة الحال أيضاً محاربة المتميزين والمبدعين ومحاصرتهم وحرمانهم من حقوقهم ومنعهم من التَّميز والظهور والتَّضييق عليهم، لأنَّ بروزهم يسلِّط الضَّوء علىٰ غباء الإدارة وسوئها وتقصيرها...

ومع كل ما تمارسه إدارات جامعاتنا من إحباط وعرقلة للبحث العلمي ولنشاط الأساتذة المتميزين سواء داخل الجامعة أو خارجها في مؤتمرات أو شبهها لا تفتأ إدارات هٰذه الجامعات من رئيس الجامعة إلىٰ نوابه ثمَّ العمداء ونوابهم عن الحديث عن ضرورة البحث العلمي وأهميَّة البحث العلمي، ومع نهاية كل عام ترتفع وتيرة التَّهجم علىٰ الأساتذة واتِّهَامهم بالتَّقصير لأنَّ ميزانيَّة البحث العلميِّ لم يُنفَق منها إلا أقل القليل، وهٰذا أمره لا يجهله أستاذ جامعي في معظم الجامعات العربيَّة.

كل ذٰلكَ يؤدِّي بالضَّرورة إلىٰ تذمُّر المتميزين وضجرهم وتبرمهم التَّفكير في الهجرة واستغلال أي فرصة للهجرة، ذٰلكَ أنَّ الأنظمة في العالم العربي

---

(٦٦) . محمود جمعة: **وسط دعوات لتنظيم الهجرة وجعلها عربية عربية؛ مجلس وزاري عربي يبحث أوضاع المهاجرين والمغتربين** . الجزيرة نت .كانون الثاني ٢٠٠٢م.

والإسلامي لا تكتفي بحرق المبدعين والتضييق عليهم بل تضيف إلىٰ ذٰلكَ منعهم من الحركة بحريَّة وخاصة خارج البلاد بمزاعم لا طعم لها ولا لون ولٰكنَّ رائحتها واضحة.

ثالثاً: سوء التخطيط

سوء التَّخطيط ملازم لسوء الإدارة بالضَّرورة، ولٰكنَّ سوء التَّخطيط يرتفع من مستوىٰ الشَّركات والإدارات إلىٰ إدارة الدَّولة. سوء التَّخطيط أمرٌ منوطٌ بالسُّلطة أكثر مما هو منوط بالإدارات الصغرىٰ علىٰ مختلف المستويات.

سوء التَّخطيط مسألة يطول الكلام فيها لأنها تشمل مختلف مناحي الحياة العلميَّة والاقتصاديَّة والتَّقانيَّة والصِّناعيَّة والزِّراعيَّة وغيرها مما يصب كله في النتيجة في موضوع هدر الطَّاقات والكفاءات وعدم استثمارها وعدم تقديم الفرص لها وجعلها في حالة بطالة رسميَّة أو مقنعة. وفي هٰذا السياق إلىٰ حدٍّ كبير أشار برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة في إحصاءاته لعام ٢٠٠٤م «أنَّ ٥٤ في المئة من الأطباء و٢٦ في المئة من المهندسين و١٧ في المئة من أصحاب الشهادات العلميَّة العليا المتخرجين من الجامعات والمعاهد العربيَّة والإفريقيَّة يهاجرون إلىٰ الولايات المتحدة وكندا»(٦٧).

وفي سياق مماثل تساءل الدكتور **المهدي المنجرة** في محاضرة له في المغرب أواخر عام ٢٠٠٥م التساؤل الَّذي يجب أن يطرح كل عام لأنَّه أصلاً لا يجوز أن يطرح، يجب أن يكون أساس عمل الدَّولة وتخطيطها، قال: «إنَّ عدد الطلبة المغاربة خلال السنة الدراسيَّة ٢٠٠٥م/ ٢٠٠٦م يبلغ ٣٧٥ ألف طالبٍ،

(٦٧) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . إدريس ولد القابلة (تقديم وترجمة) . الحوار المتمدن – العدد ١٣٥٦ . ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٥م.

ما مآلهم بعد حصولهم علىٰ الشهادة الجامعيَّة؟ واعتبر هٰذا السؤال سؤالاً جوهريًّا ومركزيًّا. وتابع قائلاً: هناك ٢٧ في المئة من الحاصلين علىٰ الشهادات الجامعيَّة يعيشون تحت وطأة البطالة»[٦٨].

مما يعنيه سوء التَّخطيط أيضاً إيفاد الباحثين للتَّخصص في ميادين لا وجود لها وعندما يعودون لا تعمل الدَّولة علىٰ افتتاح مختبرات أو مصانع أو مراكز أبحاث تستفيد منهم، فيتم الزَّج بهم في ميادين أبعد ما تكون عن تخصُّصاتهم مما يولِّد لديهم النِّقمة والاشمئزاز والرَّغبة في الهجرة. ورُبَّما علىٰ هٰذا الأساس أو غيره ذكرت دراسة لمركز الخليج للدِّارسات الاستراتيجيَّة في عام ٢٠٠٣م «أنَّ ٤٥ بالمائة من الطلاب العرب الَّذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلىٰ بلدانهم وأن ٣٤ بالمائة من الأطباء الأكفاء في بريطانيا هم من العرب مضيفة أن هناك نحو ٧٥ بالمائة من الكفاءات العلميَّة العربيَّة مهاجرة بالفعل إلىٰ ثلاث دول تحديداً هي أمريكا وبريطانيا وكندا كما نقل موقع ميدل إيست أونلاين»[٦٩].

أيًّا كان الأساس الَّذي انبنت عليه هٰذه النتيجة لمركز الخليج فإن سوء التخطيط والإدارة وعبثيَّة الابتعاث وغوغائيته وعدم التخطيط له هي الَّتي تقف وراء عدم عودة هٰذه النسب من الموفدين إلىٰ الدُّول المتقدمة للتخصص في اختصاصات لا مكان لها في الواقع المحلي ولا يخطط لاستحداثها عند عودتهم أو العمل علىٰ مساعدتهم في العمل علىٰ تأسيسي مراكز الدراسات والبحوث وغيرها مما يتيح الاستفادة من تخصصاتهم العلميَّة الجديدة.

---

(٦٨) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . مصدر سابق.

(٦٩) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . مصدر سابق.

رابعاً: الافتقار إلى الإمكانات الكافية

ونحن نتحدث عن هجرة الكفاءات فمن المنطقي بمكان أننا نتحدث عن مجتمع متخلف يخسر هٰذه الكفاءات لا مجتمع متقدِّم لا يبالي بهجرتها لكثرتها أو لعدم تأثيرها(٧٠). المجتمع المتخلِّف يعاني الفقر علىٰ مختلف المستويات، الفقر ليس لقلة الموارد بل لسوء التَّخطيط ولسوء الإدارة وللفساد والسِّرقة الَّتي تمارسها السُّلطة، ولتعرُّض هٰذه المجتمعات للنهب المنظم من قبل الغرب الاستعماري عامة.

لا تعاني مجتمعات العالم الثالث من الفقر بقدر ما تعاني من الفساد وسوء التدبير وسرقة موارد الدَّولة الأمر الَّذي يفرض عليها الفقر فرضاً ويجعلها عاجزةً عن إيجاد بنًىٰ علميَّةٍ وعمليَّةٍ وتقانيَّةٍ وصناعيَّةٍ تكون أرضيَّةً مناسبةً لقيام الكفاءات العلميَّةِ والإبداعيَّةِ بما تستطيع القيام به. فتدخل الكفاءات والطاقات الإبداعيَّة في حالة اغترابٍ وضياعٍ وتشتُّتٍ وحسرةٍ... تجعل الهجرة نصب أعينها دائماً.

هٰذا الفقر المفروض بالسَّرقة والفساد يعني بالضَّرورة عدم وجود إمكانات ماديَّة بمختلف معاني الماديَّة للعمل العلمي، وفوق ذٰلكَ كلِّه اعتبرت دراسة لمركز الخليج للدِّارسات الاستراتيجيَّة في عام ٢٠٠٣م «أن من (الحقائق المذهلة) أنَّ مستوى الإنفاق علىٰ البحث العلمي والتقني في الوطن العربي يبلغ درجة متدنية مقارنة بما هو الحال عليه في بقيَّة دول العالم موضحة أنَّ الانفاق السنوي للدول العربيَّة علىٰ البحث العلمي لا يتجاوز ٠,٢ بالمئة من إجمالي

(٧٠) . ليس ثَمَّة تناقض أبداً مع ما سيأتي في الفصل التالي من احتياج العالم المتقدم إلىٰ الكفاءات وسعيه إلىٰ استقطابها، فهجرة الكفاءات من الدُّول المتقدمة لا تؤثر فيها إلا إذا بلغت مرحلة الاستنزاف، ولا يكون مثل هٰذا الاستنزاف إلا في حال التخلف أو حدوث انهيار يبدو أنَّهُ لا خروج منه كما حدث مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، ولٰكنَّهُ في الوقت ذاته لم يحدث مع اليابان الَّتي كانت كارثتها فيما يبدو أكبر.

الموازنات العربيَّة»[٧١]. وأرجو الانتباه إلىٰ أنَّ هٰذا مقدار التَّخصيص وليس الإنفاق لأنَّ هٰذا المخصص لا ينفق إلا واحد بالألف منه ويهدر الباقي أو يعاد إلىٰ خزينة الدَّولة أو ينفق في أشياء أُخْرَىٰ لا علاقة لها بالبحث العلمي.

خامساً: سوء الميدان العلمي والعملي

تفتقر مختلف المؤسَّسات العلميَّة وما يرتبط به من ميادين عمل الكفاءات العلميَّة إلىٰ مختلف أسس وقواعد وضوابط وموضوعات ومضامين وآفاق العمل الناجح أو المنتج والمثمر في أدنىٰ الاحتمالات، بل إلىٰ ما هو أدنىٰ من ذٰلكَ إِنَّهَا تفتقر شروط العمل العلمي الصَّحيح.

هٰذا السُّوء والتَّدني في حقيقة مرتبطٌ أساساً بما سبق من سوء إدارة وسوء تخطيط وفساد وافتقار إلىٰ الإمكانات الماديَّة والعلميَّة والمعنويَّة، وإلىٰ جانب ذٰلكَ كله فإن الميادين العلميَّة ذاتها والتَّطبيقيَّة المرتبطة بها تفتقر إلىٰ الأدوات اللازمة والبرامج اللازمة. كل مراكز الأبحاث والجامعات والمؤسَّسات العلميَّة مؤسَّسات استهلاكيَّة في أحسن الأحوال وغير منتجة ولا تقدِّم أيَّ فرصٍ حقيقيَّة للكفاءات العلميَّة. يظلُّ أصحاب الكفاءات في حالة بطالةٍ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ في حين تغلي نفوسهم بالطُّموح والآمال.

هٰذا الموضوع ليس سرًّا، إِنَّهُ علىٰ لسان القاصي والدَّاني، في الداخل والخارج، يقول الدمتور **الجعيدي** مثلاً: «إنَّ ظروف العمل والبحث وقدر الحريات العامة والخاصة والظُّروف المعيَّنة علىٰ التَّطوُّر والإبداع لا تستجيب للحدِّ الأدنى من طموح العقول العربيَّة الَّتي لا تجد في بلدانها مناصب توافق تكوينها،

(٧١) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . مصدر سابق.

في غياب الاستثمار المدروس في ميادين البحث العلمي الَّتي هي بحاجة ملحة لتلك الكفاءات»[٧٢].

يفتقر العمل العلمي في بلدان العالم الثالث إلىٰ البنية التحتيَّة اللازمة والمناسبة والكافية. المسألة ليست مسألة أجهزةٍ متطوِّرةٍ أو متخلِّفةٍ فقط وإنَّمَا تتجاوز ذٰلكَ إلىٰ طريقة التَّفكير وطريقة التَّخطيط مروراً بالبحث العلمي وصولاً إلىٰ التسويق... وكلها تعاني من ترهل واهتراء وتخلف وتآكل.

وفي ظلِّ ذٰلكَ فالإنتاج العلمي العربي إنتاج عبثي سطحي لأنه خاضع للمحسوبيَّة والوساطات والانتهازيَّة والوصوليَّة وغيرها، ولذٰلك لا عجب أن نجد أنَّهُ «في العالم العربي، في منتصف العقد الثَّاني من القرن العشرين، توجد نحو ٥٠ ألف مجلة تعنى في مجال العلوم الطَّبيعيَّة والتَّطبيقيَّة والطب والهندسة والتكنولوجيا... إلخ، ولٰكن معظم هٰذه المجلات لا تعد مرجعاً، أي إنَّ المقالات الَّتي تنشرها لا تلتزم معايير البحث العلمي ولا المعايير الأكاديميَّة، ومن هٰذه المجلات يوجد ٣٠٠٠ مجلة فقط (٦%) تعد مرجعيَّة حقيقيَّة تعترف بها منظمة المعايير العلميَّة الدوليَّة[٧٣] وتحظى المقالات الَّتي تنشر فيها بالاحترام والقبول في الاوساط العلميَّة الدوليَّة»[٧٤].

إنَّ الواقع المتردِّي والمتخلِّف مع ما يكتنفه من سوء إدارة وسوء تخطيط تجعل الإنسان المبدع يتلظى تحت سياط الإحباط غربة الإنسان في مجتمعه،

---

(٧٢) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(٧٣) . «International Scientific Information».

(٧٤) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. مصدر سابق.

ويضعه في مواجهة مباشرة مع إحساسه العميق بالعجز العام والخاص: عجزه عن تغيير الواقع الشَّخصي والعام فلا يجد غالباً إلا الهروب إلىٰ الخارج، الهجرة. المبدع والمتميِّز هو الَّذي يفكر في الهجرة وليس الإنسان العادي، والفرق بَيْنَهما كبير.

حقيقة يجب الإقرار بها وهي أنَّ «سبب الهجرة ودوافعها الدَّافعة والجاذبة من الوطن العربي وغيره من أرجاء العالم الثَّالث إلىٰ الدُّول المتقدمة أنَّ هٰذه الكفاءات لا تجد استجابة لحاجياتها وتكوينها العلمي في بلدانها بالإضافة إلىٰ تدني الأجور غير المجزية وعدم الحظوة بمناصب تتوافق مع كفاءاتها وتكوينها العلمي»(٧٥).

سادساً: العجز عن الاستيعاب

العجز عن الاستيعاب مشكلة ذات وجهين أو اتِّجاهين. تعجز المؤسسات والبنىٰ العلميَّة والتقنيَّة ومراكز الأبحاث النظريَّة والعمليَّة عن استيعاب الكفاءات العلميَّة من ناحية الأدوات العلميَّة والبحثيَّة اللازمة لهم للقيام بعملهم، فيجب عليهم تجاهل وتناسي قدراتهم الَّتي تتجاوز البنىٰ الموجودة والعمل بمستوىٰ الأدوات الموجودة وهٰذا أمرٌ مربكٌ في حقيقة الأمر، ومحرجٌ كثيراً، ناهيكم عن كونه استهانة بعقول هٰذه الكفاءات واستهزاء بها.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ تعجز هٰذه البنىٰ عن استيعاب هٰذه القدرات والكفاءات من جهة الحاجة إليها استناداً إلىٰ آفاق العمل وآفاق الطُّموحات، وآفاق تسويق منتجات هٰذه الكفاءات. سقوف الطموحات والمخطَّطات متدنيَّةٍ جدًّا بالمقارنة مع قدرات الكفاءات العلميَّة، والسُّوق ذاتها صغيرة وضيقة تعجز عن تلبية

(٧٥) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب**. مصدر سابق.

احتياجات البحث العلمي والإنتاج التقاني الَّذي يسهم في ديمومة عمل الكفاءات العلميَّة.

في حين أنَّ الهند في عام ٢٠٠٢ «قامت الهند بإحداث قرى علميَّة لتسهيل البحث العلمي في التكنولوجيات الجديدة الشيء الَّذي ساهم في التقليل من هجرة الكفاءات الهنديَّة إلىٰ الخارج. وقررت الصين في الفترة ذاتها إحداث ٧٠ محطة صناعيَّة للطلبة الصينيين العائدين من الخارج لإنشاء مقاولات صناعيَّة بفضل قروض وتسهيلات أُخْرَىٰ»[٧٦]. فإنَّ العرب زادوا في عمليَّة تهجير الكفاءات.

صحيح أنَّ نسبة البطالة مرتفعةٌ عامَّةً إلا أنَّها الأكثر بَيْنَ أوساط أصحاب الشَّهادات العلميَّة علىٰ تنوعها، وهي الأخطر حَتَّىٰ ولو كانت نسبتها أقل من غيرها، بتقديرٍ تقريبيٍّ يمكن القول إنَّ «نحو ٣٣ في المئة من أصحاب الشهادات الجامعيَّة والعليا عاطلين عن العمل»[٧٧]. هٰذه النِّسبة في المغرب حسب قول **المهدي المنجرة** ولٰكنَّهَا قابلة للتَّعميم علىٰ العالم العربي من دون تحفظ.

وبعد ذٰلكَ فإنَّ السُّؤال الَّذي يبقى فارضاً ذاته بقوَّة هو: «إذا كانت جامعاتنا قادرة علىٰ الاستغناء عن هٰذه الأعداد الكبيرة من الأساتذة. فلماذا أنفقت الدَّولة الأموال الطائلة لإعداد هٰذه الكوادر ومن ثمَّ إعارتها لاحقاً لدول أُخْرَىٰ؟!!»[٧٨].

---

(٧٦) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . مصدر سابق.

(٧٧) . المصدر السابق.

(٧٨) . الدكتور زهير إبراهيم جبور: **الأستاذ الجامعي بين بحثين؛ لقمة العيش والبحث العلمي** . صحيفة تشرين . دمشق . الاثنين ٢٤ كانون الأول ٢٠٠١م.

سابعاً: التردي الاقتصادي منعكساً على الفرد

التَّردِّي الاقتصادي نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لكلِّ ما سبق وفي الوقت ذاته هو مقدِّمةٌ لها جميعاً. سوء الأوضاع الاقتصادي يحول دون تطوير البنىٰ العلميَّة والبحثيَّة والتقانيَّة والتقنيَّة... وسوء وضع المؤسسات البحثيَّة والتقنيَّة والتقانيَّة يؤدِّي إلىٰ التردي في الوضع الاقتصادي. هٰذه حلقة تجعل العمل يدور في الفراغ، ولٰكنَّهَا ليست دوراً منطقيًّا فهناك حلقةٌ مفقودةٌ هي الفساد وسوء الإدارة اللذان يقفان وراء هٰذه المشكلة أو الأثر.

التَّردِّي الاقتصادي ينعكس علىٰ مستوىٰ عيشة الفرد والمجتمع معاً. ينكعس علىٰ مستوىٰ عيشة الكفاءة العلميَّة ودخلها وتلبية احتياجاتها فينعكس ذٰلكَ علىٰ الأداء والكفاءة والقدرة، وينعكس ذٰلكَ من ثمَّ علىٰ الحالة النفسيَّة للكفاءة العلميَّة وقدرتها علىٰ التأقلم مع الأوضاع، وقدرتها علىٰ القبول والرضى.

مما لا يدركه كثيرون أن متطلبات الكفاءة العلميَّة أكبر بكثير من متطلَّبات الطَّبقة الوسطىٰ واحتياجاتها، المسألة ليست مسألة طعامٍ وراحةٍ نفسيَّةٍ وحسب، بل تتجاوز ذٰلكَ إلىٰ الاحتياجات البحثيَّة والمراجع والمصادر والأدوات مضافاً إليها الرَّاحة النَّفسيَّة والطُّمأنينة الَّتي لا يمكن أو يصعب من دونها ممارسة العمل العلمي والإبداعي.

يقول **زهير جبور** واصفاً مأساويَّة الكفاءات العلميَّة الجامعيَّة في سوريا ولا يختلف الأمر في معم الدُّول العربيَّة علىٰ أيِّ حال: «الجميع يخجل من الإشارة بشكل واضحٍ وصريحٍ إلىٰ الواقع المعيشي والحياتي الَّذي يعانيه الأستاذ الجامعي ويكون الخجل أكبر عندما يشارك أحدنا في مؤتمر خارج القطر حَتَّىٰ في البلدان

العربيَّة المجاورة ويعتريه الخجل عندما يسأله أحد أقرانه من الدُّول الأُخْرَىٰ عن الرَّاتب الشَّهري الَّذي يتلقَّاه»[٧٩].

ومثل ذٰلكَ يقوله الأستاذ الجامعي السوري: «أجور الأساتذة لا تكفي لإشباع حاجاتهم الأساسيَّة ولذٰلك يسعون للتوفيق بَيْنَ عدة وظائف فتضيع طاقاتهم هدراً ولا يبقى لديهم وقت للبحث العلمي»[٨٠].

وعندما يقارن المبدع أو العالم وضعه الاقتصادي ودخله بما هو عليه الحال في دول العالم المتقدم تنتابه الدَّهشة والإحباط وتتراقص في رأسه طموحات الهجرة.

ثامناً: التردي الاقتصادي منعكساً على المجتمع

التَّردي الاقتصادي من ناحية انعكاسه علىٰ المجتمع والوضع العام والدَّولة يقوم بالتأثير ذاته علىٰ الكفاءة العلميَّة من ناحية الإحباط والقدرة علىٰ تلبية المتطلبات والاحتياجات، ومن ناحية أُخْرَىٰ هي ضعف الطَّلب علىٰ منتجات الكفاءات العلميَّة المتوقَّعة والممكنة.

التَّردي الاقتصادي يعني أيضاً عجز المؤسَّسات السِّياسيَّة والعلميَّة عن إشادة المنشآت اللازمة للبحث العلمي والتطوير العلمي والإنتاج التقني والتقاني، بما يعني أيضاً علىٰ نحو مباشر إغلاق الأبواب أمام الباحثين والكفاءات العلميَّة عن القيام بما يجب أن تقوم وبما تستطيع القيام به.

يتساءل الكثيرون: «إذا لم يكن هاجس البحث عن لقمة العيش وتحسين الوضع المادي هو المشكلة الرَّئيسة الَّتي يعانيها الأستاذ الجامعي فكيف نفسِّر

(٧٩) . المصدر السابق.

(٨٠) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. مصدر سابق.

وجود هٰذا العدد الكبير من أساتذة الجامعات السُّوريَّة في الخليج والأقطار العربيَّة الأُخْرَىٰ؟»[٨١].

هٰذا التساؤل يمكن تعميمه علىٰ العالم العربي من جهة، وعلىٰ الكفاءات المهاجرة إلىٰ الغرب من جهة ثانية. ولا أحد يجهل مدى ما يعانيه الاقتصاد العربي من فساد وهدر ونهب لمقدرات الدُّول والشُّعوب وحرمان المؤسَّسات العلميَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والتَّعليمية من مختلف الإمكانات والقدرات بضرورة الوضع السِّياسي الفاسد القائم، ولا عجب أن نعلم ما لا يجهله أحدٌ أيضاً من «أنَّ الاستثمار العربي في ميادين البحث يتدنى إلىٰ مستويات لا مثيل لها في أي مكان آخر من العالم، في إطار آليَّة متخلِّفة سُيِّر عليها اقتصاد البلدان العربيَّة فحكمت عليه بالتَّبعيَّة للاقتصاد الأجنبي والغربي منه خاصة»[٨٢]. وفي هٰذا كله ما يخفض الطلب علىٰ منتجات أو منعكسات العمل العلمي والتقني الَّذي تكون الكفاءات العلميَّة محوره وجوهره، بما يعني أنَّ تردي الوضع الاقتصادي، مهما كانت أسبابه، فإنَّ نتائجه الَّتي تنعكس علىٰ المجتمع عامة تنعكس بالضَّرورة علىٰ الكفاءات العلميَّة من أكثر من جهة وجانب شخصي وخاص وعام.

تاسعاً: ضعف الانتماء نسبيًّا

ضعف الانتماء عند الكفاءة العلميَّة من العوامل الشخصيَّة، ومثله بعض أسباب العامل الأول إلىٰ حدٍّ ما، أي الأخلاق الاجتماعيَّة. ولٰكنَّنا أدرجناه في إطار العالم الدَّاخلي، كما سنفعل لاحقاً في بعضٍ من أسباب العامل الخارجي.

---

(٨١) . الدكتور زهير إبراهيم جبور: **الأستاذ الجامعي بين بحثين؛ لقمة العيش والبحث العلمي** .

(٨٢) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . مصدر سابق.

ثَمَّة عبارة شائعة تقول: المبدع لا وطن له، وطن المبدع حيث يجد ذاته. هٰذه العبارة صحيحةٌ نسبيًّا لا مطلقاً. نجدها في العالم الشَّرقي ولم نجدها قطُّ في العالم الغربيِّ... هٰذه الشعارات تكون مبرراً عند بعض غير قليل من الكفاءات للتَّفكير في الانتماء للوطن والأمة تفكيراً سلبيًّا، أو تجعل من ضعف الانتماء أمراً سائغاً في النَّفس ومقبولاً في سياق سلسلةٍ من المحاكمات النَّفسيَّة الَّتي تسوِّغ ذٰلكَ بالحيل الدِّفاعيَّة الَّتي تلجأ إليها الذات للهروب من اتِّهام الذَّات بالخطأ أو التَّقصير أو الخيانة أو غير ذٰلكَ. ولذٰلك لا تجد أمثال هٰذه الكفاءات من غضاضة في ترك الوطن لتحقيق مصالح شخصيَّة حَتَّىٰ ولو وفَّر لها الوطن احتياجاتها أو لم تكن مضطرة للهجرة. بل من عجب أن نجد الدكتور **المهدي المنجرة** المغترب أصلاً، والَّذي قال إنَّهُ مهتم بهجرة الكفاءات ويؤلمه ذٰلكَ وغير ذٰلكَ قد رأى أنَّ أحد أسباب هجرة الكفاءات أنَّ «يُخلصون للإسلام أكثر من إخلاصهم للوطن». وتابع ناقضاً كل مزاعمه بحرصه علىٰ الكفاءات العربيَّة وبرامجه وأبحاثه في ذٰلكَ ليقول «أين ما وجدتم شروط التفتح والتألق والظروف المواتية للبحث العلمي والابتكار والخلق، هناك وطنكم»[٨٣].

الأمثل المماثلة لهذه الدعوة من قريب أو بعيد أو تخفيف أو تشديد غير قليلة في حقيقة الأمر، سنجد مثلها بأكثر من صيغة في بعض فقرات هٰذا البحث.

عاشراً: الإكراه السِّياسي

الأسباب السَّابقة كلُّها في كفَّةٍ والإكراه السِّياسي الَّذي تمارسه الأنظمة في كفَّةٍ مقابلةٍ. لا جدال في أنَّ العالم العربيَّ كلَّه والإسلامي معه يخضع لأنظمةٍ

(٨٣) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . مصدر سابق.

استبداديَّة لا تعنيها مصلحة الوطن ولا المواطن في شيء أبداً. وإذا كان الأمر في ذَلكَ فإنَّ محاربة المبدعين والكفاءات العلميَّة جزء من سياسة هٰذه الأنظمة ورُبَّما هدف لبعضها. ومحاربة المبدعين والكفاءات العلميَّة لها ملايين الأشكال والألوان والأساليب أعلاها الحرب العلنيَّة المباشرة الواضحة الصريحة وأدناها التَّهميش والتَّحقير والحرمان من الحقوق العلميَّة والحيلولة دون قيامها بتقديم ما لديها وما تستطيعه وما تطمح إليه.

وفي هٰذا الإطار يرى الدكتور **المهدي المنجرة** كما يرى الجميع تقريباً أنَّ أحد أبرز سبل الحدِّ من هجرة الكفاءات «احترام الكرامة الإنسانيَّة والدِّفاع عنها لأنَّهُ من دونها من المستحيل التقدم والتطور»(٨٤).

الكفاءات العلميَّة كلُّها تتعرَّض لهٰذا الإكراه التَّهميش والإقصاء؛ الفكريَّة والعلميَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة... وهٰذا الإكراه يمارس بطبيعة حال النِّظام الاستبدادي، أعني بسببٍ أو من دون سببٍ، ولٰكنَّ الغطاء الأيديولوجي والأمن الاجتماعي والأمن الوطني والأمن القومي هو الَّذي تتحرَّك هٰذه الأنظمة من خلاله غالباً. وعلىٰ هٰذا الأساس فكلُّ متَّهمٍ عند السُّلطة ليس متهماً وحده وإنَّمَا كلُّ أقاربه وأصدقاؤه ورُبَّما جيرانه سيكونون موضع اتهام وشبهة لا تموت مع عشرات السِّنين الَّتي يبقىٰ النِّظام فيها في السُّلطة... شخصٌ يعارض السُّلطة فيصبح محيطه كلُّه مشبوهاً ومتَّهماً ومداناً حَتَّىٰ ولو مضت عشرات السِّنين علىٰ الحدث وحَتَّىٰ لو تاب المتهم. وهٰذه ليست مبالغة، إنَّهَا واقع.

(٨٤) . المصدر سابق.

تتذرع الأنظمة العربيَّة ذريعةً حقيقيَّةً في طبيعتها ولٰكنَّهَا تستثمر في الاستبداد وتضييق القبضة الأمنيَّة وتكميم الأفواه وكتم الأصوات والأنفاس، ولهٰذه الذريعة هي «أنَّ الظَّرف الَّذي نعيشه اليوم في الوطن العربي محليًّا وعالميًّا هو ظرف غير طبيعيٍّ وظرف صراع ومحاولة استحواذ القوى الاستكباريَّة علىٰ كلِّ شيءٍ ليبقى المستضعف والأقل قوَّةً، بلا إمكانات للبناء أو العيش الكريم»(٨٥).

هٰذه حقيقةٌ لا شكَّ فيها، ولٰكنَّ بدل أن يتم استثطاب الكفاءات والاستفادة منها في فكِّ التَّضييق والحصار والاستكبار نجد أنَّ الأنظمة العربيَّة تعمل علىٰ تهجير هٰذه الكفاءات بمختلف السُّبل والوسائل الممكنة، وقد أكَّد «**المهدي المنجرة** أنَّ ٦٠ في المئة من خريجي معاهد ومدارس المهندسين يهاجرون إلىٰ الخارج، وبذٰلكَ أضحينا نعاني علىٰ نحوٍ جليٍّ هجرةَ المعلوماتيين علىٰ نحو خاصٍّ»(٨٦).

هٰذا الواقع كفيلٌ وحده بعدم السَّماح بوجود أيِّ مناخٍ مناسبٍ للكفاءة العلميَّة كي تبقىٰ في وطنها. وكفيل بما سبق من أسباب أُخْرَىٰ أسهمت كلُّها في تهجير الكفاءات وطردها خارج الوطن.

حادي عشر: عدم تقدير الكفاءات

لننظر في الوصف الدَّقيق الَّذي قدَّمه الأستاذ الجامعي السُّوري **زهير جبور** في وصف مثل هٰذه المأساة: «عندما يشارك أحدنا في مؤتمر خارج القطر حَتَّىٰ في البلدان العربيَّة المجاورة يعتريه الخجل وسيزداد خجلاً عندما يتذكَّر الآليَّة الَّتي

(٨٥) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . مصدر سابق.

(٨٦) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . مصدر سابق.

أتاحت له المشاركة في هٰذه المؤتمرات لأنَّ مشاركته تطلبت موافقة الإدارات المترهلة في أساليب عملها وكذٰلكَ البيروقراطيَّة القاتلة الَّتي تقف له بالمرصاد ولأن المشاركة في أيِّ مؤتمرٍ عاديٍّ يتطلَّب السَّير في نفق من الإمضاءات إلىٰ درجة بثِّ الإحباط واليأس في نفسه»[٨٧]. وهي كما أعلمها أكثر من محبطة وتصل إلىٰ درجة الشروط الإعجازيَّة بَيْنَما في الوقت ذاتها تشاهد أغبياء لا علاقة لهم بالبحث العلمي يتواثبون من دولة إلىٰ دولة.

يعاني العالم الشَّرقي أي الثَّالث عامَّة قديماً وحديثاً أكثر من العالم الغربي من مشكلة تقدير الكفاءات والمواهب والمبدعين حَتَّىٰ اشتهر في العالم الشَّرقي وخاصَّةً العربي قولهم: «لا كرامة لنبي في أهله»، وقولهم: «مزمار الحي لا يطرب»، وقولهم: «أزهد النَّاس في العالم أهله وجيرانه»، وغيرها مما يشبهها غير قليلٍ.

هٰذه الأخلاق تظهر عامَّة في أجواء التَّخلُّف ولٰكنَّهَا تظهر في الشَّرق أكثر مما تظهر في الغرب في الحالين حال التَّخلف وحال التَّحضر. وهٰذه الأخلاق تقوم بتأثير بالغ في نفوس الكفاءات وتحرضهم علىٰ الهجرة والابتعاد عن مجتمعاتهم. ولا نطيل في ذٰلكَ فالحديث طويلٌ.

خاتمة

هٰذه الأسباب أبرز أسباب عوامل الطَّرد أو النبذ الدَّاخلي. وتحدثنا فيها باختصار قدر الإمكان لأنَّ الحديث فيها يطول. وقد حاولنا جمع ما أمكننا من الأسباب، ومع ذٰلكَ لا نزعم أنَّهَا هي الأسباب كلها، فيمكن أن يوجد غيرها.

---

(٨٧) . الدكتور زهير إبراهيم جبور: **الأستاذ الجامعي بين بحثين؛ لقمة العيش والبحث العلمي** . صحيفة تشرين . دمشق . الاثنين ٢٤ كانون الأول ٢٠٠١م.

الحقيقة الَّتي لا يمكن تجاوزها أو الوثب فوقها أنَّ كثيراً من الكفاءات الَّتي أوفدت للخارج أو الَّتي تكونت في الخارج، علىٰ رغبتها في العودة، فإنها لا تستطيع العودة علىٰ الأقل لأنها تعرف ماذا تفعل إذا عادت إلىٰ الوطن، ولا تجد أبداً أيَّ ظروف مناسبة أو مساعدة للعمل. ولذٰلك لا عجب أنَّنا وجدنا الكثير من الكفاءات والمبدعين لم يستطيعوا البقاء كثيراً في أوطانهم إثر عودتهم، تركوها وعادوا سريعاً إلىٰ بلاد المهجر. ففور عودتهم يصدمون بالروتين والقوانين السخيفة وما إن يخرجوا من دومة إجراءات العودة، إن خرجوا سالمين غير مهاجرين، تبدأ صراعاتهم مع السَّطحيَّة والوضاعة والانهيار العلمي والإداريَّة وحَتَّىٰ الأخلاقي وصولاً إلىٰ عدم وجود بنية عملٍ علميٍّ تحقِّق الشُّروط الدُّنيا للعمل العلميِّ، بدءاً من العادات والأعراف مروراً بالقوانين والإدارة وصولاً إلىٰ مراكز الأبحاث والمخابر وغيرها... وفوق ذٰلكَ كله تدخل الدَّولة من خلال أجهزتها الاستخباراتيَّة تدخلاً فاضحاً فاقعاً في كل شاردة وواردة في عمل الباحث تحت ذرائع مضحكة.

الفصل السادس

عوامل الجذب الخارجية

نكـرِّر ثانيـةً هنـا بطريقـةٍ أُخْـرَىٰ ومـن زاويـةٍ أُخْـرَىٰ: مـا كـان للعامـل الخـارجي أن يمـارس تـأثيره في اسـتقطاب الكفـاءات وأخـذها مـن الشَّـرق أو سـرقتها منـه لـولا العامـل الـدَّاخلي بأسـبابه متفرِّقـةً أو مجتمعـةً مثـنًىٰ وثـلاث ورباع وجميعـاً... وسـنرىٰ في العامـل التَّـاريخي كيـف أنَّ المجتمـع الغـربيَّ في ظـلِّ تعرُّضـه لمختلـف عوامـل الجـذب الخـارجيِّ لم يتعـرَّض لنزيـف الأدمغـة في ظـلِّ ظـروف التَّخلـف ذاتهـا وأكثـر منهـا، وحَـتَّىٰ في ظـلِّ وجـود أسـبابٍ داخليَّـةٍ متقاطعـةٍ ومتماثلـةٍ وقريبـةٍ للأسـباب الدَّاخليَّة لهجرة الكفاءات من الشَّرق.

وأكرِّر أيضاً بطريقةٍ أُخْرَىٰ فكرةً سبقت في الفصل السَّابق، هي أنَّ هٰذا الفصل وسابقه ولاحقه كانت لرؤيتنا في أسباب هجرة الكفاءات، والحقيقة التي لا تحتاج إلىٰ برهان في هٰذا الإطار أنَّ رؤيتنا لن تفترق عن رؤى دارسي هجرة الكفاءات في الأساسيات العامة لهجرة الكفاءات وخاصة من ناحية التقسيم إلىٰ أسباب داخليَّة وأُخْرَىٰ خارجيَّة، والتسميات في أغلبها من طاردة ونابذة وجاذبة ومستقطبة وغير ذٰلكَ.

تكرار بحث أسباب هجرة الكفاءات في حقيقة الأمر مسألة فيها وجهة نظر من ناحية إضافة عوامل أو أسباب لم يلتفت إليها الآخرون، أو لم ينتبهوا إليها، وفي إضافتها ما يمكن أن يلقي مزيداً من الضَّوء علىٰ المشكلة والبحث في

حلول لها إن كانت هناك رغبةٌ في البحث عن حلول، أو رُبَّما يكون الأصح إن كانت هناك حاجة للبحث عن حلول.

أقول إن كانت هناك حاجة للبحث عن حلول لأنَّ مشكلة هجرة الكفاءات الشَّرقيَّة مشكلة تاريخيَّة أكثر مما هي مشكلة ظرفيَّة، ولهذا ما يمثل مضمون العامل التَّاريخيِّ في هجرة الكفاءات، الأمر الذي سنخصِّص له فصلاً مستقلاً هو الفصل القادم.

إذا كان العامل الدَّاخلي هو عامل الطَّرد المحلي أو الداخلي المتمثِّل كما أوضحنا في الفصل السَّابق، بمجموعةٍ من الأسباب هي من وجهة نظرنا أسباب عامَّةٌ خاصة في آن معاً، ليست واجبة الانطباق علىٰ الكفاءات المهاجرة كلها بالضَّرورة، قد تنطبق كلها علىٰ كفاءة ولهذا استثناء، وقد يكون سببٌ واحدٌ من الأسباب وراء الهجرة. فإنَّ العامل الخارجيُّ هو عامل الجذب الموجود بطبيعة الحال أو الَّذي تمارسه الدُّوَل المتقدِّمة بالإرادة والقرار من أجل اجتذاب أو سرقة الكفاءات العلميَّة في العالم الشَّرقي خاصَّة والعالم الثالث عامَّة.

وما بَيْنَ هٰذه العاملين قراءاتٌ وتفسيراتٌ وراء السُّطور وأمامها وتحتها، وعمق تحليلي، وسطحيَّة تحليليَّة، وتقصير، وتطويل، وزيادة، ونقص، وغير ذٰلكَ كثير من كلِّ ما يمكن أن يتوقَّع بسبب تباين وضعيَّات الباحثين وانتماءاتهم وأيديولوجيَّاتهم وأغراضهم وأهدافهم.

الأسباب أو العوامل المندرجة تحت باب الاستقطاب أو الجذب الخارجيِّ كثيرةٌ مثل عوامل الطَّرد الدَّاخليِّ، وتنقسم إلىٰ قسمين من جهة المبدأ، قسم يخص دول الملجأ ذاتها بقطع النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ، وقسم

يخصُّ دول المنبت. ومثلما كان هناك عاملٌ شخصيٌّ وقسمٌ يخصُّ المبدع ذاته في العامل الدَّاخلي كذلكَ هنا في العامل الخارجيِّ بعض الأسباب الَّتي تخصُّ المبدع الفرد.

أولاً: الحاجة

العالم الغربي أو العالم المتقدِّم بحاجةٍ دائمةٍ إلىٰ الكفاءات العلميَّة من مختلف الاختصاصات والميادين والمستويات، هو بحاجة إلىٰ هٰذه الكفاءات بقطع النَّظر عن أي اعتبار أو ظروف أو استثناءات أو حَتَّىٰ مستجدات. «فإذا علمنا، كما قال الدكتور **الجعيدي** في عام ٢٠٠٢م، أن حاجة أوروبا المعلوماتيَّة في مجال الخبرات الهندسيَّة العالية، تقدر بمليون ومئتي ألف مهندس خلال الخمس سنوات المقبلة وأنَّ حاجة الولايات المتحدة الأمريكيَّة وحدها تبلغ خلال عامٍ واحدٍ، في مطلع هٰذا القرن، ٧٥٠ ألف مهندس، لا تستطيع مؤسَّساتها العلمية تخريجهم جميعاً، أدركنا سبب الهجرة ودوافعها الدَّافعة والجاذبة من الوطن العربي وغيره من أرجاء العالم الثَّالث إلىٰ الدُّول المتقدِّمة»(٨٨).

الأمة المتقدِّمة تشبه في تقدُّمه الموقد الَّذي يزداد تألقاً بكثرة الوقود، والمبدعون والكفاءات العلميَّة هي الوقود الَّذي يؤجِّج تقدُّم الأمَّة. وبهٰذا المعنى تقريباً قال المجلس القومي للعلوم في الولايات المتَّحدة أنَّ نسبةً متناميةً من العلماء والمهندسين العاملين في الولايات المتَّحدة جاءت من دول أُخْرَىٰ، وأوضح أنَّ وجود هٰؤلاء العلماء الذين يعملون في الولايات المتَّحدة ليس بالضَّرورة أمراً مقلقاً. قال إنَّهُ يجب علىٰ

(٨٨) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

الحكومة أن تنظر في طرقٍ جديدةٍ لتدريب عددٍ أكبر من الأميركيين في المجالات العلميَّة والهندسيَّة»(٨٩).

هٰذا يعني أن العالم الغربي ليس من الضَّروري أن يكون مفتقراً إلىٰ الكفاءات حَتَّىٰ يقوم باستقطاب الكفاءات من الدُّوَل أو الأمم الأُخْرَىٰ. الدُّوَل المتقدمة مهما كان حالها هي بحاجة إلىٰ الكفاءات، وتستوعبها بكل ارتياح وهٰذا ما يشكِّل حافزاً وجاذباً للكفاءات العلميَّة العربيَّة وغيرها من دول العالم الثالث.

ولٰكنَّ حاجة الغرب المتقدِّم إلىٰ الكفاءات الأجنبيَّة لا يتوقَّف عند هٰذا المستوىٰ المنطقيِّ أو الطبيعي، بل تتجاوزها إلىٰ عاملٍ ظرفيٍّ آخر هو التَّرهل واختلال التَّوازن السُّكَّاني والافتقار إلىٰ الكفاءات العلميَّة الأمر الَّذي جعل دول العالم المتقدم عامَّة تسن القوانين والتشريعات الجديدة الَّتي تسمح أو تفرض علىٰ الدَّوْلَة أن تتَّخذ المزيد من إجراءات تسهيل استقطاب الكفاءات وجلبها من العالم الخارجي.

هٰذه الحاجة وصلت إلىٰ حدِّ الصراخ من مختلف الأطراف والمستويات في دول العالم المتقدم ما بَيْنَ مناشدة الدولة باتخاذ الإجراءات الكفيلة باستقدام الكفاءات وبين قيام الدول بتشريع ما يتيح لها ذٰلكَ، ففي منتصف عام ٢٠٠٣م «قالت اللجنة الأوروبيَّة إنَّ الاتحاد الأوروبي يحتاج إلىٰ ٧٠٠ ألف باحث كي يضاهي الإبداعات الأمريكيَّة

(٨٩) . وكالات أنباء: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٤/٩/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٣/١١/٢٠م.

واليابانيَّة. وتشمل مقترحات اللجنة قانوناً لأسلوب تعيين الباحثين وأسلوباً للتعرف علىٰ مؤهلاتهم في دولٍ مختلفةٍ»(٩٠).

وفي منتصف عام ٢٠٠٣م «أظهر تقريرٌ حكوميٌّ أنَّ بريطانيا تعاني من قوَّةٍ عاملةٍ ذات مهارةٍ متدنيةٍ وتباطؤٍ في إحراز تقدُّم في بحوث الفيزياء والاقتصاد والهندسة ناتج عن تراجع في مستويات الرياضيات»(٩١).

علىٰ الرَّغْمِ من الفارق الهائل بَيْنَ استراليا والعالم العربي في التَّطوُّر التقاني فقد اعترف وزير الاتصالات **رتشارد آلستون** «أنَّ أستراليا تفتقر إلىٰ قاعدة لصناعة تكنولوجيا المعلومات، وتراجع عن تصريحات أدلى بها الأسبوع الماضي تخالف ذٰلكَ»(٩٢).

أمَّا الولايات المتحدة فقد «وجد المجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة «أنَّ العاملين الأجانب الحاصلين علىٰ درجة البكالوريوس يمثلون ١٧% من جميع المناصب العلميَّة والهندسيَّة التي يشغلها الحاصلون علىٰ هٰذه الدَّرجة، بَيْنَما احتلَّ الحاصلون علىٰ درجة الماجستير ٢٩% من الوظائف، والحاصلون علىٰ درجة الدكتوراه نسبة ٣٨%»(٩٣). وفي هٰذا الإطار قال **وارن واشنطن**

---

(٩٠) . رويترز: **أوروبا تحتاج ٧٠٠ ألف باحث** . الجزيرة نت . السبت ١٤٢٤/٥/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/١٩م.

(٩١) . رويترز: **مستوى الرياضيات يتدنى في بريطانيا** . الجزيرة نت . الأحد ١٤٢٤/٥/٧هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/٦م.

(٩٢) . أسوشيتد برس: **في خطة لتعزيز تكنولوجيا المعلومات؛ أستراليا تخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر** . الجزيرة نت . الإثنين ١٤٢١/١٠/٢٧هـ الموافق ٢٠٠١/١/٢٢م.

(٩٣) . وكالات أنباء: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٤/٩/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٣/١١/٢٠م.

رئيس المجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة في بيان له: «هٰذه الاتجاهات تمثل تحدياً غير عاديٍّ لصناع السياسات في الأعوام القادمة لإنتاج مهاراتٍ كافيةٍ من المهنيين المتعلمين سواء في الولايات المتحدة أو خارجها لشغل الأعداد المهمة والمتزايدة من المناصب التي نتوقعها في المجالات الحساسة»(٩٤).

ومع ذٰلكَ فهٰذه فقط صرخات قليلة صريحة وما يقف وراءها أكثر من ذٰلكَ بكثير علىٰ الأقل من ناحية الاستنتاج المنطقي. ولا تتضح صورة مأساة هجرة الكفاءات العربيَّة اتضاحاً كافياً إلا إذا ربطنا هٰذا العامل أو السبب بما سيأتي من الأسباب.

ثانياً: التوفير والإنفاق

يقوم الغرب أو العالم المتقدِّم بالتَّوفير باتجاهين اتجاه فرص العمل واتجاه احتياجات الكفاءة العلميَّة الشَّخصيَّة والمهنيَّة.

قيام العالم المتقدِّم بتوفير فرص العمل المناسبة والمرغوبة للكفاءات العلميَّة أمر مرتبط بالسبب السَّابق من أسباب جذب الكفاءات العلميَّة وهو الحاجة. الحاجة الدَّائمة والكبيرة للعامل المتقدِّم للكفاءات العلميَّة من مختلف الاختصاصات والمستويات يعني منطقيًّا وواقعيًّا وجود إمكاناتٍ كثيرةٍ لتوفير الفرص المناسبة للكفاءات.

ولٰكنَّ القسم الثاني من التوفير مرتبط بتوفير الحياة الكريمة والدخل الكريم والأمان والضمان للكفاءة العلميَّة كي تعمل بطمأنية وراحة بال وبدخل شهير جيد جدًّا يكفي الكفاءة عناء التَّفكير والهم من تأمين احتياجاته ومستقبله.

(٩٤) . المصدر السابق. ذاته.

العالم الغربي يفعل ذَلكَ للجميع علىٰ السواء وليس للكفاءات المهاجرة وحدها، إنَّهُ يتعامل مع الجميع علىٰ قدم المساواة، وفي هٰذا ميزةٌ إنسانيَّةٌ قبل أن تكون ديمقراطيَّةً، يفتقر إليها العالم الشَّرقي اليوم افتقاراً كبيراً وتمثِّل إغراءً شديداً للباحثين والكفاءات العلميَّة.

القسم الثالث وهو المكمل للقسمين السابقين السخاء المقبول في الإنفاق علىٰ البحث العلمي وعلىٰ الكفاءات العلميَّة، وفي هٰذا الموضوع الكثير من الكلام والشواهد، حسبنا مثلاً هنا أنَّهُ حسب كثيرٍ من التَّقارير والدِّراسات فإنَّ الإنفاق علىٰ البحث العلمي والتقني «يبلغ في اسرائيل ٢,٦ بالمئة في الموازنة السنويَّة وذٰلكَ مقارنة بما تنفقه أمريكا ٣,٦ بالمئة والسويد ٣,٨ بالمئة وسويسرا واليابان ٢,٧ بالمئة وفرنسا والدنمارك ٢ بالمئة...»[٩٥]. في حين، وفق مختلف الدراسات والتَّقارير، أنَّ التَّخصيص العربي لا يتجاوز ٢ بالألف في أحسن الأحوال. أكرِّر ثانيةً هو مقدار التَّخصيص وليس الإنفاق لأنَّه لا ينفق منه فعليًّا إلا واحد بالألف منه ويهدر الباقي أو يعاد إلىٰ خزينة الدولة أو ينفق في أشياء أُخْرَىٰ لا علاقة لها بالبحث العلمي.

وفي تقديراتٍ مقارنةٍ مع العالم العربي نذكر مثلاً أنَّهُ «في عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م أنفق العرب نحو ١١٥ مليون دولار، فيما كان إنفاق الدُّول المتقدِّمة في العام ذاته ٦٢ مليار [= بليون] دولار. وفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

(٩٥) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . موقع أخبار الوطن . ٦/١٦/ ٢٠٠٦م.

أنفق العرب مليار وسبعة وعشرين مليون دولار، فيما كان إنفاق الدول المتقدِّمة ١٩٥ مليار دولار»[٩٦].

الأمر ليس أمر عام واحد واحد، فحسب التقديرات أجمعها، «في العقود السَّابقة ـ من القرن العشرين وحَتَّىٰ الآن ـ كان وسطيُّ ما تنفقه الدُّول العربيَّة علىٰ البحث العلمي لا يتعدَّى ٠,٣% علىٰ ضخامة الدُّخول القوميَّة في بعضها، في حين أنَّ هٰذا الوسطي تراوح في أمريكا وأوربا بين ٢% و٣%»[٩٧]. أي مئة ضعف نسبيًّا لاكميًّا فقط.

ماذا يمكن أن نقدم من مقترحات وحلول لهجرة الكفاءات العربيَّة هنا عندما نورد مثل هٰذه الحقائق والأرقام والمقارانات؟ هل يجب أن نقول يجب زيادة الإنفاق علىٰ البحث العلمي مثلاً؟ إنَّهُ ضرب من الهبل والاستهبال في آن معاً.

وعلىٰ الرَّغْمِ من أنَّ الإنفاق الغربي عامَّةً متفوق بما لا يقاس مع العالم الشرقي فإنَّ ثَمَّة تباينات بَيْنَ دول العالم الغربي في هٰذه المسألة «ووفقا لبيانات منظمة التعاون الاقتصادي والتَّنمية فقد أنفقت الولايات المتحدة ٢,٧% من ناتجها المحلي الإجمالي عام ٢٠٠٠م على الأبحاث والتَّنمية، بَيْنَما أنفقت اليابان

---

(٩٦) ـ د. سيد شوربجي: **المتغيرات الدوليَّة وانعكاساتها على الأمن العربي** ـ المركز العربي للدراسات الأمنيَّة ـ الرياض ـ ١٤١٣هـ ـ ص٣٢ ـ ٣٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٣.

(٩٧) ـ د. محمود سفر: **إنتاجيَّة المجتمع** ـ جدة ـ تهامة ـ ١٤٠٤هـ ـ ص٢٦. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٣.

٣% في حين تتخلف دول الاتحاد الأوروبي عن ذٰلكَ منذ منتصف التسعينات»[٩٨].

ثالثاً: التطعيم

في إطار الحاجة الغربيَّة إلىٰ الكفاءات المهاجرة هناك حاجة ماسة يدركها علماء النَّفس المتخصِّصون اسمها التَّطعيم. التَّطعيم إحدىٰ المسائل الحاسمة في عمليَّة رفع وتائر النُّمو والتَّقدُّم في الأمم النَّاهضة والأمم المتقدمة. عمليَّة التطعيم هي وضع الكفاءات العلميَّة المحليَّة علىٰ المحك وعلىٰ وتر التَّحدِّي بملاقحتها بعقليات من أمم أُخْرَىٰ مختلفة عنها تحدث تفاعالات بَيْنَ أنماط التفكير وعقليات التَّفكير المختلفة في طرائق التعامل مع المشكلات وطرائق اقتراح الحلول.

هٰذه العمليَّة تتم غالباً علىٰ نحو تلقائي في المراحل التالية من تمكُّن الأمة وتقدمها. في المراحل التالية وليست الأولى، لأنَّ المراحل التالية يكون الاستقرار قد أخذ فيها نصيبه وبدأت العقول الخارجيَّة بالتوافد إلىٰ هٰذه الأمة، هٰذا من جهة أولى، ومن جهة ثانية فإنَّ نهضة الأمَّة غالباً ما تبدأ من تراث الشعوب الأُخْرَىٰ وثقافاتها الَّتي تكون هي العقول الأجنبيَّة الَّتي تتلاقح معها العقول المحليَّة.

العالم المتقدم اليوم بفضل التطور العلمي والنظريات العلميَّة الَّتي تتناول هٰذا الموضوع صارت تدرك ضرورة هٰذا التطعيم وتعمل علىٰ تحقيقه علىٰ نحو ممنهج ومدروس، فتغير توجهات الرأي العام وضعب الإقبال علىٰ العمل العملي يواجه بالتطعيم الذي يحرض الكفاءات المحليَّة ويحفزها، ومن ذٰلكَ ما تعانية دول

(٩٨) . رويترز: **علماء أوروبا يدعون إلى الحد من هجرة العقول لأميركا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٣/١٠/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١٢/١٢م.

الاتحاد الأوروبي، فحسب قول اللجنة الأوروبيَّة «يحصل الأوروبيون علىٰ درجة الدكتوراة بمعدل أكبر من الأمريكيين، لٰكنَّ قلَّةً تتوجه للعمل في مجال البحوث، وتقول اللجنة إنَّ هٰذا يقوِّض هدفها الرامي إلىٰ زيادة الإنفاق علىٰ ميدان البحوث والتَّطوير إلىٰ ثلاثة في المئة من النَّاتج المحلي الإجمالي»[٩٩]. ولذٰلك لا تجد الدُّوَل بمنظوماتها السِّياسيَّة والتشريعيَّة من غضاضةٍ في رفع القيود عن الكفاءات الوافدة وغضِّ النَّظر عنها حَتَّىٰ مع مخالفتها القوانين. ونضيف إلىٰ ذٰلكَ التَّطعيم الاجتماعي باللاجئين أو الوافدين حَتَّىٰ من غير الكفاءات العلميَّة.

رابعاً: القدرة على الاستيعاب

القدرة علىٰ الاستيعاب شبيه من جهة الصورة بالحاجة، ولٰكنَّ الفرق بينهما كبير في الصورة والمبدأ. الحاجة كما أوضحنا حاجة مستمرة ودائمة وكبيرة طالما أنَّ الأمَّة في طريق التقدم والنمو. أما القدرة علىٰ الاستيعاب فهي قدرة الدَّوْلَة وما فيها من مؤسسات علميَّة وتقانيَّة علىٰ استيعاب أي كفاءة حَتَّىٰ ولو لم يكن اختصاصها موجوداً.

ومع ذٰلكَ لا يمكننا إلا أن نربط هٰذه القدرة علىٰ الاستيعاب بالبنية السُّكانيَّة الغربيَّة التي تفتقر إلىٰ الدِّماء الشَّابة وتضع المجتمع الغربي علىٰ نحو متواصل في مواجهات خطيرة مع الذات وهٰذا موضوع طويل في حقيقة الأمر ناقشته مطولاً في بحثي أزمة اللاجئين قبل الربيع وبعده[١٠٠]. وعلىٰ أي حال فإنَّ هٰذا الترهل السكاني ذا انعكاسات خطيرة علىٰ مختلف المجالات ومنها العلميَّة،

---

(٩٩) . رويترز: **أوروبا تحتاج ٧٠٠ ألف باحث** . الجزيرة نت . السبت ١٤٢٤/٥/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/١٩م.

(١٠٠) . الدكتور عزت السيد أحمد: **أزمة اللجوء قبل الربيع العربي وبعده** . مجلة ذوات . العدد ٣٠ . ٢٠١٦م.

وقد قال مثلاً المجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة «إنَّ أعداد الخريجين المولودين في الولايات المتحدة الذين يختارون مجالات عمل علميَّة أو هندسيَّة أو تكنولوجيَّة في تناقص مستمر»(١٠١). ومثلما هو حال أمريكا هو حال أوروبا ومثلهما اليابان التي «تعاني من ضغوط موضوعيَّة لتخفيف قوانين الهجرة الصارمة ناجمة عن تضاؤل عدد القوى العاملة فيها بسبب تزايد عدد المعمرين وتراجع معدل المواليد»(١٠٢).

علىٰ أيِّ حالٍ، تتمتع الدُّوَل أم الأمم المتقدمة بمرونة كبيرة في القوانين والقرارات الَّتي تتيح لها ديناميكيَّة التعامل مع الكفاءات العلميَّة الغريبة وغير الموجود مثيل لها بأن تفتتح لها فروعاً تطبيقيَّة أو مخبريَّة تسمح لها بمزاولة خبرتها واختبارها وتطبيقها وإنتاجها. الدُّوَل بما هي مؤسسات رسميَّة بعيدةً غالباً عن هٰذا السِّياق والأمر منوط بالمخابر والمراكز والمؤسسات البحثيَّة ذاتها الَّتي تقوم بهٰذه المبادرات من دون تعقيدات تعيق الأمر.

في العالم المتطوِّر تتمتع المؤسسات العلميَّة والتقانيَّة ومراكز الأبحاث بديناميكيَّة عالية ومرونة كافية لتقبل أي فكرة ابتكاريَّة ومنح صاحبها الفرصة تلو الفرصة وتقديم كل ما يلزم له للتجريب والاختبار والتطبيق والتنفيذ والإنتاج. وهٰذا أمر شبه ممتنعٍ في دول العالم المتخلِّف ناهيك عن الممارسات المعاكسة لذٰلك تماماً في محاربة الكفاءات الَّتي يحتاجون إليها فكيف باختصاصات غريبة أو غير موجودة؟!

---

(١٠١) . وكالات أنباء: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** . مصدر سابق.

(١٠٢) . الجزيرة نت: **اليابان تخفف شروط هجرة خبراء المعلومات إليها** . الجزيرة نت . الأربعاء ١٤٢١/١٠/١٥هـ الموافق ٢٠٠١/١/١٠م.

هٰـذا السُّـلوك المبـادر لا تجهلـه الكفـاءات العلميَّـة وتدركـه تمـام الإدراك بالحـدس قبـل النقـل والتَّـواتر، وفي هٰـذا مـا يفـتح آفاقـاً واسـعةً للتَّفكـير هجـرة الكفاءات من دون أن تسعىٰالدُّوَل المتقدمة إلىٰ الكشف عن ذٰلكَ.

خامساً: التحفيز العلمي

الفرق بَيْنَنا وبَيْنَ الغرب كما قال أحد أدباء الشَّرق هو أنَّ الغرب يأخذ بيد العادي حَتَّىٰ يصير مبدعاً، بَيْنَما نحن في الشَّرق نقف أمام المبدع حَتَّىٰ نحبطه ونحول بَيْنَه وبَيْنَ الإبداع.

هٰذه الدَّعابة الحقيقيَّة هي حقيقة الموقف الغربي من الكفاءات العلميَّة، إنَّهَا تقوم علىٰ التَّحفيز والتَّحريض علىٰ الإبداع.

الأمر ليس بهٰذه الصُّورة الورديَّة تماماً حَتَّىٰ لا تذهب بنا الخيالات إلىٰ حارة الأوهام، ولٰكنَّهُ ينطوي علىٰ مستوىٰ غير قليلٍ من هٰذه الصُّورة علىٰ النَّحو الَّذي أوضحناه سابقاً. وفي هٰذا الموضوع ما يفسِّر لنا لما ينبغ الشَّرقيون في الغرب ويلا ينبغون في الغرب، ليس بالمطلق وإنما لنسبة غير قليلةٍ. الأمر منوطٌ بالسِّياسة الغربيَّة في التَّحفيز، يعني أنَّ القدرات الكامنة قابلة للتَّحقُّق، من ثمَّ الغرب لا يصنع المبدعين من غير القادرين وإنَّمَا يفجر الطاقات الخلاقة الكامنة عند الأفراد، وهٰذا ما يفسِّر لماذا نبغ كثيرٌ في الغرب وكنا نعرفهم عاديين.

يسير التحفيز العلمي في مختلف المسارات الممكنة التي تؤدِّي إلىٰ نتيجة جيدة تصب في صالح الدولة والاقتصاد والمجتمع، وعلىٰ سبيل المثال «ويتجلَّى ذٰلكَ في الدول الصناعيَّة الكبرى ليس فقط من حيث التمويل الحكومي بل التمويل الذي تقوم به الشركات الكبرى حيث تقدم هٰذه الشركات أكثر من ٥٠% من مجمل تمويل الأبحاث بالعالم ودافعها الوحيد وراء هٰذا الإنفاق الضخم

هو المصالح التجاريَّة مثال: أسُّس أساتذة MIT في أمريكا شركات كان إنتاجها ٦٠٠ مليار دولار سنوي، ما يعادل الناتج القومي الإجمالي للوطن العربي بكامله، ولذا نقول لا يمكن الفصل بَيْنَ عالم التعليم وعالم العمل فهما متشابكان بل إن الجامعات والشركات تتجه الواحدة نحو الأُخْرَىٰ»[١٠٣]. ولهذا ما يفتقر إليه بل لا يعرفه عالمنا العربي....

في هذا الأمر بحدِّ ذاته، وفي غيره، ما يمثِّل إغراءً لأصحاب الكفاءات وأصحاب الطموحات والطاقات الكامنة للهجرة إلىٰ العالم المتقدِّم؛ العالم الغربي. ومع ذَلكَ فإنَّ العالم الغربي يستخدم استقطاب الكفاءات الأجنبيَّة في عمليَّة التَّحفيز لكفاءاته العلميَّة.

سادساً: التخطيط

وممَّا يقوم بعمليَّة الإغراء والاستقطاب بالطَّريقة السَّابقة ذاتها التَّخطيط والبرمجة والتَّنظيم الَّذي تقوم عليه الحضارة الغربيَّة اليوم. هذه الإجراءات أمور يفترض في أي حضارة متقدِّمة أن تقوم عليها ذَلكَ أنَّ مثل هذه الإجراءات هي عماد ديمومة القوَّة التَّقدُّم. وهذا ما هو عليه الغرب بالفعل اليوم ومنذ عشرات السِّنين. غالباً ورُبَّما دائماً ما تكون للمؤسَّسات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والتِّجاريَّة والعلميَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة مخططات لسنوات كثيرة إلىٰ الأمام تسير علىٰ هديها ولا تجعلها تتصادم تصادفاً مع مشكلاتٍ غير محسوبةٍ ولا متوقَّعةٍ في السِّياق الطَّبيعي للنُّمو. وعلىٰ هذا الأساس نجد هذه المؤسَّسات قاطبة تعرف احتياجاتها دائماً قبل وقت كاف ومنها احتياجاتها إلىٰ الكفاءات العلميَّة من

(١٠٣) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. جريدة تشرين . دمشق . عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.

مختلف المستويات، وعلىٰ هٰذا الأساس تستقطب الكفاءات بطريقة ممنهجة علىٰ الرَّغْمِ من الأمور الطَّارئة الَّتي تقع في إطار هجرة الكفاءات العشوائيَّة.

مسألة التَّخطيط مسألة طويلة وشواهدها أكثر من أن تحصى، بل الحقيقة أن كل ما سبق وكل ما سيأتي يمكن أن يدرج تحت بند التَّخطيط، ولذٰلك لا حاجة بنا للتَّكرار، ولنأخذ مثلاً المجلس القومي للعلوم في الولايات المتَّحدة الذي أوصى في أواخر عام ٢٠٠٣م «بإتاحة المزيد من المنح الدِّراسيَّة والمساعدات الماليَّة وغيرها من الحوافز للطلاب الأميركيين»(١٠٤). زيادة عن المخصصات السَّابقة تلبية لمخطَّطات النُّمو العلمي والتقاني...

يؤمن العالم المتقدم عامَّة بأنَّ أي تقدم في أي مجال من مجالات الحياة ينعكس علىٰ الجميع، وعلىٰ هٰذا الأساس يسير التَّخطيط الشأَّمل، وعلىٰ هٰذا الأساس أكَّد المتحدِّث باسم وزير الهجرة الاسترالي «أنَّ خطَّة الإصلاح ستعود بالنَّفع علىٰ قطاع تكنولوجيا المعلومات، وعلىٰ عاملين في قطاعات أُخْرَىٰ كذٰلكَ»(١٠٥).

وبمثل هٰذا المعنى قال وزير الاتصالات **رتشارد آلستون** «إنَّ زيادة حجم الإنفاق العام علىٰ البحوث ومنح الجامعات حوافز تشجعها علىٰ تسويق الابتكارات البحثيَّة تجاريًّا، وتخفيف القيود المفروضة على استقدام المختصين في تقنية المعلومات»(١٠٦).

---

(١٠٤) . وكالات أنباء: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** . مصدر سابق.

(١٠٥) . أسوشيتد برس: **في خطة لتعزيز تكنولوجيا المعلومات؛ أستراليا تخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر** . الجزيرة نت . الإثنين ١٤٢١/١٠/٢٧هـ الموافق ٢٠٠١/١/٢٢م.

(١٠٦) . المصدر السابق.

سابعاً: حرمان دول المنبت

إذا كانت كلُّ الأسباب السَّابقة من العامل الخارجيِّ أسباباً فيها شيءٌ من المنطقيَّة أو الأخلاقيَّة بغضِّ النَّظر عن تباين الآراء ووجهات النظر فإننا هنا أمام سبب يخلو تماماً من الأخلاقيَّة والمنطقيَّة معاً.

الدُّوَل المتقدِّمة تقوم فيما تقوم عليه علىٰ العدوان علىٰ العالم الثالث أو الشَّرقي ونهب ثرواته وخيراته من دون ثمن أو بأثمان أشبه بالعار. «وفي هٰذا الإطار تأطرت هجرة الأدمغة أو هجرة الكفاءات، من الوطن العربي والعالم الثالث، إذ إنَّ الدُّول المستقوية استخدمتها بمكرٍ ودهاءٍ للاستفادة منها وحرمان الدُّول الأُخْرَىٰ من تلك الفائدة»(١٠٧).

وفوق ذٰلكَ تعمد دول العالم الغربي إلىٰ سرقة كفاءات الشَّرق ورُبَّما منها العربيَّة والإسلاميَّة علىٰ وجه التَّخصيص والتَّحديد أو التَّفضيل لغايةٍ خبيثةٍ هي حرمان دول الشَّرق من الاستفادة من هٰذه الكفاءات في أي ميدان من ميادين احتياجاتها... في أي ميدان يمكن أن يدفعها قدما إلىٰ الأمام في أي مجال أو ميدان وخاصَّةً الميادين التقانيَّة والعسكريَّة وحَتَّىٰ الاقتصاديَّة. «إنَّ وجود هٰذه الظاهرة يعود في أقوى أسبابه إلىٰ تخطيطٍ ماكرٍ من قبل الدُّول الاستعماريَّة سابقاً كالإغراءات الماديَّة وسن القوانين التي تسهل السبيل لهجرة هٰذه الكفاءات إليها وتحفزها علىٰ الاستقرار فيها، بعد أن تجذبها جذباً، لا دافع له، إلىٰ حد يمكن وصفه بسرقة القوي للمستضعف أو الغني للفقير»(١٠٨).

---

(١٠٧) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(١٠٨) . المصدر السابق.

يمارس العالم الغربي هٰذا السلوك بمختلف السبل والطرق والاحتمالات الممكنة والمحتملة ويستخدم لذٰلك كل الإمكانات الواقعة والمتوقعة والمحتملة لا يبالي بقانون ولا بأخلاق في سبيل ذٰلكَ حَتَّىٰ وصل الأمر إلىٰ حدِّ اغتيال الكفاءات العلميَّة الَّتي ترفض التَّعاون معه بالصِّيغة الَّتي يريدها هو وترضيه ويرضىٰ عنها وقد تحدثنا في ذٰلكَ سابقاً ذاكرين بعضاً من أسماء هٰذه الكفاءات الَّتي امتدت إليها يد الاغتيال... وقيدت ضدَّ مجهول. الغرب الَّذي عودنا علىٰ الإمساك بالمجرم بعد ساعات أو أيام حَتَّىٰ اليوم لم يكشف عن قاتلي الكفاءات العلميَّة العربيَّة علىٰ الرَّغْمِ من مضي عشرات السِّنين علىٰ أكثرها.

وفي هٰذا في هٰذا لإطار تقوم سياسات العالم الغربي علىٰ استقطاب كفاءات من طراز معين ومستوىٰ معين ولا تعنىٰ هنا بالكفاءات كلها من مختلف المستويات، وإنما تقوم بالتركيز علىٰ كفاءات من مستوىٰ معين في ميادين معينة.

تجدر الإشارة هنا إلىٰ أنَّ الأولويات والدَّرجات أو المستويات المطلوبة وحَتَّىٰ الميادين وإن بقيت ثابتةً نوعاً ما إلا أنَّها تتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمعطيات الحضاريَّة والتَّاريخيَّة، ذٰلكَ أنَّ هٰذه السِّياسة يمارسها الغرب منذ مطالع القرن العشرين إثر وضع المخطَّطات الغربيَّة لمستقبل المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة في مطلع القرن العشرين. «وتكتسب هٰذه الظَّاهرة بعداً مأساويًّا عندما يكون انتقال الكفاءات ممن هو في أمسِّ الحاجة إليها إلىٰ من هو أقل حاجة إليها ويستخدمها استخداماً استغلالياً مقصوداً لمزيد من الاستقواء والهيمنة والتسلط على الآخر بانتهاج سياسات أنانية ظالمة مبرمجة مسبقاً تستهدف فرض التَّخلف عليه»[١٠٩].

(١٠٩) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . مصدر سابق.

ولهذا في الحقيقة موضوعٌ طويلٌ وغنيٌّ يستحقُّ وقفة بل وقفات مطولة نأمل أن تتاح لنا العودة إليه أو مثله لاحقاً. علىٰ أنَّ ما لا بُدَّ من توضيحه علىٰ وضوحه أنَّ هٰذا السُّلوك خسيسٌ لأنه يقوم علىٰ وعي واضح بسرقة هٰذه الكفاءات لحرمان العالم الشَّرقي من النهوض والتقدم والتطور، وقد قال المؤرخ والفيلسوف البريطاني **بول كيندي** في كتابه «التَّحضير للقرن الحادي والعشرين: إنَّ العوامل الكامنة وراء التقدم الاقتصادي والاجتماعي لدول جنوب شرق آسيا ترجع إلىٰ حجم التَّوظيفات في الإنسان (تعليماً وتخصصاً عالياً وبحثاً علميًّا) أكثر مما ترجع إلىٰ حجم التوظيفات في الرساميل»(١١٠).

ولهٰذا السبب يعمد الغرب إلىٰ حرمان الشرق ومنهم العرب خاصَّةً من فرص النُّموِّ هٰذه، ولذٰلك لم يخطئ الدكتور **المهدي المنجرة** عندما ذهب إلىٰ أنَّ هجرة الكفاءات تؤدِّي إلىٰ «تشجيع الخمول الوظيفي وتكريسه وتدبير الرَّداءة الخاضعة التي تُسهل وتُكرس الرِّشوة والفساد وانتهاك الحقوق الإنسانيَّة والخنوع والذل والخضوع غير المشروط والتام للقوى العظمى»(١١١).

ثامناً: الإغراءات المادية

لم تعد الإغراءات الماديَّة أمراً جديداً علىٰ ضوء ما سبق، باتت بحكم تحصيل الحاصل. ولٰكنَّ الأمر يتجاوز ذٰلكَ أيضاً. ولذٰلك يمكن الحديث علىٰ الإغراءات الماديَّة علىٰ أكثر من مستوىٰ وأكثر من نوع.

في المستوىٰ الأول من الإغراءات الماديَّة للكفاءات العلميَّة مرتبط بالحال الاقتصاديَّة وارتفاع مستوىٰ دخل الكفاءات العلميَّة بقطع النظر عن انتمائهم

(١١٠) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. مصدر سابق.

(١١١) . المهدي المنجرة: **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . مصدر سابق م.

وأصولهم. وهٰذا الفارق بَيْنَ دخول الكفاءات ودخول غيرهم مرتبطٌ بالتَّقدير المنطقيِّ للخبرة والكفاءة وإدراك ما تعانيه وتنفقه لتصل إلىٰ هٰذا المستوىٰ الَّذي هي عليه من تفرُّدٍ أو تميُّزٍ أو كفاءةٍ. وفي هٰذا السِّياق جاء في خطاب رؤساء أكاديميات العلوم الأوروبيَّة في رسالة إلىٰ المجلس الأوروبي أنَّ «الولايات المتحدة تعتزم زيادة الإنفاق بما يزيد على ٢٠% خلال الفترة بَيْنَ عامي ٢٠٠١م و٢٠٠٢م. وأضاف أنَّهُ يتعين علىٰ الاتحاد الأوروبي تطبيق النظام الجامعي الأمريكي وأن يصبح أكثر انفتاحاً وفعاليَّةً ومرونةً وأن يتيح للإنفاق الحكومي التَّركيز علىٰ الأبحاث الأساسيَّة ويترك لقطاع الأعمال الاهتمام بالتَّنمية والبحث التَّطبيقي»[١١٢].

في المستوىٰ الثاني نجدنا أمام البعد المقارن بَيْنَ الدُّخول الماديَّة للكفاءات بَيْنَ بلدانها وبلدان اللجوء أو المهجر. وفي هٰذا عامل مهم من عوامل جذب الكفاءات وتحريضها علىٰ الهجرة بغضِّ النَّظر عما يمكن أن يمارس تجاهها من عمليات جذب أو إغراء. وفي هٰذا السياق نشرت مجلة ديرشبيجل في أواخر عام ٢٠٠٠م مقالاً عن أولويات الحكومة الألمانيَّة لعام ٢٠٠١م جاء فيه: «أنَّ أولويات ألمانيا اليوم في استراتيجيتها الجديدة تكمن في الحفاظ علىٰ الكفاءات والمواهب الموجودة لديها، وتمكينها من التطور والانفتاح نحو العالم وكذٰلكَ العمل علىٰ اصطياد العقول في العالم واستيعابها داخل المجتمع الألماني»[١١٣].

---

(١١٢) . رويترز: **علماء أوروبا يدعون إلى الحد من هجرة العقول لأميركا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٣/١٠/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١٢/١٢م.

(١١٣) . الدكتور فواز أسعد: **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!**.. جريدة تشرين . دمشق . عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.

في المستوىٰ الثَّالث نجدنا أمام عمليات الإغراء المادي الَّتي تمارسها دول العالم المتقدِّم لاستقطاب الكفاءات من دول العالم الشَّرقي وغيرها مباشرة أو عن طريق الشَّركات أو مؤسَّسات البحث العلمي ومراكز الأبحاث وغيرها. تمارس هٰذه الإغراءات بطرق متعدِّدة منها المباشرة ومنها غير المباشرة، وأغلب ما يكون ذٰلكَ مع الكفاءات المتميِّزة والفريدة، وأغلب ما يكون أيضاً الكفاءات الَّتي توفد للتَّخصص في الغرب فتقدم لهم العروض المختلفة للبقاء بإغراءات مختلفة يقع الكثيرون في أفخاخها بالمقارنة بَيْنَ ما سيكونون عليهم في بلادهم وما هو عليه حالم وما سيكون في بلاد الغرب. وبهٰذا المعنى قالت **نانسي بيردسال** المستشارة في برنامج الأمم المتحدة: «في سوق عالميَّة يهاجر بالطبع من يتمتَّعون بمهارات كبيرة إلىٰ جبهة بها تكنولوجيا متقدِّمة تدفع رواتب مرتفعةً أينما كانت»(١١٤).

تاسعاً: رفع قيود الهجرة عن الكفاءات

بسبب ما سبق كله متفرقاً ومجتمعاً وجدت الدول المتقدمة نفسها أمام ضرورات تتجاوز قوانينها وتتطلب منها سنَّ تشريعات جديدة وخاصَّة باستقطاب الكفاءات العلميَّة من دول العالم الأُخْرَىٰ، ولم تجد هٰذه الدُّوَل بمنظوماتها السِّياسيَّة والتشريعيَّة من غضاضة في رفع القيود عن الكفاءات الوافدة وغضِّ النَّظر عنها حَتَّىٰ مع مخالفتها القوانين.

(١١٤) . رويترز: **هجرة الخبراء الآسيويين تكلف القارة مليارات الدولارات** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٨/٤/١٤٢٢هـ الموافق ١٠/٧/٢٠٠١م.

في مطلع عام ٢٠٠١م قال رئيس الوزراء الأسترالي **جون هوارد** «إنَّ حكومته أعدَّت خطةً تنمويَّةً كبيرةً لتعزيز قطاع تكنولوجيا المعلومات في البلاد، بما في ذٰلكَ تخفيف القيود المفروضة على هجرة المختصين في مجال تقنية المعلومات إليها. وأضاف أنَّهُ سيعلن عن تفاصيل الخطة الأسبوع المقبل واصفاً إيَّاها بأنَّهَا أكبر خطَّة إصلاحٍ في مجال العلوم والبحوث والتكنولوجيا علىٰ الإطلاق»(١١٥).

وأيضاً في مطلع عام ٢٠٠١م قالت صحيفة نيهون كيزاي شيمبون «إنَّ اليابان قد تخفف من قيود الهجرة المفروضة علىٰ دخول خبراء تكنولوجيا المعلومات الأجانب إلىٰ البلاد وذٰلكَ في إطار مساعيها لأن تصبح أكبر بلد في العالم في هٰذا المجال»(١١٦). وفي هٰذا السِّياق سبق أن أعلن رئيس الوزراء **يوشيرو موري** أنَّهُ جعل من تكنولوجيا المعلومات موضوعاً رئيساً في سياسته. وذكر أنَّهُ يخطِّط لاستقدام ٣٠ ألف أجنبي ممن لهم خبرة في تكنولوجيا المعلومات بحلول عام ٢٠٠٥م.

هٰذان أنموذجان فقط ولٰكنَّ الدول الأوروبيَّة كلها وأمريكا شرعت مثل هٰذه القوانين بطريقة أو بأخرى وأعلنت رغبتها هٰذه في رفع القيود عن هجرة الكفاءات إليها من بلدان العالم الأُخْرَىٰ. وعلىٰ هٰذا الأساس فإنها وإن لم تقم بوضع تشريعات لهٰذا الشأن فإنها فتحت باب التفكير والتيسير؛ باب التفكير

---

(١١٥) . أسوشيتد برس: **في خطة لتعزيز تكنولوجيا المعلومات؛ أستراليا تخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر** . الجزيرة نت . الإثنين ١٤٢١/١٠/٢٧هـ الموافق ٢٠٠١/١/٢٢م.

(١١٦) . الجزيرة نت: **اليابان تخفف شروط هجرة خبراء المعلومات إليها** . الجزيرة نت . الأربعاء ١٤٢١/١٠/١٥هـ الموافق ٢٠٠١/١/١٠م.

للكفاءات بالهجرة إليها، وباب التيسير أمام مؤسساتها القضائيَّة المختصة لعدم إعاقة إقامة الكفاءات العلميَّة فيها.

وما لا بُدَّ من إيضاحه هنا هو أنَّ رفع القيود لهٰذا يأتي أيضاً في سياق «تخطيط ماكر من قبل الدول الاستعماريَّة سابقاً كالإغراءات الماديَّة وسن القوانين التي تسهل السبيل لهجرة هٰذه الكفاءات إليها وتحفزها علىٰ الاستقرار فيها، بعد أن تجذبها جذباً، لا دافع له، إلىٰ حد يمكن وصفه بسرقة القوي للمستضعف أو الغني للفقير»(١١٧).

عاشراً: تحقيق الذات الإبداعية

السَّبب أو العامل الأساس في هجرة الكفاءات هو الَّذي أغفله الجميع تقريباً ومن اقترب منه اقترب عرضاً أو مصادفة، هٰذا العامل هو الرَّغبة العارمة عند المبدع أو الكفاءة الإبداعيَّة لتحقيق ذاتها الإبداعيَّة. مسألة تحقيق الذَّات الإبداعيَّة مسألة لا يدركها إلا المبدعون في حقيقة لأنهم وحدهم يعيشون معاناة السَّعي لتحقيق الذَّات الإبداعيَّة، والاختناق من عدم تفريغ طاقاتهم الإبداعيَّة وأفكارهم الَّتي يحملونها مهما كان ميدان عملهم أو موهبتهم الإبداعيَّة. وبمعنى أو بآخر عَبَّرَ عن هٰذه الحقيقة **روبرت مكنامارا** وزير الدَّفاع الأمريكي الأسبق ومدير البنك الدولي سابقاً بقوله: «إن الأدمغة كالقلوب تذهب حيث تُقدر حقَّ قدرها»(١١٨).

---

(١١٧) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(١١٨) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

الدكتور **عبد الله الجعيدي** المغترب العربي يسير في هٰذا السِّياق تارةً فيقول: «ونحن نعتقد أنَّ هجرة الأدمغة في الظُّروف الطَّبيعيَّة أمرٌ إيجابي وبنَّاء يوزع الكفاءات حيث يمكن الاستفادة منها ويمكّن صاحب الكفاءة من بناء النفس والحصول علىٰ مكافأة تجزيه علىٰ ما تكبده من جهد وما منحه الله من قدرات مكنته مما وصل إليه»[١١٩]. وتارة يناقض نفسه في أكثر من موضع فيهاجم هجرة الكفاءات ويهاجم الغرب الذي يستقطبها.

تحقيق الذَّات الإبداعيَّة في حقيقة الأمر مسألةٌ مستقلَّةٌ عن العوامل والأسباب السَّابقة كلها ورُبَّما من دون استثناءٍ، لأنَّ الرَّغبة في تحقيق الذَّات الإبداعيَّة هي الَّتي تقود الكفاءة أو المبدع للبحث عن المكان الَّذي يخرج فيها أفكاره وطاقاته الإبداعيَّة بغضِّ النَّظر عن أيِّ ظروفٍ أو شروطٍ أو معطياتٍ من أيِّ نوع إلا اللهم المبادئ والعقائد الَّتي تحكم بعض المبدعين، ورُبَّما بعض المعطيات السِّياسيَّة الَّتي تتحكم ببعض المبدعين والكفاءات العلميَّة وتفرض عليهم الابتعاد عن خيارات معيَّنة أو الالتزام بخيارات معيَّنة. وفي هٰذا ما يفسر لنا غالباً قبول الكفاءات العلميَّة والمبدعين بشروط وظروف ماديَّة عادية أو رُبَّما صعبة مقابل فتح المجال أمامهم لتفريغ طاقاتهم الإبداعيَّة.

أكثر المبدعين تحركهم هٰذه الغريزة في البحث عن المكان الَّذي يتيح لهم تفريغ طاقاتهم الإبداعيَّة وتحقيق ذواتهم الإبداعيَّة ولذٰلك من الصُّعوبة بمكانٍ التَّعويل علىٰ الأسباب السَّابقة كلها أو أيٍّ منها من دون أخذ هٰذا السَّبب بعين النَّظر والحسبان والاعتبار.

---

(١١٩) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

لا يمكن أن ننكر أو نغفل أو نسقط العوامل والأسباب السَّابقة كلها ولا بعضها، فكلها مثانياً وثلاثاً ورباعاً ومتفرقة ومجتمعة اجتماعاً لها أثر في هجرة الكفاءات يكبر أو يصغر تبعاً لشخصيَّة الكفاءة وطريقة تفكيرها وبيئتها وأرضيتها الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والأخلاقيَّة وغيرها وحَتَّىٰ ميولها وأهوائها وميدانها الإبداعي وغير ذَلكَ غير قليلٍ. ولَكنَّهَا كلها عند أكثر المبدعين أو الكفاءات العلميَّة مقترنة اقتراناً كبيراً بعامل تحقيق الذَّات الإبداعيَّة. وعلىٰ هٰذا الأساس يمكن القول بجرأة ومن دون تردُّدٍ إنَّ أكثر هَؤلاء المبدعين يقيسون المغريات والجواذب والمحرضات الطَّاردة مع عامل تحقيق الذَّات الإبداعيَّة وهٰذا العامل هو الَّذي يرجح القرار النِّهائي.

تقدير الكفاءات العلمية

لا نريد أن نطيل هنا، فهٰذا الوجه المقابل لما في العالم العربي من عدم تقدير الكفاءات علىٰ نحوٍ مربكٍ ومحرجٍ في حقيقة الأمر. تقدير الكفاءات في العالم الغربيِّ عامَّة أمر ليس مثيراً للدهشة إلا بالمقارنة مع ما يحدث في العالم العربي والإسلامي. وإنما الغرب في الحقيقة يمارس ما يجب أن يقوم به من تقدير للمبدعين والمتميزين والكفاءات العلميَّة. يتجلَّى هٰذا التَّقدير بمختلف ما يمكن توقعه وحَتَّىٰ عدم توقعه، ولا نقول لا توجد استثناءات.

خاتمة

بعد هٰذا العرض شبه المسهب نوعاً ما لما يقدِّمه العالم المتقدِّم من إغراءات للاستقطاب الكفاءات سواء علىٰ نحو مباشر مقصود أو علىٰ نحو غير مباشر أو غير مقصود، سيبدو لبعض قصيري النظر أنَّ الغرب لا هم له له إلا استقطاب الكفاءات، وأن أي ذاهب إلىٰ الغرب سيكون كساقط من الجحيم في النَّعيم.

أمران كلاهما وَهمٌ. فلا الغرب منشغل كل هٰذا الانشغال باستقطاب الكفاءات واجتذابها ولا كل من يذهب إلىٰ الغرب سيجد نفسه في النَّعيم حَتَّىٰ ولو كان كفاءة ومتميزاً ومبدعاً.

الأمر ليس بهٰذه السَّطحيَّة علىٰ الإطلاق. لا شكَّ في أنَّ الهارب من الجحيم بكلِّ ما فيه من أسباب سبق ذكرها في الفصل السَّابق سيجد أن الحياة في الغرب أفضل وأكثر أماناً. وغالباً ما تكون الفرص أكثر وأوسع... ولٰكنَّ ليس النَّجاح ضروريًّا، ولا أكيداً... حَتَّىٰ للأذكياء ولا النبهاء ولا الكفاءات بالمعنى الأوسع.

بل في بعض الأحيان قد تكون الهجرة عاملاً من عوامل تدمير الذَّات الإبداعيَّة أو إحباطها. لقد شاهدنا في الغرب مختلف النماذج من المهاجرين العاديين أو الذين كفاءات أو مشاريع كفاءات.

الحقيقة التي يجب أن تكون واضحة هي أنَّ المهاجر لا بدائل أمامه في الغالب إلا النَّجاح، وفرص التفكير والخيارات مغلقة أمامه بالقياس إلىٰ وطنه، حَتَّىٰ إذا اختار الفساد أو سلوك الخطأ فإنَّهُ محكومة بقوانين صارمة ونتائج قاسية تجعله يحجم عن هٰذا التَّفكير ويبتعد عنه لأنَّهُ غريبٌ، والغريب محكومٌ بقوانين وأعرافٍ وطرائق تفكيرٍ مختلفةٍ تماماً عن أبناء البلد الذي هو فيه، ومختلفة عن كونه في بلده.

الفصل السابع

العامل التاريخي

كان من الممكن أن نخصص فصلاً للعامل الشَّخصي أو العوامل الشَّخصيَّة في هجرة الكفاءات تتناول الأسباب الشَّخصيَّة للكفاءة ذاتها في توجهها إلىٰ الهجرة خارج الوطن، ولكننا آثرنا إدراجها ضمن العاملين السَّابقين؛ الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

العوامل الشَّخصيَّة في هجرة الكفاءات نوعان أو مستويان مستوًىٰ محض شخصيٍّ وهنا يمكن أن نجدنا أمام عاملين أو ثلاثة عوامل كبرىٰ أساسيَّة عي ضعف الانتماء والرغبة في تحقيق الذَّات الإبداعيَّة، ورُبَّما يضيف غيرها عاملاً أو اثنين لا ندري، والمستوىٰ الثاني هو العوامل المندمجة بالضَّرورة مع العوامل الأُخْرَىٰ الدَّاخليَّة أو الخارجيَّة مثل عدم تقدير الكفاءات وضعف الدخل وغير ذٰلكَ كثيرٌ إلىٰ درجة أنَّهُ يمكن القول إنَّ كلَّ الأسباب الأُخْرَىٰ الدَّاخليَّة والخارجيَّة مندمجةٌ وغير منفصلةٍ عن العامل الشَّخصي. ولذٰلك آثرنا عدم التَّكرار ولاقتصار علىٰ العاملين الدَّاخلي والخارجي مع هٰذا العال التَّاريخي الَّذي لا ينفصل أيضاً في بعض وجوهه عن العامل الشَّخصي.

أوضحنا في الفصل قبل السَّابق العامل الدَّاخلي وبيَّنا أنَّهُ عامل الطَّرد المحلي المتمثِّل بمجموعةٍ من الأسباب الَّتي قد يصعب حصرها أو تقييدها، وهي من وجهة نظرنا أسبابٌ عامَّةٌ خاصَّةٌ في آن معاً. وأشرنا إلىٰ مسألةٍ مهمَّةٍ وهي أنَّ هجرة الكفاءات بسبب عامل الطَّرد أو الدَّفع

الـدَّاخلي ليسـت واجبـة الانطبـاق علـىٰ الكفـاءات المهـاجرة كلِّهـا بالضَّـرورة، قـد تنطبـق كلُّهـا علـىٰ هٰـذه الكفـاءة أو تلـك، ولٰكـنَّ هٰـذا اسـتثناء، وقـد يكـون سـببٌ واحـدٌ مـن الأسـباب وراء هجـرة هٰـذه الكفـاءة أو تلـك، وقـد يكـون أكثـر مـن سـبب. إلاَّ أنَّ الجـدير ذكـره هنـا هـو عوامـل الطـرد الـدَّاخلي غالبـاً مـا تكـون بنيـة متكاملـة يـؤازر بعضـها بعضـاً في ممارسـة عمليَّـة طـرد الكفـاءات، تظهـر في سـبب مـن الأسـباب أو أكثـر عنـد كـل واحـد مـن الكفـاءات المهـاجرة، ولكـلٍّ واحـدٍ منهـا أيضـاً شخصـيَّته وخصوصـيَّته في التَّفاعل مع هٰذه الأسباب بالجملة ومع أحدها أو بعضها دون غيرها.

أمَّـا العامـل الخـارجيُّ الَّـذي كـان موضـوع الفصـل السَّـابق فهـو عامـل الاستقطاب أو الجذب الموجود بطبيعة الحال في بينة الدُّولالمتقدمة المتمثلة بالعالم الغربي اليوم، أو الَّذي تمارسه هٰذه الدُّولالمتقدِّمة بالإرادة والقرار من أجل اجتذاب أو سرقة الكفاءات العلميَّة في العالم الشَّرقي خاصَّة والعالم الثالث عامَّة.

لم نخرج عن السِّياق العام في النَّظر إلىٰ أسباب هجرة الكفاءات من ناحية تقسيمها إلىٰ داخليَّة وخارجيَّة. ولٰكن كانت هناك بعض الفروقات والتَّمايزات والاختلافات في التَّفاصيل وحَتَّىٰ بعض الأسباب، ومن ناحية البناء والتَّنظيم. اللهم إلا في العامل التاريخي الَّذي سنضيفه إلىٰ الأسباب.

مقدمات ونتائج الهجرة

العامل التَّاريخي الَّذي سنتحدَّث عنه في هٰذا الفصل فهو في حقيقة الأمر ما لم ينتبه إليه أحدٌ من الباحثين، وهو من أخطر العوامل لأنَّهُ يتسلَّل إلىٰ العقليَّة المجتمعيَّة ويسبر أغوار بنية التَّفكير الَّتي جعلت وتجعل الكفاءات الشَّرقيَّة وحدها تهاجر وتبيع عبقريتَّها لأعداء الأمَّة أو خصومها فيما الغربيُّ لا يفعل ذٰلكَ مع

تعرُّضه لأسباب هجرة الكفاءات كلِّها الَّتي يتعرَّض لها الشَّرقي، أي النَّبذ والطَّرد والدَّفع من الدَّاخل، والجذب من الخارج. وعلىٰ هٰذا الأساس نجد أنَّ أسباب الهجرة علىٰ ثلاثة ضروبٍ؛ شدٍّ وحفزٍ خارجيٍّ وله أسبابه. ودفعٍ ونبذٍ داخليٍّ وله أسبابه. وسببٍ تاريخيٍّ.

علىٰ أنَّ الَّذي ينبغي ألا يغيب عن الأذهان هنا هو أنَّ نزيف العقول أو هجرة الأدمغة أو الكفاءات... إنَّما هو النَّتيجة المنطقيَّة للواقع العربي الراهن بمختلف ظروفه ومعطياته. وبغضِّ النَّظر عن الأسباب المباشرة لهٰذه الهجرة أو النَّزيف فإنَّنا في حقيقة الأمر أمام ظاهرة تاريخيَّة لا عرضيَّة، هي ما سميناه بالاستشراق من تحت، والاستغراب من تحت[١٢٠]، بوصفهما السلوكين المقابلين للاستشراق والاستغراب. والكفاءة هنا أو المبدع ذو المنبت المتخلِّف حضاريًّا، إذ ينتمي بإبداعه إلىٰ أمَّة متقدِّمة فإنَّه يمارس ثلاثة سلوكات في آن واحد:

أولاً: في تحقيق الذَّات الإبداعية

إنَّ الكفاءة المهاجرة أو المبدع المهاجر إذ يحقِّق ذاته المبدعة فهو إنَّما ينتمىٰ إلىٰ حضارة أخرىٰ قد تكون معادية لمنبته الحضاري، لأنَّ حاضنته الحضاريَّة إمَّا غير قادرة علىٰ احتواء ملكاته وطاقاته الإبداعيَّة أو بسبب ضغوط الوضعيَّة السِّياسيَّة الاقتصاديَّة الاجتماعيَّة الرَّاهنة في منبته. ولو أنَّ ظروف الوطن تحقق لهم نسبة لا بأس بها من هٰذا الانسجام لما هاجروا. ويؤكِّد ذٰلكَ أدلَّةٌ كثيرةٌ، فمن

(١٢٠) ـ انظر تفصيل هٰذين الاصطلاحين وأبعادهما في بحثنا: **العولمة والغزو الثقافي** . ضمن مجلة؛ **الفكر العربي** . معهد الإنماء العربي للعلوم الإنسانية . بيروت . العدد ٩٦ـ ربيع ١٩٩٩م . ص١٦٨ ـ١٧٣.

خلال مناقشات أجراها **أنطوان زحلان** «مع متخصصين عرب مقيمين في بلدان منظَّمة التَّعاون الاقتصادي والتَّنمية، تبيَّن أنَّ أعداداً كبيرةً من المهاجرين العرب سيكونون مستعدِّين للعمل في الوطن العربيِّ فيما إذا توافرت الظُّروف الملائمة»[١٢١]. و«في عام ١٩٧٨م أجريت دراسة اختباريَّة علىٰ عيِّنةٍ من (٦٥٠٠) من . الكفاءات المهاجرة من العالم الثَّالث ـ أظهرت أنَّ نسبةً عاليةً منهم تخطِّط للعودة إلىٰ بلادها»[١٢٢]. والتَّخطيط للعودة هنا بمعنىٰ الإصرار والتَّصميم سيان تولفرت شروط المناسبة للعودة أم لا، بمعنىٰ أنَّ الراغبين في العودة سيكونون أكثر بكثير في حال توفر الشَّروط المناسبة لهم.

هنا، في هٰذا المستوى من التَّحديد نحن ندور في فلك عوامل الطَّرد الدَّاخليَّة والتركيز هنا يقوم أكثر ما يقوم علىٰ مسألة عجز الدَّاخل عن استيعاب الكفاءات بمختلف مستويات ومعاني عدم الاستيعاب، ودفعها من ثمَّ إلىٰ الهجرة.

هٰذا يعني من ناحية أُخْرَىٰ أنَّ كل مشاعر الانتماء والغربة في العودة إلىٰ الوطن لا قيمة لها ما لم تنتفي شروط طرد الكفاءات القائمة في هٰذا المستوى وهٰذا المؤشر علىٰ العجز عن الاستيعاب بمختلف معانيه ومقاصده.

ومن ثمَّ أيضاً فإنَّ عودة الكفاءة إلىٰ الوطن بعد التقاعد وانتهاء القدرة علىٰ العطاء من أجل الموت في الوطن لا تختلف مطلقاً عن العودة علىٰ النَّعش أو في التَّابوت.

---

(١٢١) . أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السِّياق القومي والدولي** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ١٥٩ . ٥/ ١٩٩٢م . ص١٦.

(١٢٢) . **الأدمغة المهاجرة... تعود إلىٰمواطنها عبر الإنترنت** . ضمن جريدة؛ **الاتحاد** . م. س.

ثانياً: في تعزيز وطن المهجر

من ناحية ثانية فإنَّ الكفاءة المهاجرة أو المبدع المهاجر يساهم في بناء الحضارة الرَّائدة وتعزيزها وترسيخها، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نزعم أنَّ هٰذه الأمَّة الرَّائدة قادرة علىٰ الاستغناء عن جهود هٰذه الكفاءات المغتربة عن أممها، ولٰكنَّنا لا نستطيع زعم أنَّهَا ما كانت لتقوم لولا هٰذه الكفاءات لأنَّ هٰذه الكفاءات ما كانت لتتغرَّب إليها لولا أنَّها في المقدِّمة. ولٰكنَّهَا إذ اندمجت في هٰذه الحضارة وصارت جزءاً منها فقد صارت لبنات أساسيَّة منها حتَّىٰ ليشكِّل غيابها فجوةً يصعب سدُّها.

وبهٰذا المعنىٰ فإنَّ الفضل بَيْنَ الكفاءة المغتربة والأمَّة المحتضنة إنَّما هو فضلٌ متبادلٌ في الوقت ذاته، وليس فضلاً من جانب واحدٍ. وليس أدلَّ علىٰ ذٰلكَ من الإنجازات الَّتي أبدعتها الكفاءات المغتربة من جهةٍ أولى، ومن جهةٍ ثانية أنَّ هٰذه الكفاءات ما لها أن تنجز ما أنجزت، بمعنىٰ من المعاني، لولا التَّقدُّم العلمي والتَّقاني في البلدان الَّتي تحتضنهم، أو بمعنىٰ آخر لولا تأمين الشَّروط المناسبة لهٰذه الكفاءات كي تحقِّق ذاتها المبدعة.

وعلىٰ أي حالٍ، وعلىٰ أي تصور، تبقى هنا حقيقةٌ واحدةٌ فوق الاعتبارات جميعها وهي الكفاءات المهاجرة تضع عقلها وقدراتها الخلاقة في خدمة أمَّةٍ معاديةٍ لأمَّته، ويصحُّ هٰذا تحديداً علىٰ الكفاءات العربيَّة والإسلاميَّة في الغرب، وتقلُّ صحته علىٰ غيرهم من أمم الأرض الأُخْرَىٰ وعقائدها، تقلُّ ولا تنتفي ولا تنعدم.

معادة الغرب للشرق مسألة باتت بحكم البداهة وهي بالأصل تاريخيًّا كذٰلكَ. معاداة الغرب للشرق مسألة سابقةٌ علىٰ الإسلام ولاحقةٌ

عليه. أعني أنَّ عداء الشرق للشرب ليس ناجماً عن الإسلام وحسب، وإنما هو مسألةٌ سابقةٌ علىٰ الإسلام، ثمَّ تعمق العداء أكثر بكثير بعد ظهور الإسلام وأخذ مدى وبعداً جديداً. ولهٰذه مسألةٌ طويلةٌ لا مكان لها هنا، أفردنا لها بحثاً مستقلاً[١٢٣].

ثالثاً: في هدم وطن المنبت

من ناحيةٍ ثالثةٍ فإنَّ هجرة الكفاءات بقدر ما تخدم وتعزِّز حضارة الآخر، الَّذي هو في هٰذا السِّياق الأمَّة أو الأمم المعادية لأمته، فإنها تقوم بهدم الوطن المنبت، الوطن الأصلي.

قد يصعب القول إنَّ الكفاءة أو المبدع المهاجر يهدم منبته الحضاري، ولٰكنَّهُ في أحسن الاحتمالات يقبل أن تظلَّ أمَّته رازحة بَيْنَ براثن التَّخلُّف، اللهمَّ إلاَّ إذا مارس دوراً قصديًّا في هٰذا الهدم، وباستثناء هٰذا الأمر لا يمكننا أن نعدَّ هٰذا المبدع المندمج مع حضارة الأمَّة الرَّائدة خائناً ولا عميلاً لعدَّة أسباب:

أوَّلها أنَّ هٰذا الاندماج مع الآخر ليس يعني بالضَّرورة التَّخلِّي عن الانتماء الأصلي. بل أثبت الواقع أنَّ أكثر المهاجرين من كفاءات ومن غير الكفاءات يظلون متعلقين بالوطن تعلقاً عشقيًّا، ويظلون يتغنون بيوم الرجوع إلىٰ الوطن ولو حشو الكفن كما قال شاعر حمص المغترب **نسيب عريضة**.

وثانيها أنَّ واقعه الحضاري الَّذي لم يستطع احتواء طاقاته وقدراته هو الَّذي دفعه إلىٰ ازدواجيَّة الانتماء من أجل تحقيق ذاته المبدعة. وقد

(١٢٣) .كان هٰذا موضوع عدد من الأبحاث اجتمعت في كتابنا المخطوط الَّذي نأمل أن يدفع للنشر قريباً: انهيار وهم الحوار بين الحضارات.

أكَّدت الدراسات الَّتي أجريت علىٰ الكفاءات المهاجرة أنَّ نسبةً كبيرةً منهم لن تمانع أبداً من العودة في حال احتياج الوطن لهم وتوافر الظُّروف المناسبة لعملهم.

وثالثها أنَّه عندما يحقِّق ذاته في هٰذا المكان الآخر فإنَّه سيظلُّ يحمل هويَّة أمَّته حتَّىٰ وإن تخلىٰ عن هٰذه الهويَّة عمليًّا.

الشرق وحده ينزف

وأخيراً فإنَّ أهمَّ ما يلف النَّظر، ويستدعي التَّوقُّف عنده مليًّا، في هجرة الكفاءات واغترابها عن مواطنها، ليس رفدها حضارة الآخر وتعزيزها، ولا حرمان مواطنها مما تقدِّمه... وإنَّما هو أنَّ العالم الشَّرقي وحده هو الَّذي يصدِّر الكفاءات والمواهب، أو أنَّ الشَّرقي هو الَّذي يستسهل تقديم خلاصة عقله الخلاق للآخر، خلاف الغربي الَّذي يضنُّ بالألم علىٰ الشَّرقي إن كان الألم يسعد الشَّرقي أو يفيده، والأمثلة الدلَّةُ علىٰ ذٰلكَ أكثر من كثيرةٍ، ففي حين لم نجد في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، أو أيِّ حضارةٍ شرقيَّةٍ، علماً واحداً إفرنجيًّا أو (أوربيًّا بالمعنىٰ المعاصر) ساهم فيها، نجد أن الأعلام الَّذين ساهموا في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة كانوا كلهم شرقيين مثل: **ابن المقفَّع وابن سينا والفارابي وسيبويه ومسكويه** وغيرهم [١٢٤]. ونجد أن الحضارة الغربيَّة؛ قديما وحديثاً، تعج بالأعلام العرب أو الشَّرقيين الَّذي ساهموا فيها وكانوا من أعلامها. ففي الحضارة اليونانيَّة والرومانيَّة نجد مثلاً: **لوقيانوس السميساطي** المفكِّر السُّوري الكبير الَّذي كتب باليونانيَّة وقد لخَّص **شكسبير** رأيه فيه قائلاً: «كلُّ العالم مسرحه، وجميع

(١٢٤) . للمزيد عنهم انظر: الزركلي: **الأعلام** . دار العلم للملايين . بيروت.

الرِّجال والنِّساء ممثلون لديه»[١٢٥]، وكذلك **مينيب** أحد الفلاسفة الكلبيين، كتب باليونانيَّة مجموعة مؤلَّفات، وهو من جدرة (أم قيس على اليرموك)[١٢٦]، وكذلك، بناءً على بعض الرِّوايات:

فيثاغورث وزينون الرِّواقي وزينون الصُّوري وديوجين وبورفير ويمليخو ولونجينوس الَّذي كان أستاذا متميزاً في اليونان وقد استدعته **زنوبيا** لتجعله مستشارها ورئيس وزرائها[١٢٧] ومنهم أيضاً **أبولودور الدمشقي والقديس إبيفان وإبيكتيتوس وآثينيوس وآراتوس وأرخياس واكسينوفانِس وآلبيوس انتيباتر أو انتيباتُرس الصوري وأنثيميوس الترالي وأوبيان وأوغسطين وبوزيدونيوس الأفامي** وغير كثير جدًّا ممن سنأتي عليهم لاحقاً في كتاب مستقلٍّ إن شاء الله تعالى.

وفي الحضارة الغربيَّة المعاصرة وجدنا من وجدنا ممن كانوا موضوع كلامنا وسببه، وسنأتي عليهم كتابٌ مستقلٌّ لاحقاً أيضاً بإذن الله تعالى. من أمثال **أحمد زويل وإلياس خوري السير بيتر مدور وجاك نصر وجان مخول وجمال حمدان ورمزي قطران وريكاردو ميلادي (ملحم) وريما قدروة داعوق وزهاء حديد وسميرة موسى وشادية حبال رفاعي وفاروق الباز** وغيرهم كثيرٌ جدًّا.

---

(١٢٥) . لوقيانوس السُّميساطي: **محاورات لوقيانوس السُّميساطي** . ترجمة؛ سعد صائب . دار طلاس . دمشق . ١٩٨٩م . والمقبوس في ص ٨.

(١٢٦) . م.س . ص ٣٤٨.

(١٢٧) . انظر ذلك في: يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة اليونانيَّة**. ونواف حردان: **صانعوا تراثنا** . دار بيسان . بيروت. و زوني إيلي ألفا: **موسوعة أعلام الفلسفة** . دار الكتب العلميَّة . بيروت . ١٩٩٢م.

العقل الغربي لا ينزف

أمَّا الغربيون فإنَّهم لم يقوموا بأيِّ اندماجٍ مع العالم الشَّرقي لتقديم أي فائدةٍ علىٰ غرار ما يفعل الشَّرقيون، اللهم إلا من موقعين كليهما مفعم بالنفعيَّة والذرائعيَّة، وإذا نظرنا في تاريخ الشرق والغرب من هٰذه الناحية فإننا لا يمكن أن نجد كفاءةً غربيَّةً هاجرت إلىٰ الشَّرق واندمجت به لا في عصر الشَّرق القديم ولا في العصر الإسلامي، أما موقعا الاقتراب الغربي من الشَّرق فهما:

أولهما الاستشراق من موقع القوة، وهنا يتعامل المستشرق مع مادة الاستشراق بما يحقِّق مصالحه وأغراضه بغضِّ النَّظر عمَّا إذا قدَّم ذٰلكَ فائدة للشرق أم لا، والأمثلة علىٰ ذٰلكَ جدُّ كثيرةٍ، ومعظمهم مشهور مثل: **إرنست رينان وهاملتون جب وهارولد جب وماك دونالد وبرنارد لويس والسير توماس أرنولد وفرانس روزنتال ولوي ماسنيون وشارل بللا وماك بيرجيه وكولان وليفي بروفنسال** وغيرهم كثيرون.

رُبَّما يكون **إدوراد سعيد**[١٢٨] أو من استطاع التقاط جوهر عقلية الاستشراق ومن ثمَّ مراميها، وهو في فهمه هٰذا يقترب من من مفهوم الاستشراق من فوق، بل نحن نقترب منه في فهمه للاستشراق الَّذي انفجر قنبلة مدوية مازال صداها يتردَّد حَتَّىٰ اليوم في كتابه الاستشراق.

لقد أراد **إدوارد سعيد** في هٰذا الكتاب أن يضع اللبنات الأولىٰ والصحيحة لتصحيح الوعي الغربي المغلوط بسبب مغالطات المستشرقين ورؤاهم الأيديولوجيَّة

(١٢٨) . لمزيد من التفاصيل انظر: الدكتور عزت السيد أحمد: **إدوارد سعيد؛ قوة الحق والسباحة ضد الَّتيار**. صحيفة تشرين . دمشق . السبت ١٥ تشرين الثاني ٢٠٠٣م.

الأحادية العين... وربَّما يجوز تلخيص مشروعه في تعرية الاستشراق في أنَّهُ لا يريد قراءة ما وراء السطور ولا ما هو خلفها أو تحتها وإنما قراءة ما هو أمامها، أي تحويل الشَّرق إلىٰ نصٍّ أو بنيةٍ نصيَّةٍ والنَّظر في كيفيَّة استنطاق المستشرقين لهذا النَّصِّ واستجلاء غوامضه بما يخدم الغرب ويعزِّز مصالحه ومواقعه.

ويخلص **بيل أشكروفت وبال أهلواليا** في كتابهما «**إدوارد سعيد**؛ مفارقة الهويَّة» إلىٰ أنَّ جوهر نقاشه يتجلىٰ في أنَّك تعرف شيئا معناه أن تمتلك السلطة عليه، والعكس صحيح فأن تملك السُّلطة معناه أن تكون قادراً علىٰ معرفة العالم وفق شروطك» وهذا القسم الأخير هو ما انبنت عليه عمليَّة الاستشراق الَّتي أرادت أن تفهم الشَّرق وتصوغ فهمها للشَّرق من المواقع الَّتي تعزز مصالحها ووفق المنطق الَّذي يخدمها علىٰ أمثل نحو.

الاستشراق هو باختصار تصوير الشَّرق بالصُّور الَّتي يريد الغرب أن الشَّرق من خلالها، وما يتمناه فيه، وما يسعىٰ إلىٰ إجباره علىٰ التَّكوُّن بمقتضاه، وإقناعه علىٰ بأنه هو كما يراه الغرب.

وثانيهما هو التَّتلمذ والتَّعلم الأحادي الجانب، ولهذا يكون في حال تخلف الغرب وتقدم الشَّرق، وهنا يكتفي الغربي بأن ينهل من المعرفة الشَّرقيَّة دون يقدم لها أو يندمج مع العالم الشَّرقي، والأمثلة علىٰ ذَلكَ أيضاً أكثر من الكثيرة، فبداية نعلم أن معظم أعلام الفكر اليوناني قد زاروا الشَّرق ونهلوا من معارفه أمثال: **طاليس وأفلاطون وأرسطو** ... وفي مرحلة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة نجد كثيراً جدًّا من الأعلام الَّذين تتلمذوا عليها، ومنهم مثلاً أعلام الرُّشديَّة المسيحيَّة مثل **نيفو، وجيرولامو كردانو، وتشيزاري كريمونيني، وبونبوناتزي** ـ Ponponazzi أشهر أساتذة بادوفا في القرن الخامس عشر، وكانت جامعتها

أرسطوطاليَّة رشديَّة تتشبَّث بتأويل **ابن رشد لأرسطو**[١٢٩]، **وسيجر دي برابان** . Sogr de Brabant الَّذي حورب وحبس وقتل علىٰ يد كاتبه **أورفيتو** . Orvitto الَّذي جُنَّ علىٰ ما قيل، وبنهايته انتهىٰ التَّعليم الرُّشدي بباريس[١٣٠]. وهناك من غير الرُّشديين **أديلارد أوف بث**[١٣١] . Adelard of Bath و**دومنيك جونزالس** المدعو **جنديسالفي**[١٣٢] . Gondisalvi و**ميخائيل سكوت**[١٣٣] . Michael Scot **وهرمان الألماني**[١٣٤] . Hermann و**ريمون لول** . Raymond Lulle الَّذي تراءىٰ له المسيح أربع مرات وكأنَّه يريده أن يتوافر علىٰ خدمته، فمهَّد لمهمَّته بدراسة العربيَّة ... وطاف أنحاء كثير من العالم منها معظم البلدان العربيَّة، وكان ضليعاً بالعربيَّة حتَّىٰ نقل عنها وصنَّف فيها[١٣٥] وغيرهم.

والسُّؤال الَّذي يفرض ذاته الآن بقوة: **لماذا يستسهل العربي والشَّرقي تقديم أغلىٰ ما عنده رخيصاً للغربي ... في حين يضنُّ الغربيُّ بأبخس ما عنده علىٰ الشَّرقيِّ إلا بأبهظ الأثمان؟؟!! وبالعكس تماماً أيضاً لماذا يضنُّ الغربيُّ بأبخس ما عنده علىٰ الشَّرقيِّ إلا بأبهظ الأثمان في حين يستسهل**

---

(١٢٩) . يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة** . ص ١٤ . ١٥.

(١٣٠) . يوسف كرم: **تاريخ الأوربيَّة الوسيطة** . ص ٢٠٨.

(١٣١) . م.س . ص٩٢. وهو إنجليزيٌّ تثقف بباريس واستكمل ثقافته في الأندلس ثم البلاد العربية، وترجم عن العربيَّة.

(١٣٢) . م. س . ص ٩٤. ساهم بنقل الكثير من الكتب العربيَّة إلىٰاليونانيَّة بالتَّعاون مع ابن داوود.

(١٣٣) . م. س . ص١٢٨ . ١٢٩. ترجم عن العربية بعض كتب ابن سينا وابن رشد، وإليه يرجع الفضل الكبير في ولادة الرشدية المسيحيَّة.

(١٣٤) . م.س . ص١٢٩. تعلم العربيَّة بطليطلة ونقل عنها كتباً كثيرة.

(١٣٥) . م. س . ص ١٣٣.

العربي والشَّرقي تقديم أغلىٰ ما عنده رخيصاً للغربي... ؟؟!! ألأنَّ الشَّرق شرقٌ والغرب غربٌ ولن يلتقيا كما قال إرنست رينان؟ أم لعلة أُخْرَىٰ؟؟!!

الهجرة بين عقليتي الشرق والغرب(١٣٦)

إنَّ عبارة «الشَّرق شرقٌ والغرب غربٌ ولن يلتقيا» الَّتي أطلقها يوماً **رديارد كبلنج** باتت مقولةً حضاريَّةً أظنُّها من المسلَّمات. إنَّها ليست انتقاصاً ولا مدحاً لأيٍّ من الطَّرفين كما يحاول الكثيرون أن يصوِّروا، إنَّها تصويرٌ لعقليَّات الشُّعوب أَو الأمم. قد لا تكون كافيةً ولكِنَّها معبِّرةٌ. والحديث في أبعاد هذه المقولة أمرٌ يطول بنا، ولكنَّنا لا نستطيع إلا أن نأخذها بعينِ النَّظر.

ليس **كبلنج** هو من أطلق هذه العبارة بفحواها وإنَّما هي راجعةُ الجذور كثيراً إلىٰ الوراء، يمكننا أن نستذكر هنا حديث **ابن خلدون** في أثر الجغرافيا علىٰ الأخلاق والعادات الَّذي لا يبتعد كثيراً عما ذهب إليه **كبلنج** في المبدأ.

ليس يعنينا من هو الأسبق في ذلك، ولن نقف عند أبعاد هذه العبارة ودلالاتها لأنَّ ذٰلكَ أمرٌ يطول بنا كما أشرنا، وإنَّما سنعود باستقراء لما مضىٰ من تاريخ الشَّرق والغرب، تاريخ العرب خاصَّة وتاريخ الغرب خاصَّة، برؤيةٍ مقارنةٍ لسلوكات للشَّعب العربي والشَّعب الغربيِّ في حالاتهما التَّاريخيَّة الكبرىٰ.

في إطار التَّاريخ المكتوب والمعروف جيِّداً إلىٰ حدٍّ ما، مرَّ العرب بطورين من الحضارة والسِّيادة علىٰ العالم، وطورين من التَّخلُّف والتَّقهقر. وفي المقابل مرَّ الغرب أيضاً بطورين من التَّخلُّف وطورين من الحضارة والسِّيادة. وفي ظل هذين الطورين كانت هجرة الكفاءات من الشرق إلىٰ الغرب، ولم تكن هجرة كفاءات

(١٣٦) . هٰذه الفقرة من كتابي : **قضايا الفكر العربي المعاصر** . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.

من الغرب إلىٰ الشرق. وهٰذا عائد في نظرنا إلىٰ خصائص العقليَّة الشرقيَّة في طور التخلف وخصائص العقليَّة الغربيَّة في طور التَّخلُّف.

خصائص العرب في التَّخلُّف

يمتاز العرب ورُبَّما دون أمم الأرض بأنَّهُم في حالة التَّخلُّف يتَّصفون بالصِّفات التَّالية:

أولاً: تكثر فيهم خيانة الحكام الصَّريحة والاستعانة بالأجنبي والعمالة له.

ثانياً: تآمر الحكام العرب مع الأجنبي علىٰ الحكام العرب الآخرين.

ثالثاً: هجرة العلماء والكفاءات العربيَّة إلىٰ الأمم الأخرىٰ والاندماج بها اندماجاً تامًّا غالباً.

رابعاً: سيادة اليأس والإحباط والاستسلام والانهزاميَّة علىٰ عامَّة النَّاس.

خصائص الغرب في التَّخلُّف

في المقابل وجدنا أنَّ العالم الغربي متمثلاً بأوربا قاطبةً تمتاز في حالة التَّخلُّف بالصِّفات التَّالية:

أولاً: الانغلاق وعدم الثِّقة بالأجنبي (الشَّرق).

ثانياً: الصِّراع الدَّاخلي مهما تطور يظلُّ داخلياً ولا يستعين بالأجنبي (الشَّرق).

ثالثاً: انعدام هجرة الكفاءات والعلماء إلىٰ العالم المتطور واستعدادها للموت في سبيل أفكارها.

رابعاً: تنامي روح الفروسيَّة والاعتداد بالذَّات بَيْنَ عامَّة النَّاس.

في حال التَّطور والحضارة والسِّيادة يكون الأمر مختلفاً، ولكنَّهُ مرتبطٌ بهذه البنية السَّابقة ومنبثقٌ عنها.

قد يعترض كثيرون علىٰ هٰذا التَّصوُّر لهذه الصِّفات. الأمر متاحٌ للاعتراض. ولكن يستحسن التَّروِّي في قراءة التَّاريخ. ليس ثَمَّةَ أسرارٌ ولا استثناءاتٌ مفارقةٌ للواقع، أليس هذا ما يحدِّثنا عنه التَّاريخ من أخبار. كيف كان حال قبائل العرب قبل الإسلام؟ ألم يكن علىٰ الأقل ثَمَّةَ انقسامٌ بَيْنَ غساسنةٍ ومناذرةٍ؛ عملاء للرُّوم وعملاء للفرس، مهمتهم تأديب القبائل العَربيَّة الَّتي تقع في فضاء سيادتهما؟ ألم يكونا سياجاً حامياً للرُّوم والفرس من القبائل العَربيَّة الأخرىٰ؟

بعد الإسلام تغيَّرت الأمور وانتقل العرب إلىٰ طورٍ آخر حَتَّىٰ أواخر الدَّوْلَة العباسيَّة. وماذا حدث مع أواخر الدَّوْلَة العباسيَّة؟ أليس هو ما حدث قبل الإسلام ويحدث حَتَّىٰ اليوم من عمالةٍ للأجنبي والاستعانة به علىٰ الأخ الشَّقيق؟

إذا نظرنا إلىٰ أوروبا قبل نهضتها الإغريقيَّة، وبعد انهيار الدَّوْلَة الرُّومانيَّة هل نجد شيئاً من هذه الممارسة العَربيَّة؟ رُبَّما نجد شيئاً من ذٰلكَ. ولكنَّهُ من قبيل النُّدرة النَّادرة، وبالتَّأكيد سنجد صعوبةً بالغةً في إيجاد شاهدٍ علىٰ ذٰلكَ؛ فمن هو الحاكم الأوروبيُّ الَّذي استنجد بخليفةٍ من الخلفاء علىٰ امتداد الدَّوْلَة الإسلاميَّة؟ ومن هو العالم أَو الكفاءة العلميَّة الأوروبيَّة الَّتي جاءت إلىٰ العالم العربي واندمجت فيه اندماج **ابن سينا** أَو **الفارابي**؟ لن نجد أحداً بالتَّأكيد شبه اليقيني. ولكنَّنا سنجد ممارسةً أَو ممارساتٍ تشبه ما تمارسه الولايات المتَّحدة اليوم في العالم العربي من رفع ووضع وفرض هيمنة...

الحقيقة أنَّهُ لا يمكن اختزال خصائص الأُمَّة بهذه الخصائص سيَّان في التَّحضُّر أَو التَّخلُّف، ولكِنَّها بالتَّأكيد خصائص يجب أن تكون حاضرةً في أذهاننا لدىٰ أيِّ محاكمةٍ أَو دراسةٍ لما هو عليه حال العرب اليوم من تشرذمٍ وخضوعٍ للأجنبي وتآمر مع الأجنبيِّ علىٰ الأشقاء. ومن هٰذا الباب نجد تدفق الكفاءات العربيَّة أو الشرقيَّة إلىٰ العالم الغربي في طور التخلف، وهٰذا ما شاهدنا كما أبنا من قبل في طوري تقدم الغرب وتخلف الشرق أو العرب.

علىٰ أيِّ حال هٰذه صورةٌ أَو توصيفٌ وليست تفسيراً، ولا قراءة سببيَّة لما يحدث(١٣٧). ولكنَّ الَّذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّهُ لا يجوز حمل هذه الخصائص والصِّفات محامل القدح أَو المدح، ولا التَّقليل من قيمة الأُمَّة أَو قيمها أَو أخلاقها، ولا حَتَّىٰ الرَّفع من شأنها. لأنَّ حالة التَّخلُّف هي حالة انعدام توازن تمرُّ بها الأُمَّة أَو الشَّعب. إنَّ أكثر ما يعنينا هنا هو محالة الإفادة قَدْرَ الإمكان من فهم هذه الظَّاهرة في التَّعامل مع واقعنا.

في الهجرة الأوروبية لأمريكا

يعلم المتابعون أنَّ هجرة الكفاءات ليست ظاهرةً مقصورةً علىٰ العالم العربيِّ أو الشَّرقيِّ وإنَّمَا مختلف الكفاءات من مختلف بقاع العالم معرضة قابلة للهجرة، ونجد مثالاً يستحق الذكر هنا هو هجرة الكفاءات الأوروبية إلىٰ أمريكا، ويعاني الأوروبيون من هٰذه المشكلة، وعلىٰ سبيل المثال «انتقد كبار علماء أوروبا سياسة الاتحاد الأوروبي

(١٣٧) . تفسير هذه الخصائص وأسبابها هو موضوع دراسة طويلة ويحب آخر وشيك الإنجاز والنشر، وقد بدأنا هذه المحاولة في كتابنا: انهيار مزاعم العولمة الصادر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في عام ٢٠٠٠م.

العلمية ودعوا إلىٰ إجراء إصلاحاتٍ ورصد المزيد من الأموال للحدِّ من هجرة العقول إلىٰ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة... وقد أرسل عشرةٌ من رؤساء أكاديميات العلوم الأوروبيَّة خطاباً إلىٰ الرَّئيس الحالي للاتحاد الأوروبي رئيس وزراء الدانمارك **أندريس فوه راسموسن** قبل انعقاد القمة الأوروبيَّة في كوبنهاغن يومي ١٢ و١٣ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٢م، وحثَّ الخطاب القمَّة علىٰ مناقشة كيف يمكن للاتحاد الأوروبي أن يصبح أكثر قدرة علىٰ المنافسة وإيقاف تدفُّق العلماء للخارج»[١٣٨].

سيبدو هنا أنَّ ثَمَّة تناقض مع ما سبق وأشرنا إليه وأثبتناه إثباتاً وهو نفي هجرة الكفاءات الغربيَّة. يجب أن ننتبه هنا إلىٰ الفرق بَيْنَ هجرة الأوروبيين إلىٰ أمريكا وهجرة الشَّرقيين أو العرب إلىٰ الغرب. هجرة الأوروبيين إلىٰ أمريكا هي هجرة داخليَّة شأنها شأن الهجرة العربيَّة العربيَّة تماماً من جهة المبدأ. مهما اختلفت وجهات النَّظر في هٰذا الموضوع تبقى أمريكا امتداداً لأوروبا وهجرة الأوروبيين إلىٰ أمريكا هي هجرة إلىٰ أبناء العم لا أكثر. ولا أحد يجهل أنَّ الأوروبي الذي يهاجر إلىٰ أمريكا يعدُّ أمريكيًّا علىٰ الفور، بَيْنَما المسلم الذي هاجر أجداده قبل مئات السِّنين إلىٰ أمريكا، وكان أجداده من مؤسسي الدولة الأمريكية، وأقدم من أمريكيَّةً من أكثر من نصف الأمريكيين، ما زال بعد هٰذه الأجيال يعد غريباً وحَتَّىٰ مواطناً غير مرغوبٍ فيه، وأشدَّ ما انفضح ذٰلكَ عقب أحداث الحادي عشر من أيلول، ولم يكن منتفياً قبل ذٰلكَ، ولٰكنَّهُ ظهر جليًّا بمناسبة هٰذه الأحداث، اعتبر كل مسلم إرهابيًّا ومشتبهاً به ولو كان أمريكيًّا منذ

(١٣٨) . رويترز: **علماء أوروبا يدعون إلى الحد من هجرة العقول لأميركا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٣/١٠/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١٢/١٢م.

مئات السِّنين، فيما الأمريكي من أصلٍ أوروبيٍّ كان فوق الشُّبهات ولو كان أمريكيًّا قبل الأحداث بيوم أو يومين فقط.

وفي الوقت ذاته لم نجد تاريخيًّا هجرة كفاءات من الغرب إلىٰ الشَّرق لأيِّ سببٍ من الأسباب، حَتَّىٰ مع المغريات الماديَّة الخليجيَّة المدهشة لم نشهد أي هجرةٍ من كفاءةٍ غربيَّةٍ إلىٰ الخليج العربيِّ، وإنَّمَا حَمَلَ وجود الغربيِّ في الخليج العربيِّ صفة السَّيد الأستاذ المعلم الَّذي جاء ليعطي دروساً ومحاضرات ويعود إلىٰ بلده.

هٰذان الأمران يختلفان اختلافاً كليًّا عن هجرة الكفاءات العربيَّة أو الشَّرقيَّة إلىٰ الغرب في القديم والحديث، ولا يمكن المقايسة بَيْنَهما أبداً علىٰ أساس التَّكافؤ أو التَّساوي أو علىٰ أساس أنَّهَما هجرة كفاءات، أو نزيف عقول.

هجرة الكفاءات العلميَّة من أوروبا إلىٰ أمريكا تشكِّل مشكلةً حقيقيةً لأوروبا ولا يمكن أن ننكر ذٰلكَ علىٰ الإطلاق، وتشكِّل فائدةً، غالباً، لأمريكا. ولٰكنَّهَا غير قابلة للمقارنة مع نزيف العقل العربي إلىٰ العالم الغربي علىٰ الإطلاق لتباين غير قابلٍ للمقارنة بَيْنَ البنيتين. هجرة الكفاءات العلميَّة الأوروبيَّة إلىٰ أوروبا كما قلنا هي هو في النَّتيجة والمقدِّمة هجرةٌ داخليَّة تشبه الهجرة من الرِّيف إلىٰ المدينة في أي دولة من الدُّول، تشكِّل ضغطاً علىٰ المدينة ومعاناة للريف، وتشكل فائدةً للمدينة ونموًّا فيها وخسارةً للريف... ولٰكنَّهَا في الأحوال كلها تبقى مشكلة داخليَّة داخليَّة. هٰذا مع إقرار الخلافات والاختلافات والفروق بَيْنَ أوروبا وأمريكا وعدم تجاوزها.

خاتمة

هٰذا تصوُّرنا للعامل التَّاريخي في هجرات الكفاءات. وجدنا بالدَّليل التَّاريخي والاستقرائي أنَّ الشَّرق في حال التَّخلُّف يشكِّل قوَّة طاردة للكفاءات،

وأنَّ الكفاءات الشَّرقيَّة في حال التَّخلُّف تستسهل الهجرة ووضع طاقاتها وقدراتها في خدمة العالم المتقدِّم المتمثل بالغرب، بل الذي تمثل بالغرب في طورين حضاريين. بَيْنَما الغرب لم يعرف ظاهرة هجرة الكفاءات إلىٰ الشَّرق لا في ظلِّ التَّخلُّف ولا في ظلِّ التَّحضر.

مسألةٌ مهمةٌ تجدر الإشارة إليها هنا، وقد أشرنا إليها عَرَضاً في أثناء هٰذا الفصل وهي أنَّ الكفاءات الغربيَّة في الطَّورين الحضاريين: قبل الإسلام مع حضارة الشَّرق القديم، وبعد الإسلام في عصور الخلافة الإسلاميَّة وخاصَّةً العباسيَّة وما بعدها... ففي هٰذين الطَّورين جاءت الكفاءات الغربيَّة إلىٰ الشَّرق وتعلَّمت وعادت ولم تبق في المشرق تحت أيِّ ظرفٍ من الظُّروف.

لذٰلكَ يمكنني القول إنَّ هٰذا الموضوع أكبر من أن يختزل بهٰذه الصَّفحات القليلة، ويستحقُّ وقفةً مستقلَّةً خاصَّةً ومتابعةً مستفيضةً، وقفنا عند بعض جوانبها في كتابنا قضايا الفكر العربي المعاصر[١٣٩]، وعند بعض في كتابنا انهيار مزاعم العولمة[١٤٠]، وعند بعضٍ في كتابنا انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات[١٤١]. ومع ذٰلكَ فإنَّهُ من الضَّروري العودة إليها بمزيدٍ من التَّوسُّع والتَّخصص والتَّخصيص.

(١٣٩) . صدر عن جامعة تشرين باللاذقية عام ٢٠٠٦م.

(١٤٠) . صدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ٢٠٠٠م.

(١٤١) . قيد الطباعة، يصدر قريباً.

الفصل الثامن

في آثار هجرة الكفاءات

ترى من المستفيد من هجرة هؤلاء العلماء؟ ومن المستفيد من أبحاثهم التي لا نستطيع إلا التَّأكيد بأنَّها تشكِّلُ مفاصل مهمة من سيرورة التَّطور العلمي المعاصر؟!

قد نبالغ إذا قلنا إنَّ الكفاءات العلميَّة العربيَّة، بمختلف أطرها وميادينها وتخصصاتها ومستوياتها من القوة والقدرة...

هي التي تحمل حضارة الغرب علىٰ أكتافها، ومن المؤكَّد أنَّنا نبالغ إذا زعمنا ذٰلكَ. ولٰكنَّ المؤكَّد أيضاً أنَّنا نكون مغفلين إذا لم نعتقد أنَّهم يشكِّلون جزءاً صميميًّا من السَّيرورة العلميَّة في الحضارة الغربيَّة، تماماً كما كان المسلمون غير العرب يشكِّلون جزءاً صميميًّا من السَّيرورة الفكرية والعلميَّة في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة علىٰ الرَّغْمِ مما طبيعة هجرة الكفاءات بَيْنَ الحضارتين من تباينات واختلافاتٍ صميميَّةٍ أشرنا إليها فيما سبق.

ونعود فنتساءل: من المستفيد؟

لقد فرحنا أيما فرح عندما فاز **أحمد زويل** بجائزة نوبل، ولٰكن هل هٰذا ما نصبو إليه ونرجوه؛ أن نفرح بفوز أبنائنا بالجوائز والمكافآت علىٰ نجاحاتهم العلمية الكبرى في بلدان الاغتراب وخدمتهم لهٰذه البلدان علىٰ حساب أمَّتهم وحَتَّىٰ ضدَّ أمَّتهم؟

لا شكَّ أبداً في أنَّ الغرب وحده المستفيد، إذ حَتَّىٰ ولو فازت كلُّ كفاءاتنا العلميَّة في الخارج بجائزة نوبل، وكلِّ جوائز العالم فلن نحصد إلا الفخر الذي يشبه رنين النُّقود ثمناً للاستمتاع برائحة الشِّواء.

ولا شكَّ أيضاً في أنَّ مقابل الربح توجد خسارة والخاسر هو نحن الذين تهاجر إلىٰ كفاءاتنا إلىٰ الغرب، وهٰذه الخسارة ليست نوعاً واحداً بل أنواعاً مختلفةً. وهٰذا ما سنحاول أن نبين ما استطعنا منه فيما سيأتي.

في الأبحاث العلمية

من البداهة بمكان أنَّهُ عندما يهاجر العلماء من بلد إلىٰ بلد آخر فإنَّ أعمال هٰؤلاء العلماء وإنجازاتهم وأبحاثهم وابتكاراتهم ستكون في بلد المهجر، بما يعني منطقيًّا كسب بلد المهجر وخسارة بلد المصدر لهذه الجهود والإنجازات العلميَّة. وكلها تساهم في نماء وتطور بلد المهجر، وكان يمكن أن تسهم في نماء وتطور بلد المصدر أو المنشأ. وفي هٰذا كلام كثير.

بنظرة سريعة خاطفة علىٰ هٰذه المشكلة نجدنا أمام تقرير اليونسكو عن براءات الاختراع في عام ٢٠٠١م، «كانت هيئة اليونسكو قد نبَّهت إلىٰ تدنِّي نصيب الدُّول العربيَّة من براءات الاختراع التقانيَّة علىٰ مستوى العالم، إذ بلغ نصيب أوروبا من هٰذه البراءات ٤٧,٤%، وأمريكا الشماليَّة ٣٣,٤%، واليابان والدُّول الصِّناعيَّة الجديدة ١٦,٦%. ولٰكنَّ التَّقرير إيَّاه خجل من الإشارة إلىٰ نصيب العرب تحديداً من تلك البراءات»[١٤٢].

(١٤٢) . ياسين رفاعية: **خسائر العرب العقلية** . ضمن جريدة المحرر العربي . لندن . العدد ٢٩٧ . ١حزيران ٢٠٠١م . ص٢٤.

من الطَّبيعي جدًّا أن تخجل اليونسكو من تحديد حصة العرب منها لأنَّ ٢,٦ بالمئة المتبقية يتقتسمها العرب والآسيويون والآفارقة والأمريكيون الجنوبيون... وأكثرهم من المسلمين، يعني العرب والمسلمون أجمعون مع الهندوس والأمريكيين اللاتين يقتسمون ال٢,٦ بالمئة المتبقية.

حسناً، هٰذا الكلام عام، وبما لا يقل عن نقصانه وعموميته كانت إحصاءات الأبحاث علىٰ المستويين العربي والعالمي، أبحاث الكفاءات العلمية العربية المهاجرة. فعلىٰ غرار ما سبق من قلَّة المعطيات وعدم توافرها نتوقف عند إحصائيَّة، لا ندري مدى دقَّتها، عن البحوث التي أنجزها الباحثون العرب في الوطن العربي والعالم، لنتبين جانباً من جوانب خطورة نزيف الأدمغة وهجرتها، ففي مدخله لدراسة التَّوزُّع الجغرافي للباحثين العلميين العرب أورد **حافظ قبيسي** إحصائية أجريت عام ١٩٧٧م جاء فيها، كما سيأتي مفصلا في الجداول اللاحقة، أنَّ البحوث التي أنجزها الباحثون العرب ضمن الوطن العربي قد بلغت (٣٠٥٦) بحثاً في ميادين مختلفة هي المذكورة فقط وليست كل الميادين، أمَّا الأبحاث التي أنجزها الباحثون العرب خارج الوطن العربي، وعلىٰ نحوٍ خاصٍّ تقريباً في بعض دول أوروبا وأمريكا فقط وليس في مختلف أماكن وجودهم في العالم، وفي الميادين المحصاة ذاتها فقط لا في كل الميادين أيضاً، فقد بلغت (٤٤٠٤) بحثاً، أي أكثر مما أنجز في الوطن العربي بمرَّةٍ ونصف تقريباً. كان هٰذا في عام ١٩٧٧م لا في سنوات الأوج اللاحقة!! أي قبل أربعين سنة من نشر هٰذا الكتاب، ذٰلكَ أنَّنا لم نستطع العثور علىٰ أيِّ تقديراتٍ حديثةٍ في هٰذا الشَّأن تحديداً.

فلماذا يحدث ذلك وما معناه؟؟

جدول رقم (٧)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث المنجزة

في بعض الدول العربية موزعة حسب الميادين العلمية[١٤٣].

الميدان العلمي / القطر	علوم هندسية وتقنية	علوم زراعية وبيئية	علوم فيزيائية ورياضية	علوم كيميائية	علوم الحياة	المجموع
الأردن	٢	٣	٢	١٣	١٢	٣٢
تونس	-	٨	١٠	١٥	١٥	٤٨
الجزائر	-	-	٣	٥	٢	١٠
ليبيا	٢١	١	٥	١٧	٤	٤٨
السودان	٨	٥٨	١٣	٦	٣٩	١٢٤
العراق	٤٧	١٠٣	٣٧	٣٨	٥٢	٢٧٧
الكويت	٩	٥	٧	٣٠	١٨	٦٩
لبنان	٣	٧	٩	٨	٥٢	٧٩
مصر	٣٠٧	٦٦٨	١١٤	٤٦٩	٦٤٥	٢٢٠٣
المغرب	١	٣	-	١	٣	٨
بقية الدول العربية	٩	٤	-	-	٥	١٨
المجموع	٤٧٠	٨٦٧	٢٢٦	٦٢٧	٨٦٦	**٣٠٥٦**

(١٤٣) . حافظ قبيسي: **مدخل لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العرب** . ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م . ص٢٠٥.

جدول رقم (٨)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب

في بعض دول أمريكا موزعة حسب الميادين العلمية[١٤٤].

الدولة / الميدان العلمي	الولايات المتحدة	كندا	بقية أمريكا	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٢٩٦	١٢	١	٣٠٩
علوم زراعية وبيئية	٢٤٠	٤٢	٢١	٣٠٣
علوم فيزيائية ورياضية	٢٥٥	١٠٤	٧	٤٦٦
علوم كيميائية	٢٨٢	٦٩	١٢	٣٦٣
علوم الحياة	٩٢٤	١٠٩	٢١	١٠٤٥
المجموع	٢٠٩٨	٣٣٦	٦٢	٢٤٩٥

جدول رقم (٩)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب

في بعض دول أوربا موزعة حسب الميادين العلمية[١٤٥].

الدولة / الميدان العلمي	فرنسا	ألمانيا	إنجلترة	بقية دول أوربا	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٢٣	٢٤	٩٢	٢٠	١٥٩
علوم زراعية وبيئية	٤٧	٥٥	٢٨	٣٣	١٦٣
علوم فيزيائية ورياضية	١٢٠	٣٦	١٢٦	٤١	٣٢٣
علوم كيميائية	١١٤	٣٩	١٤١	٣٥	٣٢٩
علوم الحياة	١٤٨	٧٦	٢٨٢	٧٣	٥٧٩
المجموع	٤٥٢	٢٣٠	٦٦٩	٢٠٢	١٥٥٣

(١٤٤) . المصدر السابق.

(١٤٥) . المصدر السابق.

جدول رقم (١٠)

عدد البطاقات المتعلقة بالبحوث التي أنجزها علميون عرب

في مختلف أنحاء العالم

موزعة جغرافياً وحسب الميادين العلمية[١٤٦].

الأماكن / الميدان العلمي	دول عربية	أمريكا	أوربا	مختلف	المجموع
علوم هندسية وتقنية	٤٧٠	٤١٧	١٥٩	٧٨	١١٢٤
علوم زراعية وبيئية	٨٦٧	٣٠٣	١٦٣	٤٧	١٣٨٠
علوم فيزيائية ورياضية	٢٢٦	٤٦٦	٣٤٣	٣٨	١٠٧٣
علوم كيميائية	٦٢٧	٣٧٣	٢١٩	١٩	١٣٣٨
علوم الحياة	٨٦٦	١٠٥٤	٥٧٩	٤٦	٢٥٤٥
المجموع	٣٠٥٦	٢٦١٣	١٥٦٣	٢٢٨	٧٤٦٠

أعود لأكرر هنا أنَّ هٰذه الأبحاث العلميَّة التي قدمها العلماء العرب في الغرب هي نتيجة إحصاءات فترة الركود العلمي، والهجرة المحدودة إلىٰ الغرب وليس في ذروتي النَّماء العلميِّ والهجرة المتنامية للكفاءات العلميَّة العربيَّة. وهٰذا يعني أنَّ الخسائر العلميَّة العربيَّة بعد ذٰلكَ عبر الأربعين سنة المنصرمة أكثر من ذٰلكَ بأضعاف مضاعفة.

(١٤٦). حافظ قبيسي: **مدخل لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العرب**. ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية**. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط٣. ١٩٨٥م. ص٢٠٥.

لا نريد أن ندخل متيه التَّخمين والتَّقدير بعيداً عن المعطيات الإحصائيَّة المناسبة أو اللازمة، ولٰكنَّنا علىٰ ضوء معطيات تصاعد هجرة الكفاءات العلميَّة تصاعداً مدهشاً إثر فترة إحصاءات الأبحاث السابقة، وتصاعد وتائر التَّطوُّر العلميِّ والتقانيِّ المدهشة بالمقارنة مع فترة الإحصاءات، وعلىٰ ضوء معلوماتنا عن دور العلماء والكفاءات العلميَّة العربيَّة في المرحلة الجديدة وإلىٰ الآن، يمكننا القول إنَّنا أمام أرقام مدهشة... مدهشة أكثر مما تتخيَّلون بكثير.

هي ليست أرقاماً وأعداداً. هي ليست إحصاءات. هي ليست حبراً علىٰ ورق... هي إنجازات علمية وتقانية علىٰ أرض الواقع. هي إنجازات علمية تطور الغرب بها وازداد نموًّا وقوَّة ومنعةً، واستخدم بعض غير قليل منها ضد العرب، وخسرها العرب. حسبنا أن نذكر مثالين من آلاف؛ لولا **فاروق الباز** لرُبَّما تأخر الذهاب إلىٰ القمر عشرات السِّنين، وما قدمه **أحمد زويل** اختصر عشرات السنين من التطور وخدم البشرية خدمةً مدهشةً نقلت العلوم كلَّها وخاصَّة البيولوجيا ومتعلقاتها نقلةً كيفيَّة وكميَّة.

أما قولنا بأن العرب خسروا هٰذه الإنجازات فهو نسبي لا مطلق، من المؤكد أنَّ أكثرهم ما كان يمكن أن يفعل ما فعله في الغرب فيما لو بقي في الوطن العربي، فماذا كان يمكن أن يفعل **فاروق الباز** من غزو الفضاء فيما لو بقي في مصر؟ ولٰكنَّ المؤكد كما يكرر الكثيرون «أنَّ الدُّول المستقوية استخدمت هٰذه الكفاءات بمكرٍ ودهاءٍ للاستفادة منها وحرمان الدُّول الأُخْرَىٰ من تلك الفائدة،

حَتَّىٰ أضحت هجرة العقول من أخطر الظواهر الاجتماعية الَّتي تهدِّد المستقبل العربي وتستنزفه»[١٤٧].

المقصود بالخسارة خسارة القدرة الإبداعيَّة التي كان يمكن أن تستثمر في العالم العربية، وكان من الممكن جدًّا أن تقدِّم إنجازات مدهشة تسهم في تطور العالم العربي... فيما كانت هناك غير هٰذه الأنظمة عدوة الإنسان العربي والمسلم.

وحَتَّىٰ ندرك مدى خطورة هٰذا السُّلوك نتذكَّر هنا «محاولة الإدارة الأمريكيَّة استقطاب الكفاءات الفرنسيَّة إثر محاولة حكومة هٰذا البلد اتِّخاذ موقف متوازن في حرب الخليج الثَّانية واضطرار الرَّئيس الفرنسي للسَّفر إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكيَّة لدفع ثمنٍ سياسيٍّ لتوقيف تلك الهجرة دليل واضح وكاشف علىٰ استخدام هٰذه الظَّاهرة كسلاح سياسيٍّ يخدم مطامع القوى الكبرى المتنفِّذة في هذا العالم»[١٤٨].

في الخسائر العربية

كلُّ ما سبق الكلام فيه هو خسائر علمية لها صورة ونتائج مادِّيَّة ولٰكنَّهَا في الحقيقة غير قابلة للتَّقدير بثمن مطلقاً.

ولٰكنَّ في الوقت ذاته ظهرت في أوقات متباعدة ومتقاربة تقديرات مادية للخسائر المادية التي يمكن قياسها أو تقديرها جرَّاء هجرة الكفاءات العربية أو

(١٤٧) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(١٤٨) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

رُبَّما غير من بلادها. منها على سبيل المثال ما كان في التَّقرير الَّذي نشرته الجامعة العربيَّة مؤخَّراً، في عام ٢٠٠١م، «قدَّرت فيه خسائر الدُّول العربيَّة جرَّاء هجرة علمائها إلى الخارج بما يزيد عن مئتي مليار دولار، مشيراً إلى أنَّ الدُّول الغربيَّة هي المستفيد الأكبر من احتضان أكثر من ٤٥٠ ألف عربيٍّ من حملة الشَّهادات العليا والمؤهلات الفائقة القيمة»(١٤٩).

لم ندر من التقرير المدى الزمني لهذه الخسارة المقدرة بمئتي مليار دولار. هل هي سنوية، أم على مدار ما سبق من التقرير، أم غير ذٰلكَ... ولٰكنَّ الطَّريف المضحك هنا هو أنَّ هٰذا الرقم بقي ثابتاً حَتَّىٰ بعد ست سنوات منه إذ «ذكرت دراسة لمركز الخليج للدارسات الاستراتيجيَّة أنَّ هجرة العقول العربيَّة تكلِّف الدُّول العربيَّة خسائر لا تقل عن ٢٠٠ مليار دولار مضيفة أنَّ الدُّول الغربيَّة الرأسمالية تُعَدُّ (الرابح الأكبر) من هجرة ما لا يقل عن ٤٥٠ ألفا من هذه العقول»(١٥٠).

إذا قارنا بَيْنَ الخبرين نجد أنَّهُ ذاته تم تداولة على مدار سنين وكأنه خبر طازج من دون الانتباه إلى التاريخ، ومن مراجعة ومناقشة، بما يوحي بطبيعة الباحثين اللامبالين الارتجالين الذين يلقون الكلام جزافاً لملئ الصفحات وقبض المكافآت، غير آبهين بما ينطوي عليه ذٰلكَ من مخاطر وتضليل.

على أي حالٍ، إذا قارنا بَيْنَ هذا التقدير وتقدير الأمم المتحدة في العام ذاته، أي عام ٢٠٠١م أمكننا الوصول إلى شيء تقريبي بالمقارنة، فقد «أشار

---

(١٤٩) . ياسين رفاعية: **خسائر العرب العقلية ٢٠٠ مليار دولار** . ضمن جريدة المحرر العربي . لندن . العدد ٢٩٧ . ١حزيران ٢٠٠١م . ص٢٤.

(١٥٠) . أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . موقع أخبار الوطن . ٦/١٦/ ٢٠٠٦م.

تقريرٌ للأمم المتَّحدة أنَّ هجرة الآسيويين الخبراء في تكنولوجيا المعلومات إلىٰ دول متقدِّمة تكلِّف القارَّة الآسيويَّة مليارات الدولارات سنويًّا علىٰ رغم أنَّ بعضهم قد يعود في نهاية المطاف. وأوضح تقرير التَّنمية لعام ٢٠٠١م أنَّ الهند مثلاً تفقد ملياري دولار سنويًّا من الموارد بسبب هجرة خبراء الكمبيوتر إلىٰ الولايات المتحدة وحدها»[١٥١]...

لننظر جيِّداً في الخبر إنَّهُ يتحدث عن جانبٍ واحدٍ فقط من الكفاءات المهاجرة هو خبراء الكمبيوتر وحسب، والتكلفة سنوية. ويتحدَّث عن خسائر في الموارد المادِّيَّة أي التِّجاريَّة من نتاج عمل هٰؤلاء ولا يتحدَّث عن الخسائر المادية بالجملة والتَّفصيل.

ذكرنا في سياق الفصول السابقة أنَّ التَّكلفة المادية الخالصة لإنتاج الكفاءة العلمية من قبل الدولة لا تقلُّ عن نصف مليار دولار بحالٍ من الأحوال... وهٰذا أمر قلما وجدنا من يفيه حقه من التقدير الصحيح، فالكل، نقلاً عن نقل، يقدرون تكلفة إنتاج الكفاءة العلمية تقديراً سطحيًّا ارتجالياً وكأنها حساب تكلفة تربية خروف بتوزيع تكلفة إنتاج القطيع علىٰ عدد الخرفان فتكون النتيجة مجموع المدفوع مقسوماً علىٰ عدد الخرفان.

حساب تكلفة إنتاج العلمية لا يحسب علىٰ هٰذا الأساس أبداً، حساب تكلفة إنتاج الكفاءة العلمية يكون بجمع ما أنفقته الدولة علىٰ مدار سنوات الدراسة علىٰ كلِّ الطلاب في أرجاء الدولة من مدارس ومدرسين وأدوات وإدارات من المدرسة إلىٰ الوزارة.... وتقسيمها علىٰ عدد الكفاءات التي أنتجت

(١٥١) . رويترز: **هجرة الخبراء الآسيويين تكلف القارة مليارات الدولارات** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٨/٤/١٤٢٢هـ الموافق ١٠/٧/٢٠٠١م.

في سنة تخرج الكفاءة العلمية... وعلىٰ هٰذا الأساس تكون فاتورة إنتاج الكفاءة العلمية الواحدة لا تقل عن نصف مليار دولار.

علىٰ هٰذا الأساس يمكن أن ننظر في إحصاءات الكفاءات المهاجرة ومدى ما تمثِّله من خسائر محض مالية في إنتاج الكفاءات العلمية. أفرجنا فصلاً بل فصلين لإحصاءات الكفاءات العربيَّة المهاجرة ولن نعيد الكلام فيها هنا، حسبنا هنا أن نضرب مثالاً واحداً للمقاربة من كتاب صدر عام ١٩٨٣م، جاء فيه أنَّهُ «هاجر خلال المدَّة من ١٩٦٧/٦/٣٠م حَتَّىٰ ١٩٦٨/٦/٣٠م نحو من ١٥٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطباء العرب. وخلال المدَّة نفسها من العام التَّالي هاجر ٣١٩٨١. أمَّا العام الثالث فكان نصيبه ١٦٤٩٢ مهاجراً، هٰذا إلىٰ أمريكا وحدها»[١٥٢].

أي إنَّ نصيب أمريكا وحدها من الكفاءات العربيَّة المهاجرة قد بلغ خلال آخر ثلاثة أعوام من الستينات نحو ٦٤٤٤٦ كفاءة في عدد محدود من المجالات لا كلها.

فلننظر في تكاليف إنتاج الكفاءة العلمية الواحدة، مع أخذ العامل الزمني بعين الحسبان، وماذا خسر العرب جرَّاء هجرة هٰذه الكفاءات. كان هٰذا بَيْنَ عامي ١٩٦٧م و١٩٦٨م، فماذا يمكن أن نقول عن هٰذه الأيام؟ وماذا نقول عمَّا قبلها من سنوات تدفقت فيها الكفاءات علىٰ الغرب تدفقاً أدمى القلوب والعقول؟

---

(١٥٢) . د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة . الرياض . ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م . ص٥٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** . دار القلم/ الدار الشاميَّة . دمشق/ بيروت . ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م . ص٧٩.

والذي يستحقُّ الإشارة إليه هنا هو أنَّ هٰذه الخسائر المقدرة إنَّما هي لهؤلاء الموفدين، والخسارة ليست بالنقود فَقَطْ وإنَّما بالجهود التي لا تقدَّر بمليارات المليارات...

خطورة هجرة الكفاءات ليست بالمسألة البسيطة ولا العابرة علىٰ الإطلاق، يكفي أن نعلم أنَّ البرازيل ومصر وايران تقدَّمت بمشروع القرار رقم ٢٣٢٠ عام ١٩٦٧م للجمعية العامة للأمم المتحدة للمطالبة بإجراء دراسة في موضوع هجرة الكفاءات. فلا يخفى علىٰ أحدٍ متابع «أنَّ هجرة الكفاءات العلميَّة والفكريَّة من السَّاحة العربيَّة هي في الحقيقة، تغييب لها وحرمان لمجتمعها من جهودها وعطائها الذي هو في أمسِّ الحاجة إليها، حيث تفقده هٰذه الهجرة العوامل الضَّرورية لتطويره نحو الأفضل»[١٥٣].

نادر فرجاني وآثار الهجرة

نادر الفرجاني من أبرز الذين كتبوا في هجرة الكفاءات العربية، وكانت له الكثير من الأبحاث في هٰذا الموضوع. وقفنا سابقاً عند رأيه في أسباب الهجرة، وسنعرض فيما يلي لرأيه في آثارها ونتائجها. علىٰ ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنَّنا قلبنا نصَّه المتني إلىٰ بنودٍ متعاقبةٍ لم تكن كذٰلكَ في الأصل، اختصرنا الحشو بل ما يعدُّ حشواً لدى الاختصار، وبنَّدنا الآثار أو النتائج حسب رؤيتنا من دون أي تغيير في المتن[١٥٤].

---

(١٥٣) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

(١٥٤) . انظر تفاصيل هذه الأسباب في بحث الدكتور نادر فرجاني: **هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية تطوير التعليم العالي** . مركز المشكاة للبحث . مصر . حزيران/ يونيو ٢٠٠٠م.

أولاً: نقطة مهمة أثارها **الفرجاني** تستحق الوقوف عندها والتفكير فيها، ولن نناقشها، سنتركها لكم، قال[١٥٥]: «إنَّ الإنتاجيَّة الحدِّيَّة الخاصَّة للكفاءات المهاجرة فى بلدان العالم الثَّالث ضعيفةٌ جدًّا، تكاد تقترب من الصِّفر، بل وأحياناً تكون سالبةً. وأنه في هٰذه الحالة لا يترتب علىٰ ترك هٰذه الكفاءات لبلد الأصل خسارة اقتصاديَّة، بل يمكن أن يكون في ذٰلكَ كَسْبٌ». ولٰكنَّهُ في متابعته ينقض هٰذا الكلام بقوله: «يعانى هٰذا المنطق من عيب جوهريٍّ فى اقتصاره علىٰ التَّحليل الفردي الذي يهمل الدَّور المجتمعيَّ، بالغ الأهميَّة، للمعرفة المتجسِّدة في الكفاءات عالية التَّأهيل».

ثانياً: يعود **الفرجاني** إلىٰ الفكرة ذاتها مرة ثانية بطريقة أُخْرَىٰ فقال: إنَّ الكفاءة العاطلة عن العمل إذا هاجرت لا تمثل خسارةً لوطنها، مثل الطَّبيب البشري الذى يعمل سائقاً لسيارة تاكسي فيهاجر لأنه لا يجد عملاً كطبيب بلده، فإن ذٰلكَ يجب ألا يدفعنا لاعتبار أنَّ هجرته إلىٰ أحد بلدان الغرب المصنعة (لا[١٥٦]) تشكِّل خسارةً لبلد الأصل، حَتَّىٰ وإن مارس المهاجر عمله المؤهل له فى بلد المهجر. فالإطار المنطقي لمناقشة هٰذا الأمر يجب أن يأخذ إمكانيَّة الهجرة للخارج كعنصرٍ أصيلٍ فى اتِّخاذ الأفراد للقرارات المتعلِّقة بمساهمتهم فى النَّشاط الاقتصادي فى بلد الأصل.

---

(١٥٥) . بدا الفرجاني في عرضه الفكرة أنَّهُ يتبناها، ورُبَّما لا يكون كذٰلكَ، ولٰكنَّ سياق نصه يوحي بقبولها جزئيًّا، وعدم قبولها بالمطلق.

(١٥٦) . غالباً ما تكون هٰذه ال (لا) زيادة مطبعية، لأنها تنقض المعنى، وعلىٰ فرض قبول النقض فلن يستقيم الكلام.

ثالثاً: ينجم عن هجرة فردٍ ما خسارةٌ أوليَّةٌ لبلد الأصل تتمثل في التَّكلفة التَّاريخيَّة التي تكبدها المجتمع فى تكوين وتعليم المهاجر، مباشرة أو بطريق غير مباشر، حَتَّىٰ وقت الهجرة. وبالطبع يقابل التكلفة التاريخية لبلد الأصل، حصول بلد المهجر علىٰ مكسب أولي يعادل التَّكلفة التى كان سيتكبدها لو كان المهاجر إليه قد تكون أساساً داخل حدوده. ولا يتساوى هٰذا المكسب بالضَّرورة مع التَّكلفة التَّاريخية للمهاجر فى بلد الأصل.

رابعاً: علىٰ الرَّغْمِ من أنَّ التَّكلفة التَّاريخيَّة للمهاجر تعدُّ من أبسط عناصر الخسارة التي يتحمَّلها بلد الأصل في هجرة الكفاءات إلا أنَّ لها بُعداً اجتماعيًّا، أو بلغة الاقتصاد توزيعيًّا، مهمًّا يزيد من عبئها ويحسن الإشارة إليه. فلما كانت بلدان الأصل في العالم الثَّالث فقيرةً، والتَّعليم العالي بها ميزةٌ لا يحصل عليها إلا نخبة، ولما كانت هٰذه النُّخبة، وهي عادةً الأقدر ماليًّا، لا تتحمَّل إلا نسبة ضئيلةً من تكلفة التَّعليم العالي، فإنَّ التَّكلفة المجتمعيَّة لتعليم الكفاءات المهاجرة تقع فى الحقيقة علىٰ كاهل الغالبيَّة الفقيرة التي لم تنل حظَّ هٰذه الكفاءات نفسه من التَّعليم العالي.

خامساً: البلدان المتخلفة تعاني بوجه عام من نقص الكفاءات المطلوبة لدفع عجلة التَّقدُّم. وتزداد مغبَّة عجز الكفاءات فى البلدان المتخلِّفة هٰذا في عصر الاقتصاد الجديد الذي تعتمد الأنشطة عالية القيمة المضافة فيه بشكلٍ حرجٍ علىٰ كثافة المعرفة.

سادساً: هجرة الكفاءات تزيد فى النهاية من عجز الكفاءات فى بلدان العالم الثالث عموماً ومن تدني إنتاجيَّة عناصر الكفاءات الباقية فى مجتمع الأصل.

سابعاً: تؤدِّي هجرة الكفاءات، في الأجل الطويل، إلىٰ تخفيض الرَّصيد المعرفي، ومن ثمَّ النَّاتج الإجمالي، فى بلدان الأصل نتيجةً لفقد النَّاتج المترتب علىٰ وجود الكفاءات التي هاجرت، من جانب، ولفقد وفورات الحجم الكبير فى المعرفة التي تنجم عن اضمحلال مجتمع كفاءات بلد الأصل، من جانب آخر.

ثامناً: صعوبة التَّحكُّم فى نسق الأجور في سوق العمل المحلي، وضعف السياسات الاجتماعية التى قد ترغب سلطات بلد الأصل فى تحقيقها عن طريق نظام الأجور

تاسعاً: نقص الكفاءات، الذي تزيد من حدَّته الهجرة، يؤدِّى ببلدان العالم الثَّالث إلىٰ استقدام كفاءاتٍ أجنبيَّةٍ لدعم النشاط الاقتصادى بها مما يترتب عليه تكلفة ماديَّة واجتماعيَّة كبيرة. ويحدث أحياناً أن تعود الكفاءات المهاجرة لبلادها كخبرات أجنبية تحت علم بلد آخر ولخدمة مصالح ليست بالضرورة متوحدة مع مصلحة أوطانها الأصلية، وفى هذا الخسارة الأعظم.

عاشراً: قد يكون لهجرة الكفاءات مساهمة مدمرة فى إجهاض احتمالات تبلور الطليعة المثقفة من رحم فئة الكفاءات. وقد يكون فى هذا الغرم الأكبر لهجرة الكفاءات. إذ فيه جناية على إمكانية التنمية ببلدان الأصل.

حادي عشر: الحد من إمكان التَّقدم فى بلدان الأصل نتيجة لهجرة الكفاءات هو إضعاف منظومة إنتاج المعرفة واكتسابها، ودورها فى إحراز التَّقدم فى العصر الحالي ليس بحاجة لتأكيد. فالمعروف أن هجرة الكفاءات تصيب أشدَّ ما تصيب مؤسَّسات التَّعليم العالي والبحث والتَّطوير حيث تكون العناصر الفاعلة في هٰذه المؤسَّسات من أكثر عناصر الكفاءات رغبةً فى الهجرة، ومن أعظمها فرصة فى تحقيقها.

محمد رياض وآثار الهجرة

وقفنا في فصل سابق عند رأي **محمد رياض** في أسباب هجرة الكفاءات، ونضيف هنا رأيه في آثار هٰذه الهجرة لمزيد من التَّنوير والتَّوضيح والتَّنويع، وهٰذا رأيه الذي نقدمه باختصار غير مخلٍّ(١٥٧):

يمكن تحليل النَّتائج المترتبة علىٰ هجرة الكفاءات من النَّاحية الاقتصاديَّة والنَّاحية الثقافيَّة والتَّعليمية وكذٰلكَ من ناحية أكثر شمولاً هي ناحية المجتمع النَّامي الَّذي يتأثَّر بها:

أولاً: النتائج الاقتصادية

تمثل هجرة الكفاءات بكلِّ بساطةٍ اقتطاعاً من القوى العاملة المهمَّة المتوافرة لدى البلاد والتي تحتاج إليها البلدان النَّامية حاجة ماسَّة في الجهد التَّصنيفي الذي تبذله، وينتج عن هٰذه الهجرة تخريب للقوى المنتجة في الاقتصاد وزيادة التَّوتُّر في سوق القوى العاملة العالية المستوى الأمر الذي يؤدي بدوره إلىٰ التأثير في مستوى الأجور. ولا يمكن التعويض عن هذا الاقتطاع بالتَّحويلات النَّقدية التي تأتي نتيجة هجرة القوى العاملة العادية التي تقتصر علىٰ المواصفات الفنيَّة. وبقدر ما يكون مستوى كفاءة القوى العاملة العالية مرتفعاً بقدر ما تكون خسارتها كبيرة بالنسبة إلى الاقتصاد فبالإضافة إلى تكاليف توظيف قوة العمل والاحتفاظ بها، هناك التَّكاليف الباهظة للتَّعليم والتَّدريب الَّتي تدفع في معظم الأحيان بالعملات الصَّعبة، وتكمن الخطورة في:

---

(١٥٧) . انظر تفاصيل هذه الآثار في بحث الدكتور محمد رياض : **الهجرة العلمية.. واستنزاف الكفاءات** . مجلة النبأ . العدد٥٧ . صفر ١٤٢٢هـ . أيار ٢٠٠١م.

١- العجز الحاصل بسبب الهجرة في الكوادر العلمية اللازمة لرفع وتيرة التَّطوُّر الاقتصادي والاجتماعي وهٰذا ما يؤثِّر علىٰ نحوٍ مباشر في مستوى رفاهية الشَّعب.

٢- عدم حصول البلاد علىٰ أيِّ مردودٍ لقاء ما أنفقته علىٰ تعليم هٰؤلاء الأفراد.

ثانياً: النتائج الثقافية والتعليمية

يمكن أن نوجز النَّتائج من هٰذه الوجهة بما يلي:

١ - تناقص قدرة هٰذه البلدان في إعداد المؤهلين اللازمين لعمليات التَّنمية محليًّا إذ إنَّ هجرة الكوادر العلمية تحرم الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية والتأهيلية من الأجهزة والكوادر التي يكون بإمكانها أن تعمل علىٰ إعداد المؤهلين محليًّا.

٢ - انخفاض المستويات التَّعليميَّة في البلد نتيجة تناقص عدد المؤهلين من أعضاء الهيئة التَّدريسية بالنسبة لعدد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمؤسَّسات التَّعليميَّة مما يؤدِّي إلىٰ تخرج دفعات ذات كفاءة محدودة.

٣ - إرهاق الأجهزة الحالية المؤلفة من الفنيين والكوادر العلميَّة سواء في الجامعات أم المعاهد أم مؤسَّسات الدَّولة بازدياد الأعباء عليهم مما يؤدِّي إلىٰ ضعف الإنتاجيَّة وانخفاض المردود وانتشار روح اللامبالاة، ونمو العقليَّة الرُّوتينيَّة وفتور الحماسة للتَّجديد والتَّطوُّر.

٤ - عدم القدرة علىٰ إنشاء مراكز للأبحاث العلميَّة أو التَّوسُّع القائم فيها، مما يؤدِّي بالتَّالي إلىٰ عرقلة التَّطوُّر والتَّقدُّم الفكري والعلمي لهٰؤلاء

الاختصاصيين وتناقص وانخفاض قدراتهم الأساسيَّة بحكم عدم إتاحة الفرصة لها للممارسة والتطبيق.

٥ – تناقص القدرة علىٰ الربط بَيْنَ التَّطوُّرات الثقافيَّة والتَّعليميَّة في البلد وبَيْنَ متطلبات خطط التَّنمية الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

٦ – اضطرار الدَّولة إلىٰ استيراد الخبرات العلميَّة الأجنبيَّة من الخارج لتلافي النَّقص الحاصل من جرَّاء الهجرة وبالتَّالي الوقوع في دائرة التَّبعيَّة.

ثالثاً: ما الناحية الاجتماعية

وبشكلٍ عام يجب النَّظر إلىٰ ظاهرة الهجرة علىٰ اعتبار أنَّهَا تشكِّل آفةً عامَّةً في المجتمع بكلِّ أبعادها وتأثيراتها وقد ركزت هٰذه الدراسة علىٰ مشاكل القوى العاملة الاقتصاديَّة والعلميَّة العالية المستوى إلا أنَّ ظاهرة هجرة الكفاءات تصيب فئات اجتماعيَّة أُخْرَىٰ.

إنَّ الضَّرر الكبير الذي يلحق بالمجتمع من جراء هجرة الكفاءات لا يمكن تقديره بمعايير بحتة أو بمعايير السُّوق وحدها، فلا بُدَّ من تقويم هٰذا الضَّرر بكافة آثاره المتنوعة.

الاتحاد البرلماني العربي وآثار الهجرة

لم يغب الاتحاد البرلماني العربي عن تقديم رأيه في آثار هجرة الكفاءات في الدراسة التي قدَّمها حول الموضوع من خلال استخلاص ما أثاره الباحثون في هٰذا الموضوع، فكانت هٰذه الآثار التي تحدث عنها التَّقرير(١٥٨).

(١٥٨) . الاتحاد البرلماني العربي: مذكرة الأمانة العامة **حول جوهر الأدمغة العربية** . المؤتمر العاشر للاتحاد . الخرطوم ٩ – ١١ / ٢ / ٢٠٠٢م . البند ٧ / ١٠.

تفرز هجرة العقول العربيَّة إلىٰ البلدان الغربيَّة عدَّة آثار سلبيَّة علىٰ واقع التَّنمية في الوطن العربي. ولا تقتصر هٰذه الآثار علىٰ واقع ومستقبل التَّنمية الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة العربيَّة فحسب، ولٰكنَّهَا تمتدُّ أيضاً إلىٰ التَّعليم في الوطن العربي وإمكانات توظيف خريجيه في بناء وتطوير قاعدة تقنية عربيَّة. ومن أهم المنعكسات السلبية لنزيف العقول :

١ . ضياع الجهود والطاقات الإنتاجية والعلميَّة لهذه العقول العربيَّة التي تصبُّ في شرايين البلدان الغربيَّة بَيْنَما تحتاج التَّنمية العربيَّة لمثل هٰذه العقول في مجالات الاقتصاد والتَّعليم والصِّحة والتَّخطيط والبحث العلمي والتقانة.

٢ . تبديد الموارد الإنسانيَّة والماليَّة العربيَّة التي أنفقت في تعليم وتدريب الكفاءات التي تحصل عليها البلدان الغربيَّة من دون مقابل.

٣ . ضعف وتدهور الإنتاج العلمي والبحثي في البلدان العربيَّة بالمقارنة مع الإنتاج العلمي للعرب المهاجرين في البلدان الغربيَّة.

٤ . مع ازدياد معدلات هجرة العقول العربيَّة إلىٰ الغرب يزداد اعتماد غالبيَّة البلدان العربيَّة علىٰ الكفاءات الغربيَّة في ميادين شتَّى بتكلفةٍ اقتصاديَّةٍ مرتفعةٍ ومبالغٍ فيها في كثيرٍ من الأحيان... وبعبارةٍ أُخْرَىٰ فإنَّ البلدان العربيَّة تتحمَّل بسبب هٰذه الهجرة خسارةً مزدوجةً لضياع ما أنفقته من أموال وجهود في تعليم وإعداد الكفاءات العربيَّة المهاجرة، ومواجهة نقص الكفاءات وسوء استغلالها والإفادة منها عن طريق استيراد الكفاءات الغربيَّة بتكلفةٍ كبيرةٍ.

٥ . إنَّ الدُّول العربيَّة تفتقد ما يمكن أن يطلق عليه مشروع التَّنمية المتوازنة والشاملة، والذي من أهم عوامله خلق وتعزيز البيئة الفكريَّة والعلميَّة والثَّقافيَّة التي توفِّر مقوِّمات العمل والاستقرار المعيشي والنَّفسي والإنتاج العلمي.

٦ . فقدان أيِّ نوع من الوحدة أو التَّكامل أو حَتَّىٰ التَّنسيق بَيْنَ البلدان العربيَّة في معالجة موضوع هجرة الأدمغة أو استخدام الكفاءات الوطنية وأصحاب الخبرات من العلماء والمهندسين والأطباء وغيرهم.

٧ . من الواضح أيضاً أنَّ هجرة الأدمغة تؤدِّي إلىٰ توسيع الهوَّة بَيْنَ الدُّول الغنيَّة والدول الفقيرة. لأنَّ هجرة أصحاب الكفاءات إلىٰ الدُّول المتقدِّمة تعطي هٰذه الدُّول فوائد كبيرة ذات مردودٍ اقتصاديٍّ مباشرٍ بَيْنَما تشكِّل بالمقابل خسارةً صافيةً للبلدان التي نزح منها أولئك العلماء، خاصَّة لأنَّ التكنولوجيات والاختراعات المتطوِّرة التي أبدعها أو أسهم في إبداعها أولئك العلماء المهاجرون تعتبر ملكاً خالصاً للدُّول الجاذبة.

٨ . تعتبر منظمة اليونسكو أنَّ هجرة العقول هي نوعٌ شاذٌّ من أنواع التَّبادل العلمي بَيْنَ الدُّول يتَّسم بالتَّدفُّق في اتِّجاهٍ واحدٍ أو ما يعرف بالنَّقل العكسيِّ للتِّكنولوجيا، لأنَّ هجرة العقول هي فعلاً نقلٌ مباشرٌ لأحد أهمِّ عناصر الإنتاج، وهو العنصر البشري.

خاتمة

في غمرة البحث وجدت غير واحدٍ يفرح بوجود هٰذه الكفاءات في الغرب ويرى فيها عاملاً إيجابيًّا وتوقعاً أحمق بعودة هٰذه الكفاءات، وذهب بعضهم إلىٰ حدِّ الفرح بالأموال التي يرسلونها إلىٰ بلادهم، وهٰذا وهم وخلط بَيْنَ المهاجرين إلىٰ الدُّول العربيَّة الذين يرسلون الأموال وبَيْنَ الكفاءات المهاجرة إلىٰ الغرب التي قلَّما تفعل ذٰلكَ. الحقيقة أنَّهُم ذهبوا ولن يعودوا، وعودة عدد منهم لا يقاس عليها، الأمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً غير منفصمٍ بَيْنَ وجود أسباب هجرتهم وعدم وجودها بل القضاء عليها. وفي مثل ذٰلكَ قالت **نانسي بيردسال** المستشارة في

برنامج الأمم المتحدة: «إنَّنا نرى دلائل علىٰ أنَّهُ عندما تهيئ الدول الفرص الملائمة بما في ذٰلكَ فتح مجالات جديدة للاستثمار وأفكار جديدة، يمكنها أن تعيد بعض ما فقدته»[١٥٩]، بعض ما فقدته، وهو بعض فيما يبدو قليل أيضاً... أيضاً... يزداد بازدياد موثوقية تغير شروط الحياة السِّياسيَّة والعلميَّة والأكاديميَّة ورُبَّما الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة.

قد يتخيَّل الكثيرون أنَّنا نعتب علىٰ الكفاءات العربيَّة المهاجرة، أو أنَّنا نطعن في انتماءاتها، ولٰكنَّنا في حقيقة الأمر نرثي لحالهم أوَّلاً، ثمَّ لحالنا ثانياً، لأنَّنا نحن الذين لفظناهم من بَيْنَنا كما نلفظ عقب السيكارة.

عندما لم يجدوا «بعد المرار والأسى إلا الغربة ملاذاً، وتفريغ طاقاتهم الذِّهنيَّة والإبداعيَّة في مخابر الغرب، ثمَّ ... ثمَّ كلَّما سمعنا عن نابغٍ عبقريٍّ عربيٍّ لَمَعَ في الغرب لطمنا الخدود وشددنا الشُّعور وقلنا: لقد قتلنا الغرب باستنزاف العقول العربيَّة المبدعة»[١٦٠]. ثمَّ نصحو من سكرة الخبر لنغرق في سكرة الواقع لنلتمس المسوغات والأعذار، فندَّعي أنَّنا غير قادرين علىٰ استيعابهم ماديًّا، وغير قادرين علىٰ تأمين المخابر العلميَّة اللازمة لهم... وهلمَّ جرًّا من هذه الأعذار.

(١٥٩) . رويترز: **هجرة الخبراء الآسيويين تكلف القارة مليارات الدولارات** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٤٢٢/٤/١٨هـ الموافق ٢٠٠١/٧/١٠م.

(١٦٠) . عزَّت السيد أحمد: **انهيار دعاوى الحداثة** . دار الثقافة . دمشق . ط٢ . ١٩٩٩م . ص٨٩.

QUARTZ

الخاتمة

كثيرون سيسألون قبل أن يقرأوا، فقط من خلال الفهرس: أين المقترحات... لا يوجد فصل للمقترحات والحلول! لهذا ليسن من الأكاديمية في شيء، لهذا نقص، لهذا خلل... وهلم هلمَّ...

هم لا يريدون المقترحات، ولو وجدت المقترحات لنظروا في غيرها، هم لا عمل لهم إلا نكث التراب مثل الدجاج إلا أنَّ الدجاج يعرف لماذا ينكث وهم لا يعرفون، يحسبون أنَّهُم يمارسون عملاً منهجيًّا.

أكثر من نصف الكفاءات التي نوفدها للغرب لا تعود وتبقى في الغرب، فقط الكفاءات التي أرسلناها لنصنعها في روسيا الاتحاد السوفيتي عادت كلها ومعها أعداد زائدة عما أرسلناه إلىٰ روسيا. في هٰذا وحده علامة استفهام كبيرة.

إنَّ الذين لا علاقة لهم بالإبداع ولا البحث العلمي مقيَّدون لجهلهم بقواعد وضوابط يسمُّونها المنهجيَّة، والمنهجيَّة بريئةٌ من تخرُّصاتهم. وعلىٰ مسطرة هٰذه المنهجيَّة التي حفظوها كلُّ واحدٍ بطريقةٍ، وكلُّ واحدٍ لبعضٍ منها، وكلُّ واحد مختلف عن غيره، ويقصقصون الأبحاث علىٰ أساسها غير مختلفين بهٰذا الغباء والهبل عن بروكست.

بجهلهم، وعدم أهليَّتهم لما وضعوا فيه، حوَّلوا البحث العلمي إلىٰ قوالب جامدة جافة تكراريَّة يفرضونها علىٰ الجميع لتصبح الأبقار كلها سوداء في النَّهار مثلما هي في الليل. ويحكمون بها علىٰ الجميع وكأنَّهم عشيت أبصارهم فتساوت عندهم الألوان والأشكال فظنُّوا كلَّ ما يشبه الإنسان إنساناً، وكل ما يشبه العمود عموداً، ولم يقبلوا الاعتراف بأنَّ المشكلة في عقولهم وتفكيرهم وليست في الأشكال ولا الأشياء.

علىٰ أيِّ حال، بعودٍ إلىٰ صلب موضوعنا ولم يكن ما كان خارجه، في عام ٢٠٠٢م قال **عمرو موسى** أمين الجامعة العربيّة: «إنَّ الجامعة بدأت التَّواصل مع الجاليات العربيَّة من خلال تنظيم مؤتمراتٍ دوليَّةٍ في أماكن تجمعهم هٰذه»[١٦١]... فبدا أنَّ العرب قد صحوا وأفاقوا وعقدوا العزم...

ولٰكن حَتَّىٰ هٰذا المشروع الذي يؤمِّن للمسؤولين العرب رحلات سياحيَّةً واسعةً وكثيرةً، وعلىٰ الرَّغْمِ من كلِّ ما قيل من تفاصيل وعزف علىٰ مواجع هٰذه المأساة إلىٰ درجة إجماعهم مع وزيرة القوى العاملة والهجرة المصريَّة علىٰ «أنَّ قضايا المهاجرين وأوضاعهم وحقوقهم لم تعد تشكِّل مجرَّدَ هواجس اقتصاديَّة واجتماعيَّة وقانونيَّة بل أصبحت ذات أبعادٍ وتداعيات أمنيَّةٍ وسياسيَّة وطنيًّا وإقليميًّا ودوليًّا»[١٦٢]... علىٰ الرَّغْمِ من ذٰلكَ أيضاً إذن، فإنَّ فرصة السِّياحة هٰذه للمسؤولين العرب لم تستثمر لخوفهم من استثمارها في فضحهم.

---

(١٦١) . محمود جمعة: **وسط دعوات لتنظيم الهجرة وجعلها عربية عربية؛ مجلس وزاري عربي يبحث أوضاع المهاجرين والمغتربين**. الجزيرة نت. كانون الثاني ٢٠٠٢م.

(١٦٢) . المصدر السابق. ذاته.

ماذا يمكن أن نقدِّم من اقتراحات بعد ذٰلكَ؟

ليس مثل هٰذا السُّلوك ما يمنع تقديم المقترحات، وأصلاً من الوهم الظنُّ أنَّ البحث يخلو من المقترحات لمحض أنَّ الفهرس لا ينطوي علىٰ فصل عنوانه مقترحات وحلول أو ما يشبه ذٰلكَ. يصح الكلام هنا وفي أي بحث أو كتاب آخر في أي موضوع يتطلب مقترحات وحلولاً.

الحلول والمقترحات مطلب لا غنى عنه في حقيقة الأمر، ولٰكن من السذاجة بمكانٍ، من السطحية بمكان، ومن الاتكالية بمكان، أن نعطل العقل والتَّفكير في انتظار الباحث حَتَّىٰ يقدم الحلول والمقترحات تحت بابٍ بهٰذا العنوان الصَّريح... هٰذه طريقةٌ تفكيرٍ بيروقراطيَّةٌ خالصةٌ في أحسن الظُّنون والاحتمالات، واتكاليَّة في الأحوال كلها. وأساساً هي من ابتداع المدراء والمسؤولين اللامبالين ذوي العقول المحدودة من أجل أن لا يبحثوا عن الحل من خلال فهم المشكلة المعروضة عليهم فصاروا يفرضون المقترح أو المقترحات في بند مستقل. وأساساً أيضاً لننظر في الأبحاث كلها التي قدَّمت مقترخات وحلول، ماذا فعل بها المسؤولون عنها؟ لا شيء.

لا يمكن العمل علىٰ حل مشكلة من دون فهمها، المقترحات والحلول أصلاً عبء علىٰ صاحب القرار واحتقار له، لأنه يجب عليه أن يفهم المشكلة ويجترح الحلول المناسبة لا أن ينتظر المقترحات التي تقترب من الواقع أو تبتعد عنه، تقترب من الإمكانات المتاحة أو تبتعد عنها، وهٰذا لا يعني أنَّهُ من الخطأ تقديم المقترحات والحلول. ولٰكنَّهَا لا يجوز أن تكون الأساس أو المنطلق من دون فهم المشكلة التي نريد حلها.

علىٰ هٰذا الأساس فإنَّ البحث، أي بحثٍ يسلِّط الأضواء علىٰ جوانب المشكلة فإنَّهُ في الحقيقة يسلِّط الأضواء علىٰ المقترحات والحلول بطريقة أُخْرَىٰ قد تكون مباشرةً أو غير مباشرةٍ، الأمر مرتبط بطبيعة المناقشة والمعالجة. ولهٰذه مسألة ليست موضع مناقشة أو جدال إلا عند الجهال فقيري الحال فيما للتَّفكير من مجال.

تحدثنا مثلاً عن الإنفاق العربي علىٰ البحث العلمي، حالة من عشرات الحالات، وعن الإنفاق الغربي أو العالمي للمقارنة، ذكرنا مثلاً أنَّهُ «في عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م أنفق العرب نحو ١١٥ مليون دولار، فيما كان إنفاق الدُّول المتقدِّمة في العام ذاته ٦٢ مليار [= بليون] دولار. وفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م أنفق العرب مليار وسبعة وعشرين مليون دولار، فيما كان إنفاق الدول المتقدِّمة ١٩٥ مليار دولار»[١٦٣].

الأمر ليس أمر عام واحد واحد، فحسب التقديرات أجمعها، «في العقود السَّابقة ـ من القرن العشرين وحَتَّىٰ الآن ـ كان وسطيُّ ما تنفقه الدُّول العربيَّة علىٰ البحث العلمي لا يتعدَّى ٠,٣% علىٰ ضخامة الدُّخول القوميَّة في بعضها، في حين أنَّ هٰذا الوسطي تراوح في أمريكا وأوربا بين ٢% و٣%»[١٦٤]. أي مئة ضعف نسبيًّا لاكميًّا فقط.

---

(١٦٣) ـ د. سيد شوربجي: **المتغيرات الدوليَّة وانعكاساتها على الأمن العربي** ـ المركز العربي للدراسات الأمنيَّة ـ الرياض ـ ١٤١٣هـ ـ ص٣٢ ـ ٣٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٣.

(١٦٤) ـ د. محمود سفر: **إنتاجيَّة المجتمع** ـ جدة ـ تهامة ـ ١٤٠٤هـ ـ ص٢٦. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار: **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ـ ص٧٣.

ماذا يمكن أن نقترح هنا عندما نورد مثل هٰذه الحقائق والأرقام والمقارانات؟ هل يجب أن نقول يجب زيادة الإنفاق علىٰ البحث العلمي؟ إنَّهُ ضرب من الهبل والاستهبال في آن معاً.

وعندما نقول إنَّهُ حَتَّىٰ هٰذا المبلغ المخصَّص للبحث العلميِّ يتمُّ هدره وعدم استخدام واحدٍ بالألف منه فعلاً في البحث العلمي فماذا نقترح؟ وهل يجب أن نقترح؟ أيضاً هو ضرب من الهبل والاستهبال.

تعالوا ننظر ختاماً في هٰذه المصيبة.

تحدث الدكتور **الجعيدي** عن محاولةٍ لاستقطاب الكفاءات العربيَّة المهاجرة، قال: «ومن الحقِّ والإنصاف أن نقول إنَّ الوطن العربيَّ في هٰذا السُّبات العميق قد شهد بعض المحاولات لوقف هٰذا النَّزيف الذي يكلِّف الوطن العربيَّ تكاليف باهظةً، ومن تلك المحاولات الجادة محاولة الحكومة العراقيَّة في السَّبعينيَّات والثَّمانينيَّات من القرن العشرين استقطاب الكفاءات العلميَّة والفكريَّة العربيَّة المهاجرة إلىٰ الغرب وحَتَّىٰ غير العربيَّة إذ إنَّهَا أدركت قواعد التَّعامل مع هٰذه الظَّاهرة. ومن خلال هٰذا المشروع تمكَّن العراق في السَّبعينيَّات من القرن العشرين من وضع أسسٍ قويَّةٍ لبناء بلدٍ متقدِّمٍ في المنطقة يقوم علىٰ قواعد العلم الحديث لولا أنَّ هٰذه الجهود تمَّ استهدافها فأوقفت من الخارج بتوريط العراق في خلافاتٍ إقليميَّةٍ وصراعاتٍ ثانويَّةٍ أثنته عن مواصلة تلك الخطوة الشُّجاعة»[١٦٥].

(١٦٥) . د. عبد الله الجعيدي: **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** . جريدة الانتقاد . بيروت . العدد ٩٦٣ . الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

كانت محاولة لا محاولات، من العراق وحده لا من غيره. فماذا كانت النَّتيجة؟ **الجعيدي** تحدث عن شيءٍ من النتيجة ولٰكنَّهُ لم يتحدث عن النَّتيجة لأنَّ كلامه كان قبلها عمليًّا ولٰكنَّهُ لاحق عليها في حقيقة الأمر. النتيجة التي كانت هي إصرار الأنظمة العربية أغلبها علىٰ تدمير العراق. لم تتوقف التوسلات الخليجيَّة خاصَّةً والأردنيَّة المصريَّة لأمريكا يوميًّا من أجل القضاء علىٰ العراق وعدم السماح للعراق أن يكون قوَّة إقليمية.

أمريكا تريد، غالباً تريد ما فعلت، ولٰكنَّ الإصرارَ العربيَّ كان أكبر من الإرادة الأمريكيَّة بمئات المرَّات، وقامت دول الخليج بتمويل فاتورة تدمير العراق مع مكافآت بمئات مليارات الدُّولارات فوق التَّكلفة دُفِعَت لأمريكا علىٰ نحو خاصٍّ ولإسرائيل أيضاً علىٰ نحوٍ مباشرٍ وغير مباشرٍ تطميناً لها ولأمريكا.

ماذا نقترح من حلول لمشكلة هجرة الكفاءات إذن أيُّها السَّادة؟

مراجع الكتاب

من المناسب غير اللازم أن نشير إلىٰ أننا لم نصنف المراجع، سردنا كلها بالتتالي حسب الترتيب الهجائي من دون توزيع علىٰ فئات كما يحلو لمن لا يفكرون إلا في الشكليات حَتَّىٰ وإن كانت فارغة لا قيمة لها. وإنما دعاني إلىٰ هٰذه الإشارة ما أجده غالباً من لهاث كثيرين وراء مثل هٰذه الشكليات... ولا أطيل في ذٰلكَ فالقول فيه طويل وكثير.

- الاتحاد البرلماني العربي: مذكرة الأمانة العامة **حول جوهر هجرة الأدمغة العربية** . المؤتمر العاشر للاتحاد . الخرطوم ٩ – ١١ / ٢ / ٢٠٠٢م . البند ٧ / ١٠.
- أخبار الوطن: **ما أسباب هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج؟** . موقع أخبار الوطن . ١٦/٦/ ٢٠٠٦م.
- أسوشيتد برس: **في خطة لتعزيز تكنولوجيا المعلومات؛ أستراليا تخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر** . الجزيرة نت . الإثنين ١٤٢١/١٠/٢٧هـ الموافق ٢٠٠١/١/٢٢م.
- ألان فيشر: **الكفاءات العلمية العربية في الولايات المتحدة** . ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م.

- أنطوان زحلان (الدكتور) وآخرون: **السكان والتَّنمية في الشرق الأوسط** . قسم التنمية الاجتماعية والسكان . اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا / بغداد . الأمم المتحدة . ١٩٨٤م.
- أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السِّياق القومي والدولي** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ١٥٩ . ٥/ ١٩٩٢م.
- إياد القزاز: **اللوبي العربي في الولايات المتحدة؛ الهوية السياسية والمشاركة في العمل السياسي** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** ـ مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ٢٠٩ . ٧/ ١٩٩٦م.
- برهان غليون: **مستقبل الجاليات العربية في أوربا** . ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . العدد ٢٠٩ . ٧/ ١٩٩٦م.
- توفيق المديني: **النِّفط العربي واغترابه عن قضايا التحرر والوحدة العربية** . ضمن مجلة؛ **الوحدة** ـ المجلس القومي للثقافة العربية . المغرب . العدد ٤٢ . عام ١٩٨٨م.
- الجزيرة نت: **اليابان تخفف شروط هجرة خبراء المعلومات إليها** . الجزيرة نت . الأربعاء ١٤٢١/١٠/١٥هـ الموافق ٢٠٠١/١/١٠م.
- حافظ قبيسي: **مدخل لدراسة التوزع الجغرافي للباحثين العلميين العرب** ـ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** ـ مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م.
- خضير عباس النداوي: **هجرة العقول العربية** . صحيفة كتابات . ١٠ حزيران/جون ٢٠٠٥م.

- رويترز: **أوروبا تحتاج ٧٠٠ ألف باحث** . الجزيرة نت . السبت ١٤٢٤/٥/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/١٩م.
- رويترز: **علماء أوروبا يدعون إلى الحد من هجرة العقول لأميركا** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٣/١٠/٨هـ الموافق ٢٠٠٢/١٢/١٢م.
- رويترز: **مستوى الرياضيات يتدنى في بريطانيا** . الجزيرة نت . الأحد ١٤٢٤/٥/٧هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/٦م.
- رويترز: **هجرة الخبراء الآسيويين تكلف القارة مليارات الدولارات** . الجزيرة نت . الثلاثاء ١٤٢٢/٤/١٨هـ الموافق ٢٠٠١/٧/١٠م.
- الزركلي: **الأعلام** . دار العلم للملايين . بيروت.
- زغلول النجار (الدكتور): برنامج؛ **بلا حدود**، قناة الجزيرة . يوم الأربعاء ٢٠٠٠/١٢/٢٦م.
- زهير إبراهيم جبور (الدكتور): **الأستاذ الجامعي بين بحثين؛ لقمة العيش والبحث العلمي** . صحيفة تشرين . دمشق ـ الاثنين ٢٤ كانون الأول ٢٠٠١م.
- زوني إيلي ألفا: **موسوعة أعلام الفلسفة** ـ دار الكتب العلميَّة . بيروت . ١٩٩٢م.
- سعيد الصباح: **عالمان لبنانيان آخران في عالم النسيان** . ضمن مجلة؛ **الشراع** . العدد ٩١١ . كانون الثاني . ١٩٩٩م.
- سعيد الصباح: **لبنان والعرب يخسرون علماءهم** . ضمن مجلة؛ **الشراع** . العدد ٩١٣ . كانون الثاني . ١٩٩٩م.
- سلمان رشيد سلمان (الدكتور): **العولمة وهجرة الكفاءات العلمية العربية** . ضمن جريدة؛ **الاتحاد** . أبو ظبي . الثلاثاء ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م.

- سميح فرعون: **المهنيون الأمريكيون من أصل عربي وهجرة الكفاءات** ـ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥م ـ ص٢٤٦.
- سناء الصباح: **الطفر يحول لبنان إلى حقيبة سفر** ـ ضمن جريدة؛ **الأنوار** ـ بيروت ـ العدد ١٣٩١٩ ـ يوم الأحد ٦ شباط ٢٠٠٠م.
- سيد شوربجي (الدكتور): **المتغيرات الدوليَّة وانعكاساتها على الأمن العربي** ـ المركز العربي للدراسات الأمنيَّة ـ الرياض ـ ١٤١٣هـ.
- صحيفة: الاتحاد ـ أبو ظبي ـ الاثنين ١٤ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م ـ العدد ٨٩٦٨.
- صحيفة الاتحاد ـ أبو ظبي ـ الثلاثاء ١٩ شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م ـ العدد ٨٩٦٩.
- صحيفة الاتحاد: **الأدمغة المهاجرة... تعود إلى مواطنها عبر الإنترنت** ـ ضمن جريدة؛ **الاتحاد** ـ أبو ظبي ـ عدد الجمعة ١٠ رجب ١٤١٩هـ/ ٣٠تشرين الأول ١٩٩٨م.
- صحيفة: **العربي** المصريَّة ـ العدد ٢٦٩ ـ تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٨م.
- صحيفة: **القبس** ـ الكويت ـ عدد ٢٥ / ٤/ ١٩٩٠م.
- عبد الكريم بكَّار (الدكتور): **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي** ـ دار القلم/ الدار الشاميَّة ـ دمشق/ بيروت ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- عبد الله الجعيدي (الدكتور): **هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب** ـ جريدة الانتقاد ـ بيروت ـ العدد ٩٦٣ ـ الجمعه ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م.

- عثمان أبا يزيد: **دراسة حالة لبعض مشاريع اليونسكو المتعلقة بهجرة الكفاءات العربية** ـ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** ـ مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٥م.
- عزت السيد أحمد (الدكتور): **إدوارد سعيد؛ قوة الحق والسباحة ضد الَّتيار** . صحيفة تشرين . دمشق . السبت ١٥ تشرين الثاني ٢٠٠٣م.
- عزت السيد أحمد (الدكتور): **أزمة اللجوء قبل الربيع العربي وبعده** . مجلة ذوات . العدد ٣٠ . ٢٠١٦م.
- عزت السيد أحمد (الدكتور): **العرب هؤلاء المذهلون؛ قراءة في الكفاءات العلمية والماديَّة المستنزفة** ـ مجلة المعرفة . وزارة الثقافة . دمشق . العدد ٤٤٨ . كانون الثاني ٢٠٠١م.
- عزت السيد أحمد (الدكتور): **العولمة والغزو الثقافي** . ضمن مجلة؛ **الفكر العربي** . معهد الإنماء العربي للعلوم الإنسانية . بيروت . العدد ٩٦. ربيع ١٩٩٩م.
- عزت السيد أحمد (الدكتور): **قضايا الفكر العربي المعاصر** . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- عزَّت السيد أحمد: **انهيار دعاوى الحداثة** ـ دار الثقافة . دمشق . ط٢ ـ ١٩٩٩م.
- عزت السيد أحمد: **انهيار مزاعم العولمة** . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- عيسى درويش: **البترول وأهميته في معركة الصمود والتَّصدي** . ضمن مجلة؛ **المناضل** . العدد ١١٧ . كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩م.
- غسان غصن: **نوبل والمتحدرون من أصل عربي** . ضمن جريدة؛ السفير . العدد ٨٧٣٩ . الثلاثاء ٢٤ تشرين الأول ٢٠٠٠م.

- غوستاف لوبون: **سر تطور الأمم** . ترجمة أحمد فتحي زغلول . دار النفائس . بيروت . ط١ . ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- فريد وجدي: **حوار مع الدكتور فاروق الباز** . ضمن جريدة؛ **الاتحاد؛ الملحق الاقتصادي** . أبو ظبي . الأربعاء ١١ ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م . العدد٨٩٩١.
- فواز أسعد (الدكتور): **ما هو واقع البحث العلمي وكيف نريده ان يكون؟!..** جريدة تشرين . دمشق . عدد الثلاثاء ٢٢ آذار ٢٠٠٥م.
- لوقيانوس السُّميساطي: **محاورات لوقيانوس السُّميساطي** . ترجمة؛ سعد صائب . دار طلاس . دمشق . ١٩٨٩م.
- مجلة: **المجلة** . العدد ٥٣٧ . تاريخ ٢٩ / ٥/ ١٩٩٠م.
- مجلة: **حياتنا والشباب** . العدد ٥٣ . شباط٢٠٠٠م.
- محمد رياض (الدكتور): **الهجرة العلمية.. واستنزاف الكفاءات** . مجلة النبأ . العدد٥٧ . صفر ١٤٢٢هـ . أيار ٢٠٠١م.
- محمد عارف: **العلماء العرب يطرقون أبواب الناتوتكنولوجي** . ضمن جريدة؛ **الحياة** . الأربعاء ١٦ رمضان ١٤١٨هـ/ ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨م . العدد ١٢٧٣٦.
- محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي** . ضمن مجلة؛ **العربي** . وزارة الإعلام . الكويت . العدد ٤٩٤ . كانون الثاني . ٢٠٠٠م.
- محمد عارف: **نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين** . ضمن جريدة؛ **الحياة** . لندن . العدد١٣٤٤٩ . الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ/٥ كانون الثاني/يناير٢٠٠٠م.

- محمد عبد العليم مرسي (الدكتور): **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** . مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة . الرياض . ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل** . ضمن مجلة؛ **المجلة** . لندن . العدد ١٠١٤ . ١٨/ ٧/ ١٩٩٩م.
- محمد علي صالح: **من أميون في لبنان إلى رئاسة إمبراطورية فورد** ت ضمن مجلة؛ **المجلة** . العدد ١٠٠٩ . تاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٩٩م.
- محمود سفر (الدكتور): **إنتاجيَّة المجتمع** . جدة . تهامة . ١٤٠٤هـ.
- محمود جمعة: **وسط دعوات لتنظيم الهجرة وجعلها عربية عربية؛ مجلس وزاري عربي يبحث أوضاع المهاجرين والمغتربين** . الجزيرة نت .كانون الثاني ٢٠٠٢م.
- مصطفى أبو لسان (الدكتور): **الأدمغة العربية؛ هجرة وتهجير** . ضمن مجلة؛ **الوسط** . لندن . العدد ١٨٨ . في ١٤/ ٩/ ١٩٩٥م.
- مطر حلمي: **قصة القبض على أحد أهم خمسة علماء صواريخ في العالم** . ضمن مجلة؛ **المجلة** . العدد ٥٣٧ . ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م.
- المهدي المنجرة (الدكتور): **الشباب المغربي وتحدي هجرة الكفاءات** . إدريس ولد القابلة (تقديم وترجمة) ـ الحوار المتمدن – العدد ١٣٥٦ ـ ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٥م.
- نادر فرجاني (الدكتور): **هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية تطوير التَّعليم العالي** . مركز المشكاة للبحث . مصر . حزيران/ يونيو ٢٠٠٠م.
- نواف حردان: **صانعوا تراثنا** . دار بيسان . بيروت.

- وكالات أنباء: **أميركا تعتمد على علماء أجانب** . الجزيرة نت . الخميس ١٤٢٤/٩/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٣/١١/٢٠م.
- وكالة الأنباء الفرنسية: **تعيين وزيرة من أصل مغربي في بلجيكا** . الجزيرة نت . الاثنين ١٤٢٤/٥/١٥هـ الموافق ٢٠٠٣/٧/١٤م.
- ياسين رفاعية: **خسائر العرب العقلية ٢٠٠ مليار دولار** . ضمن جريدة المحرر العربي . لندن . العدد ٢٩٧ . ١حزيران ٢٠٠١م.
- يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الأوربيَّة الوسيطة** . دار المعارف . القاهرة.
- يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة الحديثة** . دار المعارف . القاهرة.
- يوسف كرم: **تاريخ الفلسفة اليونانيَّة**. دار المعارف . القاهرة.

صدر من كتب المؤلف

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.

- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين . . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.

- العدوان الأمريكي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأًصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.

- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- الكل يطلق المار النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.

- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

الفهرس

الإهداء ٠٠٥
مقدمة الكتاب ٠٠٧
الفصل الأول: الإحصاءات والتقديرات..... ٠١١
الفصل الثاني: المغتربون السوريون ٧٣ مليون..... ٠٣٣
مقدمة ٠٣٥
مقال موقع بلدنا..... ٠٣٦
ثمانون مليار دولار الأموال السورية في الخارج..... ٠٣٨
في البرازيل سوريا أخرى..... ٠٤٠
مناصب وتجار... سمعة نظيفة ٠٤٠
هل يعودون إلىٰ سوريا ٠٤١
ثلاثة أخماسهم من حملة الشهادات العليا ٠٤٣
٢٤ ألف طبيب سوري في أمريكا وألمانيا ٠٤٣
هجرة الأدمغة سلبية علىٰ سوريا ٠٤٥
الفصل الثالث: بَيْنَ الكم والكيف..... ٠٤٧
مقدمة ٠٤٩
أولاً: نسبية مفهوم الكفاءات..... ٠٥٠
ثانياً: أجيال الكفاءات..... ٠٥٣
ثالثاً: تزايد النزيف ٠٥٨

رابعاً: محدودية الإحصاءات ٠٦٠
خامساً: في هذه الكفاءات..... ٠٦٢
سادساً: ما بَيْنَ المصدر والمصب ٠٦٥
خاتمة ٠٦٧
الفصل الرابع: آراء في أسباب هجرة الكفاءات..... ٠٦٩
مقدمة ٠٧١
أنطوان زحلان وأسباب هجرة الكفاءات ٠٧١
نادر الفرجاني وأسباب هجرة الكفاءات ٠٧٥
محمد رياض وأسباب هجرة الكفاءات ٠٧٩
خضير النداوي وأسباب هجرة الكفاءات ٠٨٣
الاتحاد البرلماني العربي وأسباب هجرة الكفاءات ٠٨٧
خاتمة..... ٠٨٩
الفصل الخامس: عوامل الطرد الداخلية ٠٩١
مقدمة ٠٩٣
أولاً: الأخلاق الاجتماعية..... ٠٩٧
ثانياً: سوء الإدارة ٠٩٨
ثالثاً: سوء التخطيط..... ١٠٠
رابعاً: الافتقار إلىٰ الإمكانات الكافية ١٠٢
خامساً: سوء الميدان العلمي والعملي ١٠٣
سادساً: العجز عن الاستيعاب ١٠٥
سابعاً: التردي الاقتصادي منعكساً علىٰ الفرد ١٠٧

ثامناً: التردي الاقتصادي منعكساً علىٰ المجتمع ١٠٨
تاسعاً: ضعف الانتماء نسبياً ١٠٩
عاشراً: الإكراه السياسي ١١٠
حادي عشر: عدم تقدير الكفاءات ١١٢
خاتمة ١١٣
الفصل السادس: عوامل الجذب الخارجية ١١٥
مقدمة ١١٧
أولاً: الحاجة ١١٧
ثانياً: التوفير والإنفاق ١٢٢
ثالثاً: التطعيم ١٢٥
رابعاً: القدرة علىٰ الاستيعاب ١٢٦
خامساً: التحفيز العلمي ١٢٨
سادساً: التخطيط ١٢٩
سابعاً: حرمان دول المنبت ١٣١
ثامناً: الإغراءات المادية ١٣١
تاسعاً: رفع القيود عن هجرة الكفاءات ١٣٥
عاشراً: تحقيق الذات الإبداعية ١٣٧
حادي عشر: تقدير الكفاءات ١٣٩
خاتمة ١٣٩
الفصل السابع: العامل التاريخي ١٤١
مقدمة ١٤٣

مقدمات ونتائج الهجرة..... ١٤٤
الشرق وحده ينزف..... ١٤٧
العقل الغربي لا ينزف..... ١٥١
الهجرة بَيْنَ عقليتي الشرق والغرب ١٥٤
في الهجرة الأوروبية لأمريكا..... ١٥٧
خاتمة ١٥٩
الفصل الثامن: في آثار هجرة الكفاءات..... ١٦١
مقدمة ١٦٣
في الأبحاث العلمية..... ١٦٤
في الخسائر العربية ١٧٠
نادر الفرجاني وآثار الهجرة..... ١٧٤
محمد رياض وآثار الهجرة..... ١٧٨
الاتحاد البرلماني العربي وآثار الهجرة..... ١٨٠
خاتمة..... ١٨٢
الخاتمة..... ١٨٥
مراجع الكتاب..... ١٩٠
صدر من كتب المؤلف ١٩٩
الفهرس..... ٢٠٥

العالم العربي
The Arab World for Publishing

الدكتور عزت السيد أحمد

BLEEDING ARAB MIND

Reading in Migration of Arab Talents

BY BROF. Dr

EZZAT ASSAYED AHMAD

Publisher

The Araboc World for publishing

Amman. 2016

Emil: sameah3@gmail.com

BLEEDING ARAB MIND

Reading in

Migration of Arab Talents

BY BROF. Dr

EZZAT ASSAYED AHMAD

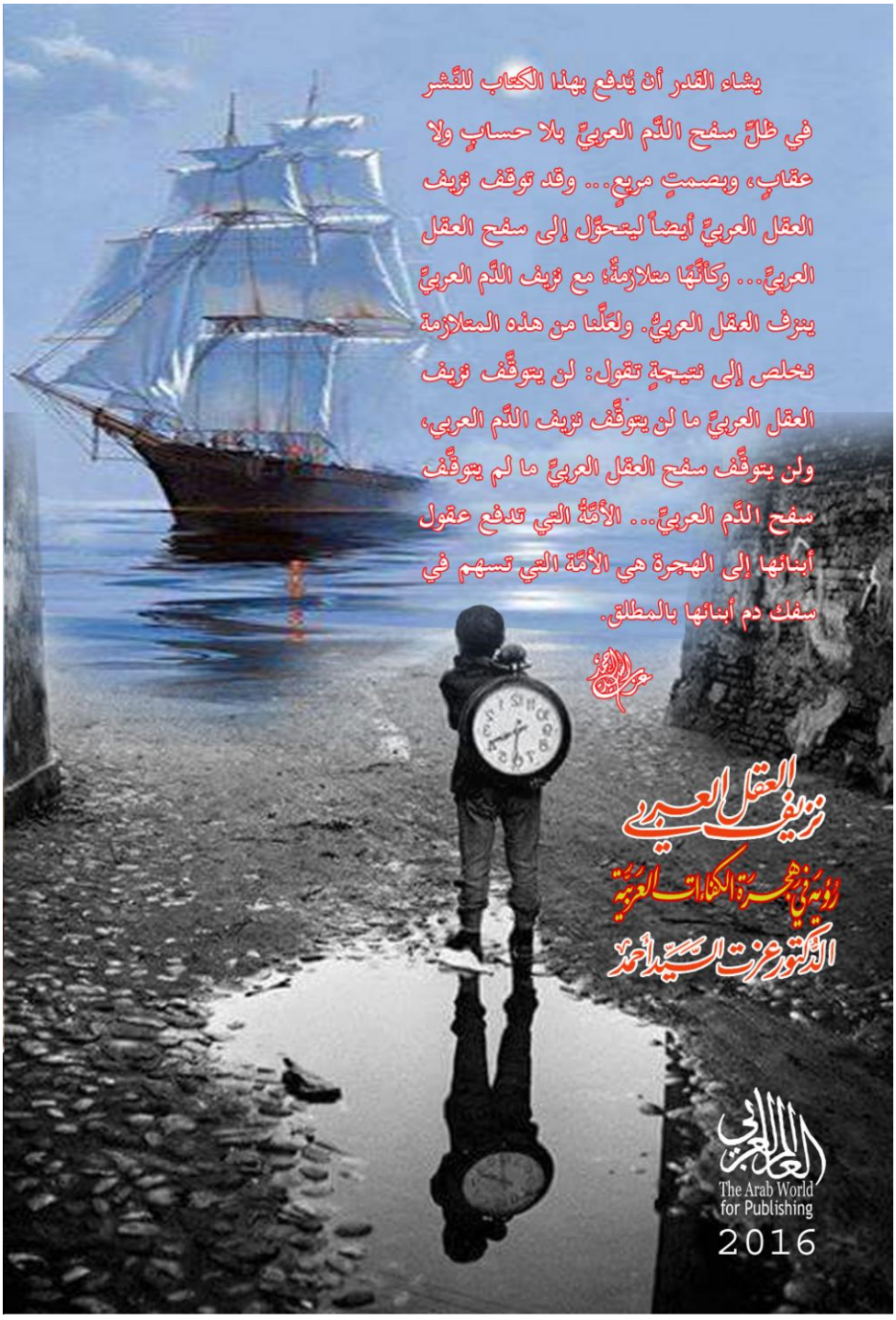
يشاء القدر أن يُدفع بهذا الكتاب للنَّشر في ظلِّ سفح الدَّم العربيِّ بلا حسابٍ ولا عقابٍ، وبصمتٍ مريبٍ... وقد توقف نزيف العقل العربيِّ أيضاً ليتحوَّل إلى سفح العقل العربيِّ... وكأنَّهما متلازمةٌ؛ مع نزيف الدَّم العربيِّ ينزف العقل العربيُّ. ولعلَّنا من هذه المتلازمة نخلص إلى نتيجةٍ تقول: لن يتوقَّف نزيف العقل العربيِّ ما لن يتوقَّف نزيف الدَّم العربي، ولن يتوقَّف سفح العقل العربيِّ ما لم يتوقَّف سفح الدَّم العربيِّ... الأمَّةُ التي تدفع عقول أبنائها إلى الهجرة هي الأمَّة التي تسهم في سفك دم أبنائها بالمطلق.
نزيف العقل العربي
رؤية في هجرة الكفاءات العربية
الدكتور عزت السيد أحمد
العالم العربي
The Arab World for Publishing
2016